جامعة القاضي عياض — كلية الآداب والعلوم الإنسانية



من التأسيس إلى آخر العصر الموحدي

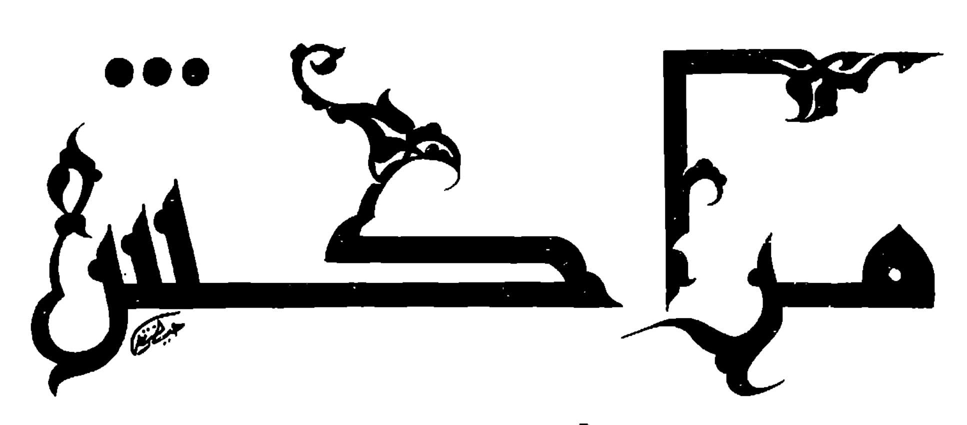


أشغال الملتقى الأول 1988



جامعة القاضي عياض

كلية الآداب والعلوم الانسانية



من التأسيس إلى آخر العصر الموحدي

أشغال الملتقى الأول 1988



اللجنة المنظمة

د. محمد بوغالي (عميد الكلية)

د. حسن جلاب (رئيس المركز)

ذ. الطاهر العلوي — ذ. محمد او جامع — ذ. ع العزيز المجذوبي — ذ. أحمد بلاوي

ذ. أحمد تبلسيت. د.ع. السلام الخرشي — ذ. احمد عمالك وذ.ع. الصمد بلكبير

الكتاب : مراكش من التأسيس الى آخر العصر الموحدي

الناشر : م.د.أ — مراكش — الأطلس الكبير.

الطبعة : الأولى — الدار البيضاء 1989

المطبعة : مطبعة فضالة - المحمدية (المغرب)

الايداع : 785 89

كلمـة افتتـاح نـدوة
«مراكش من التأسيس إلى آخر العصر الموحدي»

الدكتور محمد الكنيـدري
رئيس جامعة القاضي عياض
مراكش

أيها السادة الأفاضل :

يسعدني بالغ السعادة أن أفتتح اليوم ندوتكم هاته «مراكش من التأسيس إلى آخر العصر الموحدي»، هذه الندوة التي تندرج في إطار النشاط الثقافي والعلمي الذي تحتضنه جامعة القاضي عياض الفخورة بعطاءات باحثيها ومسؤوليها.

فمنذ أيام خلت انعقدت بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بأكادير ندوة حول مدينة «تارودانت» ثم تلتها ندوة علمية نظمت بكلية العلوم بمراكش حول «مساهمة البحث الجامعي في تنمية الصناعة الغذائية» واليوم تجتمع ندوة أخرى في رحاب هذه الكلية حول «مدينة مراكش».

إن توالي انعقاد هذه الندوات ليعكس في الحقيقة إصرارنا جميعاً على تأكيد وتطوير دور جامعة القاضي عياض في النهوض بمهامها التعليمية والثقافية، وكذا ضمان إشعاعها ووظيفتها التنويرية داخل مجالها الجغرافي ومحيطها الإقتصادي والإجتماعي.

ولست في حاجة إلى إبراز أهمية هذه الندوة التي يشرف على تنظيمها مركز الدراسات والأبحاث حول مراكش بتنسيق مع شعب الكلية. فمدينة مراكش التي لعبت أدواراً محددة ورائدة في التاريخ المغربي لا زالت تحتاج إلى مزيد من الدراسات والأبحاث التي تكشف عن مكانتها التاريخية كعاصمة للملك والسياسة في عهد الإمبراطوريات المغربية السالفة وكمهد للفكر والحضارة وكمركز للإنتاج الإقتصادي والمبادلات التجارية.

إن الآثار التاريخية التي تزخر بها هذه المدينة لتعتبر علامات مضيئة على ماضيها المجيد ومكانتها التاريخية الزاهرة.

ولا أحسبني مبالغاً إذا قلت إن ندوة اليوم ليست إلا بداية لنشاط مكثف لمركز الدراسات والأبحاث حول مراكش والتي ستتلوها ندوات أخرى تعطي لمدينة مراكش ما تستحقه من عناية واهتمام سواء على مستوى الجمع والتوثيق أو على صعيد الدراسات والأبحاث العلمية.

إن الإعتراف بمدينة مراكش مؤخراً من طرف منظمة اليونسكو كمدينة أثرية عالمية لدليل على حضورها الحضاري المشرق. وهذا من شأنه أن يحفز الهمم ويشحد العزائم للنهوض بها عبر ربط حاضرها بماضيها المجيد وإحياء أعلامها والتعريف بمعالمها حتى نكون خير خلف لخير سلف.

وفي الختام أنتهز هذه المناسبة السعيدة لأهنيء كلية الآداب بمراكش من خلال مركزها وشعبها على هذه المبادرة الطيبة وهذا التنظيم المحكم. كما أنوه بمركز الدراسات والأبحاث حول مراكش على ما بذله من مجهودات تستحق الثناء والتشجيع وأحثه في نفس الوقت على مزيد من الفعالية والنشاط.

كما لا تفوتني هذه الفرصة دون أن أتقدم بشكرنا الخالص إلى السادة الأساتذة الباحثين المشاركين في هذه الندوة والذين سيغنوها بمداخلاتهم ومحاضراتهم القيمة.

وفقنا الله لما فيه خير هذه البلاد تحت الرعاية السامية لصاحب الجلالة نصره الله وأيده.

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

كلمة السيد عميد كلية الآداب بمراكش

الدكتور محمد بوغالي

السادة الأساتذة الأجلاء

السادة الأفاضل

إنه لمن حسن الطالع أن نلتقي اليوم بهذه الكلية الفتية للمشاركة في إنجاح ندوتنا حول مدينة مراكش من التأسيس إلى آخر العصر الموحدي. ومن واجبي أن أشير إلى مدى أصالة وعراقة المدينة التي يحق لنا أن نفتخر باقتران اسمها باسم المغرب كله. وليس ذلك من قبيل المصادفة أو المجاملة لأن مراكش كانت ولا تزال عنواناً ساطعاً للأصالة والشموخ التاريخي والحضاري، حيث ساهمت في إعطاء وتكوين واحتضان مجموعة من الأعلام من ملوك ومؤرخين وفلاسفة وأطباء ورياضيين وفلكيين وشعراء ولغويين وكتاب وفقهاء. ولم يعمل أحد منهم بأرضها المعطاء إلا وجاء إنتاجه متكامل الجوانب، محكم الأفكار، سديد الآراء، دالًا على صدق الإرادة الخلاقة. ويكفينا فخراً أننذكر أن أسماء لامعة في تاريخ الغرب الإسلامي مرتبطة أوثق ما يكون الإرتباط بأرض مراكش كابن زهر وابن رشد وابن طفيل وابن البناء والإمام السهيلي وأبي العباس السبتي والقاضي عياض وغيرهم كثير من عباقرة الفكر وسادة الرأي.

وإذا نسينا فلن ننسى أن تأسيس مدينة مراكش أراد الله له أن يقترن باسم يوسف بن تاشفين الذي يعتبر من كبار المجاهدين والمدافعين عن صفاء العقيدة الإسلامية وعن حمايتها من الشائبات والبدع. وهكذا بدأت مراكش تاريخها كقلعة للجهاد في سبيل إعادة كلمة الله وحصناً تنطلق منه الجنود لنصرة إسلام خالص وأرفع ما يكون الصدق والإخلاص.

كما لا يمكن أن نتناسى أن حسن الطالع الذي شهد تأسيس المدينة مع يوسف بن تاشفين لا يزال ساري المفعول حيث إن مراكش أصبحت حاضرة سبعة رجال وعنوان البهجة دون منافس.

أيها السادة الافاضل

إنه لمن نعم الله تعالى أن تجتمع مثل هذه الصفات لنفس المدينة وأن تستمر باستمرار عمرانها وأن ترسخ برسوخ أصالتها. وإذا عقدت كليتنا اليوم صادق العزم وحسن الإرادة على تحقيق الندوة التي نحن بصددها فإن ذلك راجع إلى ضرورة التفكير بأمجاد الماضي والوقوف بكل إخلاص لاستنتاج واستخلاص العبر التي لا بد منها لإنارة واجهة الحاضر وتصور كيان المستقبل بكل اطمئنان. ولا يخفاكم ما للأصالة التاريخية من فعالية لتهييء تصور أفق ناجع ومتوازن للحاضر والمستقبل. ولن يشك أحد اليوم أن المجموعة الخيرة من الأساتذة والباحثين المتواجدة في رحاب هذه الكلية الفتية جاءت بكفاءاتها وخبراتها وحسن إرادتها وطويتها لتقف وقفة الشاهد الصادق، والمؤرخ المخلص، والباحث المتزن، للتذكير السليم بأصالة الماضي وللوقوف على خيرات الحاضر وللاجتهاد في وضع لبنات الغد المشرق المعطاء. كما لا يشك أحد أن أعمالكم ستكون مناسبة أخرى للإسهام في

ترسيخ مجد مراكش، وإن من يعرف تاريخ بلاده يعرف كيف يفتخر به ويدافع عنه كما أكد ذلك مراراً جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله.

لن أختم كلامي هذا دون التنويه بالمجهودات المخلصة والتضحيات التلقائية التي قبلها بدون تردد جميع أساتذة الكلية وخصوصاً منهم أساتذة شعبة اللغة العربية الذين عملوا بحسن تدبير ودراية على تنسيق الجهود حتى يتم لقاء اليوم بالشكل المرغوب فيه وحتى تتعزز مكانة الكلية بين مثيلاتها داخل الوطن. كما أن ندوة اليوم ستكون مناسبة سانحة للتعرف عن قرب عن الجهود المحمودة التي يواصلها بكل غيرة وحزم مركز الدراسات والأبحاث حول مراكش الذي جاء نتيجة حرص أساتذة الكلية على الإسهام المخلص في التعريف العلمي والتاريخي بالمدينة والدفاع عن أصالتها والتخطيط لمستقبلها كقبلة جامعية وفكرية وحضارية.

ولن تفوتني فرصة هذه الكلمة دون أن أتوجه بخالص الشكر وصادق المودة إلى جميع السادة الأساتذة والباحثين الأجلاء على كريم استجابتهم لدعوة المشاركة في ندوتنا وعلى ما وجدناه فيهم في تلقائية. كما لا أشك أن التوفيق المؤكد سيكون حليف أعمالكم ومواكباً لجميع خطواتكم لأن نياتكم نيات العلماء والمفكرين المخلصين ولأن سعيكم سعي الباحثين المتبصرين.

ومن واجبي كذلك أن أوجه أحر تشكراتنا إلى جميع الإخوان الذين ساعدونا ماديا على إنجاز هذه الندوة والذين برهنوا دون تردد عن مدى احترامهم لكليتنا وعن بالغ الكرم في المساعدة كما هو معهود فيهم.

كما أشكر جميع السادة والإخوان الذين شرفونا اليوم بحضورهم إلى جانبنا، وإننا لمعتزون كل الإعتزاز بتواجدهم لإنجاح ندوتنا.

أعاننا الله جميعاً على خدمة المغرب والرفع من سمعته والدفاع عن أصالته والسعي وراء تحقيق شموخه تحت الرعاية السامية لجلالة الملك الحسن الثاني نصره الله وأيده.

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

كلمة اللجنة المنظمة للندوة

د. حسن جلاب

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها السادة والسيدات

يغمرني فرح كبير، وابتهاج عظيم وأنا القي كلمة اللجنة المنظمة للندوة العلمية الأولى التي ينظمها مركز الدراسات والأبحاث حول مراكش. وهو مطلب تشوقنا الى تحقيقه، وغاية سعينا الى إنجازها، ومنذ زمن غير قصير... انها الخطوة الأولى ـــ وما أصعب الخطوات الأولى ـــ ستكون الانطلاقة إن شاء الله. نُضيف بها لبنة إلى لبنات تشيّد صرح البحث العلمي بكليتنا الفتية. فمنذ حوالي الشهر جرت أعمال ندوة عالمية حول الأدب المغاربي، وقَبْلَها أيام دراسية وعلمية لمختلف الشعب، وزيارة علمية لأساتذة من تونس، وفرنسا، والعراق والمغرب... دون أن نذكر الندوات المنظمة في السنوات الماضية، نؤكد بها أن البحث العلمي يجب أن يسير جنبا الى جنب مع القاء المحاضرات وتكوين الطلبة والأشراف على بحوثهم.

أيها السادة

إن تأسيس جامعة القاضي عياض بمراكش كان حدثا عظيم الأهمية، ومناسبة تلقى فيها هذا الجيل الأمانة، أمانة العلم والتراث والبحث العلمي ضمانا للاستمرار وللتطور، فقد بذل أسلافنا المطهرون الجهد الجهيد في سبيل الحفاظ على الاشعاع العلمي الذي عرفته مراكش منذ تأسيسها والى فترات غير بعيدة.. بلغت قمة عالية أحيانا حتى صارت تشبه ببغداد وقرطبة وكبار مراكز العلم والثقافة في العالم الاسلامي. وكانت جامعة ابن يوسف ـــ الى جانب أختها جامعة القرويين ـــ منارا يهتَدى به طلبة العلم والمعرفة من أرجاء الدنيا، ومركزا للتأليف والابداع والعطاء، ولله در الصوفي أبي عمرو القسطلي المراكشي الذي قال في المقارنة بينها وبين جامعة أخرى (يكاد السر ينبع من حيطانها)، ثم أنشد :

شتان بين اكتحال العين وضعا وما
بين كحولة ما في الحسن والصور (كذا)

وبالرغم من حداثة عهد جامعة القاضي عياض فقد أبان باحثوها على مقدرة فائقة، ليس في الحفاظ على تراث أجدادنا ولكن أيضا بتطويره وتكييفه لشروط العصر، فيصبح رافدا من روافد التنمية، إذ أصبح من البديهي أن لا تنمية حقيقية بدون بحث علمي.

وتحقيقا لهذه الأهداف أنشأت كلية الآداب التابعة للجامعة مركزا للدراسات والأبحاث حول مراكش وسطرت له أهدافا وبرامج محددة أهمها :

ـــ الحفاظ على التراث المتصل بالمدينة من قريب أو بعيد، وبجمعه، (اقتناءا أو تصويرا)، وفهرسته، وتهييئه للباحثين والمهتمين.

ـــ دراسة تاريخ المدينة وعمرانها، وأدبها، والتعريف بأعلامها وبإسهامهم في مجال الثقافة المغربية والاسلامية : عن طريق المحاضرات والندوات والتآليف...

ـــ تطوير البحث حول المدينة بتوجيه الطلبة الى هذه الأبحاث واقامة تداريب لهم قصد تزويدهم بأدوات البحث وأساليبه في مختلف الميادين والتخصصات.

وتدخل هذه الندوة في إطار التعريف بالمدينة وأعلامها وبعض ما أثير فيها من قضايا وإشكالات تمس السياسة أو المذهب أو الثقافة... لقد قطعنا شوطا كبيرا في وضع ببليوغرافيا لما كتب عن المدينة جمعنا فيها مئات المواد : من مؤلفات مخطوطة ومطبوعة، ومقالات وأطروحات ورسائل... ستتعرض مداخلات هذه الندوة لبعضها، إلا أن هذه المواد على كثرتها لا تغني عن الرجوع ـــ وربما مرات ـــ للحديث عن تاريخ وحضارة المدينة فقد اختلفت مقاصد كتابها وغاياتهم خاصة في فترة الحماية، وتباينت مناهجهم ومصادرهم. وأصبح بعضها الآن متجاوزا ولم تَعُدْ له إلا أهميته التاريخية المرحلية، في حين حافظ بعضها الآخر على مكانته المصدرية. إلا أن طول المدة بيننا وبين تأليفه، جعل الحصول عليه من باب المحال. لهذه الأسباب كلها، ولطبيعة التطور الذي تعرفه مناهج العلوم الانسانية، تستمد ندوتنا مشروعيتها بل ويصبح من الواجب علينا أن نهتم باستمرار بالبحث في هذا الاتجاه.

ودون الدخول في تفاصيل المحاور التي توجد بين أيدي حضراتكم، فإن جهود السادة الأشاتذة المشاركين في هذه الندوة ستركز حول دراسة المجال الذي أسست فيه المدينة : الحوز. من حيث طبيعته المرفلوجية والمناخية والعناصر البشرية الموجودة فيه، وتحاول الاجابة على اشكالات عرفت نقاشات طويلة بين الباحثين الأجانب : الموقع والموضع والتأسيس والتسمية. واشكالية التعمير والتمدين. وسيكون لنا اهتمام خاص بقضايا تتعلق بالدولة المرابطية وسياستها الأندلسية والثقافية، وموقفها من الأدب والفكر وخاصة التصوف، وستهتم المداخلات أيضا بالحياة الثقافية والفكرية في مراكش الموحدية، ومذهب ابن تومرت وما كان له من تأثير عليها. وبذلك نسعى الى تناول كافة المجالات المتصلة بالمدينة وحضارتها منذ التأسيس الى آخر العصر الموحدي.

وحتى تتسم الأبحاث بالدقة، وتتاح فرصة للنقاش والحوار كان لا بد من الوقوف بهذه الندوة عند هذا الحد (الحلقة الأولى) على أمل الرجوع في السنوات المقبلة اليها في حلقات متخصصة نتمنى أن تخرج منها بمجلدات تُكوِّن تاريخ مراكش السياسي والعلمي : يقدمه هذا الجيل هدية الى الأجيال السالفة، وعربونا على الاستمرارية والوفاء.

وما كان لنا أن نفلح في تنظيم هذه الندوة لولا تشجيع السيد رئيس الجامعة المحترم، وجهود السيد عميد كلية الآداب المحترم، ووقوفه الى جانب اللجنة المنظمة منذ التفكير في المشروع الى

حين إنجازه، وجهود كل أعضاء لجنة الندوات بالكلية ولجنة المركز وأساتذة الكلية على العموم وأطرها الادارية. أما الأساتذة الذين تفضلوا بقبول المشاركة معنا من خارج الكلية وتحملوا في سبيل ذلك عناء السفر ومتاعبه، خاصة وأن بعضهم كان ملتزما في أكَدير أو وجدة. فإننا نقدر عملهم، ونشكر سعيهم، ونرجو من الله تعالى أن يجازيهم عنا أحسن الجزاء. كما أشكر الأخ عبد الغني أبو العزم على المعرض القيم والمشرِّف الذي أخذ من وقته الشيء الكثير.

وفي الختام أوجه خالص الشكر والتحية الحارة الى كل الذين أسهموا في التنظيم المادي للندوة، وأخص بالذكر :

ــ السيد علال اكوري ، السيد احمد بلوافي، السيد احمد المنصوري.

ومما يثلج الصدور ويبشر بتحقيق الآمال ان السيد مدير مؤسسة أسمار قد قام بكل الاجراءات لطبع أعمال هذه الندوة ووعد بطبع أعمال الحلقتين المقبلتين. فله منا جزيل الشكر والامتنان.

وآمل أن يكون نجاح هذه الندوة حافزا لذوي الاريحية والكرم من أعلام مدينتنا للتعاون معنا قصد انجاز مشروعنا الطموح وبكل حلقاته، وبعض من مخططات المركز. فهدفنا شريف ونبيل الا وهو خدمة العلم والثقافة... وهو أمر يجب أن يتنافس فيه المتنافسون وتلتحم حوله كل الارادات والفعاليات حتى نحافظ لمدينتنا على اشعاعها الثقافي والعلمي، فنعمل الى جانب اخواننا في باقي المدن المغربية على خلق مغرب مزدهر ومتقدم، وما ذلك على أبناء أمتنا بعزيز.

والسلام عليكم ورحمة الله

حول معنى اسم مراكش

ذ. أحمد التوفيق
كلية الآداب الرباط

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على رسوله الكريم

إن بعض أسماء الأماكن ومنها أسماء المدن وثائق تاريخية، وغير خاف على أحد أن بعض الوثائق عندما تكون مزعجة أو منفرة بما تتضمنه لطرف من الأطراف فإنه يحاول إتلافها. ومن هذا القبيل المحاولة التاريخية المصرة على إتلاف معنى اسم **مراكش**. فقد اقترحت لشرح معنى هذا الاسم في مسلسل الاتلاف الذي ألمحنا إليه بدائل كقولهم : إن معنى **مراكش** : مر مسرعاً، لأن المكان كان قبل عمارته غيضة مخوفة. قال صاحب **كتاب الاستقصا** (1954، 2، 24) : «وفي كتاب **المعرب** : «أن يوسف بن تاشفين اختط مدينة مراكش بموضع كان يسمى بذلك الاسم ــ ومعناه بلغة المصامدة : امش مسرعا ــ وكان ذلك الموضع مكمنا للصوص، فكان المارون فيه يقولون لرفقائهم تلك الكلمة بضم الميم وفتح الراء المشددة بعدها ألف، وبعد الألف كاف مكسورة ثم شين معجمة، ويقال كانت في موضعها قرية صغيرة في غابة من الشجر وبها قوم من البربر...»

ولا شك أن المصدر الذي ينقل عنه الناصري هو «**المعرب عن سيرة ملوك المغرب**» نقلا عن وفيات الأعيان وهو مفقود، وفيه أورد ابن خلكان ترجمة يوسف بن تاشفين (7 : 111)، من طبعة بيروت بتحقيق الدكتور إحسان عباس) وقال عن هذا المصدر إنه «أوعب في حديثه من غيره لكنه لم يذكر مؤلفه حتى أذكره غير أنه قال في أول النسخة التي نقلت منها هذا الفصل : إنه كتبها في سنة تسع وسبعين وخمسمائة وفرغ منها في غرة ذي القعدة من نفس السنة بالموصل وهو في مجلد واحد لطيف» إلى أن قال : «وكان يوسف هذا رجلا شجاعا عادلا مقداما اختط بالمغرب مدينة مراكش، وكان موضعها مكمنا للصوص [....] بناها الأمير يوسف بموضع كان اسمه مراكش ــ معناه امش مسرعا بلغة المصامدة».

إن هذا التأويل مرجعه لسان المصامدة، وإذا ما استعرضنا أسماء الأماكن في المجال المصمودي عثرنا بالفعل على اسم مكان وحيد بهذا المعنى (امش مسرعا أو مر منه مهرولًا أو فاراً) وهذا المكان يقع جنوب شرقي دمنات وهو كْرُوْلْ (= اَكّ + رْوْلْ) وليس في لسان المصامدة «مُرَّ» بمعنى : امش، ولا «كِشْ» بمعنى مسرعا.

أما أقرب معاني اسم مراكش إلى التأويل المذكور فيتحتم أن نأخذها كلمة واحدة هي : أمراكس، بهمزة مفتوحة مشددة، وكاف عليها حركة بين الضم والسكون وسين ساكنة في الأخير بدل الشين التي في اسم مراكش كما وقع النطق بها منذ أن جرى رسمها، ومن صيغ الكلمات التي على وزنها كلمة أَمْدَّاكُلْ (= الصديق) وحذف همزة الأول في أَمْرَّاكُسْ جائز إما على عادة الزناتيين، وكانوا في أغمات، وإما على عادة التعريب استثقالًا، فتصير : مْرَّاكُشْ، ومعناه : المخبأ من فعل ر.ك.س، أي اختبأ.

وقد يتبادر إلى الذهن أن كل مذهب أبعد من هذا في التأويل قد ينطوي على تمحل وتقعر بيد أن هذا الظن إنما كان يغني لو لم يرد ما يقربنا من رسم الكلمة على حقيقته الأصلية، ولو لم

تكن هنالك قرائن أخرى توعز بتأويل مغاير. إن الروايات المتعلقة بتأسيس مراكش كما وردت عند ابن أبي زرع وعند ابن عذاري وعند مؤلف **الحلل الموشية** كلها متأخرة عن تاريخ التأسيس بأزيد من قرن ونصف، لذلك نجدها تخطيء حتى في المؤسس فتذكر ابن تاشفين بدل أبي بكر بن عمر، فلا يتعين مع هذا أن نتطلب عندها دقة في رسم اسم المدينة وتأويلا لاسم معناه، إذ الغالب في مثل هذه القضايا عند المغاربة هو الرجوع فيها لكتب المشارقة وتجاهل كل صلة لها بواقع محلي.

إن أقرب مصدر إلى تاريخ تأسيس مراكش يذكر اسمها هو كتاب **التبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بني زيري في غرناطة** للأمير عبد الله بن بلكّين بن بادس الصنهاجي الذي عزله المرابطون عن عرش غرناطة عام 483 هـ في من عزلوا من ملوك الطوائف ، وقد سبق لليفي بروفنصال الذي حقق النص الأصلي من هذه المذكرات الأميرية القيمة أن نبه إلى أن رسم مراكش فيه هو مروكش، وهذه الصيغة المذكورة في النص مرتين هي التي أخذت منها الصيغة الاسبانية القديمة Marruecos ونبه على هذا الرسم أيضا توفيق الطيبي في هوامش تحقيقه للترجمة الانجليزية لهذه المذكرات (BRILL ،1986).

إن هذه الصيغة تبعدنا عن الاسم الذي يعني «المخبأ» وهو أمراكس، يضاف إلى هذا أننا نجد صعوبة في تبرير بدل حرف السين بحرف الشين وإن تجاورا. ومن القرائن التي تشجع على الانصراف عن معنى المخبأ ما أثبتته كل الروايات من كون الموقع المسمى باسم مراكش قبل بناء المدينة كان بين قبيلتين وهما أيلان وهزميرة، ونحن نعلم أن معظم المدن إن لم يكن كلها بنيت على الحدود بين كتل قبلية لانها المواقع الممتازة للاسواق، ولا نعدم رواية تذكر وجود عمارة في الموقع الذي يهمنا. فننصرف إذاً إلى البحث عن معنى آخر قديم لاسم مراكش.

إن فرضيتنا هي أن اسم مراكش اسم تنوسي معناه مركب من كلمتين هما كلمة مُرْ أو أمُرْ وكلمة كُشْ أو أكُشْ يمكن أن تربط بينهما أداة وصل وإضافة في اللسان المصمودي أو الصنهاجي وهي في هذه الحالة واوٌ فيقتضي تركيب هذه الجملة أن يكون النطق : أمُرَكُشْ، فتنوب الفتحة على الحرف الأخير من الكلمة الأولى عن حرف الهمزة الذي تبتدئ به الكلمة الثانية، أو يقتضي التركيب إدخال الحرف الدال على الاضافة في الجملة الأمازيغية وهو النون أو الواو فنقول : أمُرْنُوكُشْ أو أمُرْوَّاكُشْ، ونثير الانتباه مجددا إلى أن الزناتيين الذين تذكر المصادر وجودهم في أغمات قبيل بناء العاصمة المرابطية يسقطون الهمزة في ابتداء الكلمات التي تحملها عند المصامدة أو صنهاجة كما تفعل العربية العامية بكثير من الأسماء الأمازيغية التي يوجد حرف الهمزة في أولها، وبإسقاط هذه الهمزة يصير نطق الاسم المركب هكذا : مُرَكُشْ أو مُرْوَاكُشْ، وهذه الهمزة التي كانت في الأصل تشهد عليها صيغة التأنيث : تامراكشت، وهي مثلها مثل الهمزة التي سقطت من أول أغرناطة لتبقى : غرناطة. فالرسم الوارد في كتاب **التبيان** ينبغي أن يشكل هكذا : مُرْوكُشْ ليطابق تمام المطابقة المعنى الذي نفترضه.

أما معنى كلمة أمَرْ أومُرْ فهو الحماية أو الحمى أو الحرم. وتوخيا للاختصار نحيل للتأكيد من هذا المعنى على عدد من المصادر، منها **معجم لغة التوارك** لدوفوكو ونحيل على ما أورده صالح بن عبد الحليم في **المخطوط** الذي بالخزانة العامة بـ رباط تحت رقم كـ 1275 حيث يذكر أن أحد أمراء البربر عندما لقي عقبة بنت نافع قال له عقبة : هذه حرمة بيني وبينكم أن تدخلوا الاسلام، فجعل بينه وبين هذا الأمير الذي يسمى حرما بن توطيس عهداً فكان قومه بعده إذا تحالفوا وتعاهدوا قالوا : أمورنْ الحرما. واسم حرما كما هو واضح صنهاجي، كما أن كلمة أمَرْ ومُرْ من القاموس الصنهاجي الذي هو قاموس الأمراء المرابطين.

كما نحيل في موضوع معنى أمور على مادة Amur الواردة في الجزء الرابع من **دائرة المعارف البربرية** التي تصدر في **إيكس أون بروفنس**، وكذا على مراجع كاتب هذه المادة كما نحيل على الوثائق المتعلقة بدرعة الواردة في رسالة دبلوم الدراسات العليا التي هيأها حول درعة أحمد البوزيدي الأستاذ بكلية الآداب بفاس. والمحصل من هذه المصادر وغيرها أن أمَرْ هو الحماية أو الموضع المتمتع بها كأن يكون حمى أو حرما أو رعاية أو داخلاً في شروط تحمل الفرقاء من القبائل وغيرها على أن يضمنوا الأمن والأمان بعضهم لبعض في مجال معين يكون عادة سوقاً أو مكان انعقاد موسم أو مرعى أو غير ذلك، وكثيراً ما تتم هذه الحماية بضمان أشخاص مبجلين أو رؤساء مقتدرين، وتحيط بها هالة من التقديس، وهذه الكلمة واردة ينسب إليها أيت إيمُورْ القبيلة المعروفة، وإنما سميت بذلك لأنهم كانوا محميين أو حماة لغيرهم من القبائل في جهات ملوية العليا قبل أن ينتقلوا إلى جهات تادلا ثم إلى حوز مراكش.

أما أكُشْ أوأكُوشْ فهو الرب عند الامازيغ الاقدمين كما ورد عند أبي زكرياء الوسياني الإباضي، وعند البكري في **المغرب** حيث يقول : إن برغواطة كانوا يذكرون في صلواتهم ياكوش مكان اسم الجلالة : **الله**، وكذا عند الدرجيني في **طبقاته** وهو يذكر فتوى للشيخ أبي عمرو بن أبي يعقوب الذي عاش بوارگلا في القرن الرابع للهجرة. وليس باكوش الذي في كتاب **البيان المغرب** سوى تحريف لياكوش أو أكُشْ.

فمعنى **مراكش** في أصله على هذا الاساس هو **حمى الله** أو المكان الذي ترعى فيه عهود الله سواء كان القصد معنى إسلامياً أو معنى في سياق النحلة البورغواطية أو معنى سابقاً حتى عن الاسلام.

ولا شك أن الذي استدعى التسمية هو ما ظل يستدعي إلى وقت قريب منا لدى القبائل إقامة عهود الحماية والتكفل أو الرعاية أو ثايْسًا، وهي مقتضيات الحدود بين المجموعت المتبادلة للمصالح كأهل الجبل وأهل السهل، وبهذه المقتضيات ترتبط الأسواق والرباطات والمواسم وغيرها.

فاسم مراكش يدل على أن هذا المكان قطع به عهد إلهي أو أنه محل نشاط تجاري أو ديني أو هما معا لزم فيه رعاية المواثيق ودرء العدوان. ولا نريد أن نتعرض هنا لذكر الاشارات التاريخية المؤيدة لهذا التفسير اللغوي المحض لأننا لم ننطلق من هذه الاشارات ولا نريد أن ننتهي إليها. وبعد هذا الشرح أود أن أشير في عجالة إلى أن السبب في العمل على طمس معنى اسم مراكش. قد يكون هو وجود اسم كوش في تركيبه لانه ينتمي باللفظ أو بالمعنى إلى ما سعى الضمير السني إلى أن يتخلص منه ولو بالنسيان.

تأسيس مراكش*
(1070 — 462)

ليفي — بروفنصال
ترجمة أحمد التوفيق

* نشر هذا البحث ضمن كتاب **الأعمال المهداة لجورج مارسي**، ص 117 — 120. وهو من الأبحاث الأخيرة، إن لم يكن آخرها بقلم الفقيد ليفي بروفنصال قبل موته بباريس في يوم 24 مارس 1956.

إن الفترة الموافقة لأيام استقرار المرابطين في جنوب المغرب وبداية نشاطهم السياسي بعد أن تجاوزوا المفاوز القفراء من الصحراء الغربية، من الفترات التي تقل معرفتنا عنها بالنسبة لغيرها في تاريخ بلاد المغرب في العصور الوسطى. فترة تقع حوالي منتصف القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي). ذُكرت معالم تاريخها باقتضاب عند الأخباريين مؤلفي النصوص العربية، وعنهم أخذ من أرخ في هذا العصر الحديث لإفريقيا الشمالية، وقد اعتمد هؤلاء المتأخرون اعتماداً أساسيا على ابن خلدون فركنوا دون تشكك أو نقاش لتواريخ الوقائع كما قدمها، علما بأنها هي نفسها، ما عدا في اختلافات نادرة، لا تختلف عن تواريخ الوقائع كما وردت في **روض القرطاس**.

وهكذا نجد جميع كتب تدريس التاريخ في بلدان المغرب تستند إلى ابن خلدون وابن أبي زرع لتحدد سنة 454 (1062) تاريخا لتأسيس مراكش وتنسب هذا التأسيس إلى يوسف بن تاشفين، ولو وقع التنبه إلى هذين المعطيين لظهر ما بينهما من قلة الموافقة. فيتحتم، إذا، مراجعة هذا وذاك، ذلك بأن القواعد الأولى لحاضرة الجنوب المغربي الكبرى إنما، وضعت بعد مرور ثمان سنوات على هذا التاريخ المُجمَع عليه، كان ذلك على وجه التدقيق يوم 23 رجب من عام 462 (8 مايو 1070). ولم يكن يوسف بن تاشفين هو صاحب المبادرة في هذا التأسيس وإنما كان هو ابن عمه سالفه الأمير أبو بكر بن عمر.

إن تاريخ 462 (1070) يندرج في سياق من تاريخ المرابطين مختلف اختلافاً محسوساً عن التاريخ الذي تقترحه مجموعة **القرطاس ـــ العبر**، وله على هذا الأخير ميزة إضفاء ترتيب وتتابع أكثر موافقة للمنطق يتحاشى الفجوات الممتدة في الزمن. إن هذا التاريخ تعطيه مجموعة أخرى من الحوليات يرجع تاريخ تأليفها هي أيضاً إلى القرن الثامن (XIVم) ولكنها تستند في أخبارها استناداً مباشراً إلى مصدر معاصر للمرابطين أنفسهم نأسف على ضياعه ألا وهو كتاب المؤرخ الرسمي للدولة، الأندلسي أبي بكر بن الصيرفي. وتتكون هذه المجموعة الثانية من كتاب **البيان المغرب**. لابن عذاري، وكنا قد عثرنا منه على نبذ موسعة تهم عصر المرابطين، ومن كتيب أخبار نجهل مؤلفه وهو كتاب **الحلل الموشية**، وقد طبع مرتين وترجم مؤخراً إلى اللغة الاسبانية.

وليس في نيتي قط أن أقوم في هذه الصفحات القليلة بمعالجة نقدية مفصلة لمصادر تاريخ المرابطين ولا أن أتعقب ابن أبي زرع أو ابن خلدون في نقائصهما سيما وأن هذا الأخير لم يفتأ يعتبر، عن تقدير مبالغ فيه بالنسبة لتاريخ المغرب قبل عصر المرينيين، مصدراً أساسياً للأخبار يحظى بالثقة أكثر مما يحظى بها غيره من المصادر. أما المسألة التي تهمنا في الحال، وهي مسألة تاريخ تأسيس مراكش وشخص مؤسسها، فقد كان من السهل حتى ولو لم تستعمل التواريخ الجديدة التي يعطيها **البيان المغرب والحلل** أن يقع التدليل على أن المعطيات التي تُقبلت لحد الآن على أنها صائبة يوشك أن يبين وهمها.

إن لدينا في واقع الأمر عن هذه المسألة شهادة لا تناقش قيمتها، شهادة الجغرافي الأندلسي الكبير أبي عبيد البكري، وهو من هو في وثوق الأخبار وجودتها، وإن قد تسرع في مناقشته أحياناً م.ج دوسلان ناشر كتابه ومترجمه عند المقطع الذي نورده أسفله. إننا نستطيع بالاستناد إلى البكري أن نؤكد أنه في عام 460 (1068) أي بعد مرور ست سنوات على التاريخ الذي زُعم أنه تاريخ تأسيس مراكش، لم يكن يعرف شيء عن هذه المدينة الجديدة سواء في المغرب أو الأندلس. فالبكري يذكر صراحة في النبذة القيمة التي خصصها لتاريخ المرابطين إلى غاية وقت تحرير كتابه **المسالك والممالك** أن : «أمير المرابطين إلى اليوم وذلك سنة ستين وأربعمائة أبو بكر بن عمر وأمرهم منتشر وغير ملتئم ومقامهم بالصحراء»(1).

فما عسانا نستنتجه من هذا الخبر الجازم الذي لا مجال فيه للارتياب إن لم نستنتج أنه في عام 460 لم تكن مراكش قد تأسست ولا فاس قد فتحت ولا المغرب الأوسط والشرقي قد ناوشته كتائب اللمتونيين، بينما لو أننا ركنا إلى أخبار ابن أبي زرع وابن خلدون لكان علينا أن نسلم بأن سنوات عدة قد انصرفت على خلافة يوسف بن تاشفين لأبي بكر بن عمر في إمارة المرابطين. على بلوغه في غزوه المغرب جهة ملوية وعلى زواجه بالأميرة زينب وتأسيسه للعاصمة الجديدة ؟

لنكتف بهذه الاعتبارات الموجزة ولنتتبع الآن من خلال شواهد **البيان** ومن خلال شواهد **الحلل** كمكمل لها، رواية ابن الصيرفي المتميزة بمعاصرتها للأحداث، ومنها يعلم أنه في سنة 461 (1069) وهي السنة الموالية لسنة وضع نبذة البكرى عن المرابطين، قرر أبو بكر بن عمر إنشاء قاعدة مرابطية على مقربة من أغمات، وكان قد نزل لتوه بهذه المدينة. فهي تقع عند قدم الأطلس الكبير على بعد حوالي أربعين كلمتراً إلى الجنوب من مراكش على ضفاف مجرى مائي صغير، وكانت تتكون من قريتين كبيرتين متميزتين تفصل الواحدة منهما عن الأخرى أجنة وبساتين، والمسافة بينهما من ألفي متر إلى ثلاثة آلاف متر. وتحمل كل قرية منهما إسم القبيلة المصمودية التي تنتمي إليها : أغمات وريكة وأغمات هيلانة. وبالرغم من كون هذه المدينة واقعة في عمق جهة اعتادت التمرد عن كل نظام فإنها كانت على درجة من الرخاء في القرن الحادي عشر، وكانت حاضرة إمارة صغيرة قائمة على التجارة يتولى تدبير شؤونها شيخ من الشيوخ (أمغار). وكانت، إضافة إلى ما ذكر، مركزاً نشيطا بفضل ترحيب أهلها ببعض من حل بها من فقهاء الأندلس وإفريقية. وقد دخلت أغمات تحت إمرة أبي بكر بن عمر، كما دخل في طاعته المصامدة المستوطنون في الجبال المجاورة، وذلك في عام 450 (1058)، أي قبل بضعة شهور من سقوط عبد الله بن ياسين داعية المرابطين قتيلًا في حرب برغواطة بتامسنا. وفيما بين عام 450 وعام 460 واصل أبو بكر بن عمر غزوه للصحراء

(1) طبعة البارون دوسلان، ص 170 من النص العربي.

وفي اتجاه ساحل المغرب على المحيط الأطلسي. وفي ذي القعدة عام 460 (شتنبر 1068) عاد هذا الأمير اللمتوني إلى أغمات وقد جذبه جمال زينب النفزاوية الشهيرة ذات المواهب السحرية والذكاء الوقاد، كانت تحت شيخ البلد، وهي في أصلها إفريقية، إذ هي كريمة مهاجر من القيروان، وقد تزوجها أبو بكر وأسلم لابن عمه يوسف بن تاشفين الذي يظهر في صدارة الأحداث لأول مرة، قيادة جيش الغزو المتكون من اللمتونيين ومن حلفائهم المصامدة ضد بني يفرن ومن انضم إليهم من زناتة.

وما كان استقرار أبي بكر بن عمر بأغمات، هو ومن معه من غزاة المرابطين المتبقين معه، ليحدث مشكلة لو أنه ظل كما كان في السابق يسكن خيامه. غير أنه قام، بإشارة من زوجته زينب، باحتلال عدد من الدور ليسكنها هو وقومه، فلم يسلم من لوم السكان وتكرار شكواهم، فما كان منه إلا أن أصغى لالتماس شيوخ وريكة وهيلانة، وطلب منهم أن يدلوه على موضع يتأتى له فيه بناء مدينة، وبعد مخابرة ومفاوضة، وكان كل فريق يتمنى أن تقوم المدينة الجديدة في بلاده، انتهوا إلى قرار يقضي بالبحث على الحدود بين القبيلتين : وريكة وهيلانة، عن موقع قفر بعيد عن مجرى الماء ليكون بمنجاة من الفيضان في فصل ارتفاع مستوى مياه الأودية والشعاب.

ولنورد الآن نص **البيان المغرب** بحرفه حيث يقول : «فعرّفوا بذلك أميرهم أبا بكر بن عمر وقالوا له : «قد نظرنا لك موضع صحراء لا أنيس به إلا الغزلان والنعام ولا تنبت إلا السدر والحنظل». ثم كان أراد بعضهم أن تكون المدينة على وادي تانسيفت فامتنع لهم من ذلك وقال : «نحن من أهل الصحراء ومواشينا معنا لايصلح لنا السكن على الوادي» فنظروا له ذلك الموضع لكي يكون وادي نفيس جنانها، ودكالة فدانها، وزمام جبل درن بيد أميرها طول زمانها، فركب الأمير أبو بكر في عسكره مع أشياخ القبائل، فمشوا معه إلى فحص مراكش وهو خلاء لا أنيس به».

وقد تابع ابن عذاري كلامه بقوله : «وفي سنة اثنتين وستين وأربعمائة في الثالث والعشرين لرجب ابتدئ بأساس مراكش وذلك قصر الحجر وشرع الناس في بناء الدور دون السور»(2) فقام سور قصر الحجر في نحو ثلاثة أشهر واشتغل الناس ببناء الديار، وأول دار بنيت من ديار لمتونة دار تورزجين بن الحسن» الكائنة بموضع أسدال بناها بالطوب وجددها وهي الآن ظاهرة على المقر بالموضع المذكور إلى وقتنا هذا سنة ست وسبعمائة (07 — 1306)».

كان العمل متواصلًا في بناء مراكش في العام الموالي وهو عام 463 (71 — 1070)، وكان الأمير أبو بكر بن عمر قاعدا على السور والفَعَلة أمامه يعملون إلى أن وقف عليه رجل أخبره بأن

(2) أثبتنا هنا هذا النص كما ورد في الجزء الرابع من **البيان المغرب** وهو من تحقيق إحسان عباس، أما الترجمة التي قام بها ليفي بروفنصال لهذه الفقرة على أساس المخطوط فتعتمد قراءة مخالفة وهي : «وشرع الناس في بناء السور دون دُوْر».

القبيلة الصحراوية الكبرى كَدالة قد أغارت على لمتونة الصحراء وهزمتهم. فقرر أن يسافر بنفسه لقتال المتمردين، وكان قد وصل لتوه يوسف بن تاشفين، فعهد إليه بخلافته، وطلق زينب بطلب منها، فتزوجها يوسف بعد اكتمال العدة وذلك في شعبان عام 463 (مايو 1071). فهل استقر الأمير المرابطي الجديد في مراكش، قبل استئناف الغزو أو اختار سكنى أغمات لكونها ألطف جواً ؟ لا يدقق صاحب البيان في هذه النقطة. والذي صح، أنه أمر عام 464 ببناء دار لسك النقود في المدينة الجديدة، وقد كانت مقرا لولده علي بن يوسف عندما خلفه عام 500 (1106) وصارت تشتمل في عهده على مرافق حضرية متكاملة، بينما كانت قبل ذلك مقرا عسكريا قبل كل شيء ليس فيه سوى بناء أوسط مشيد بالحجارة الصغيرة، وليس كباقي البناء من الآجر المطبوخ، وثكنات للحرس من فرسان النصارى وللجنود السود الذين انتظموا مؤخرا في الخدمة وعهد إليهم بحراسة الأمير وحاشيته.

ثم إن مما تجدر ملاحظته كون الأميرين لأندلسيين الذين نفاهما يوسف بن تاشفين من إسبانيا إلى المغرب وهما عبد الله الزيري صاحب غرناطة والمعتمد بن عباد صاحب إشبيلية، لم ينقلا إلى مراكش، بل نقلا إلى أغمات حيث كان العيش في ذلك العهد ألين والمقام أقل شظفاً، إذ أن ما ينسب للسلطان المرابطي من قسوة في حقهما وما ذُكر من قضاء المعتمد خاصة بقية أيامه في الفاقة والحرمان التام، ضرب من ضروب الخرافة.

وكلمة الختام، أننا نعرف أن مراكش في الاصل لم تكن تسمى مراكش كما رسمت فيما بعد وشكلت، بل كانت تسمى مروكش (بواو في مكان الألف) هكذا نجدها مرتين في مبيضة مذكرات(3) عبد الله بن بلكّين، ولعلها بخط مؤلفها. ولا شك أن التسمية على ذلك النطق قد استمرت عدة قرون. وهكذا، وكما سبق لي التنبيه على ذلك، فإن هذه الصورة الأصلية هي التي اقتبسها الرسم الاسباني Marruecos، ومنه اشتقت أنواع رسم الاسم في اللغات الأوروبية الأخرى. فهل هو إسم مكان بربري يدل على موقع المدينة قبل تأسيسها ؟ لا علم لنا بذلك، فهذا على أي حال التفسير المرجح الوحيد لهذا اللفظ الذي وقع تبنيه فيما بعد في الاستعمال الحديث لنعت مجموع البلاد.

ليفي ــ بروفنصال

(باريـــس)

---

(3) عنوانها : التبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بني زيري في غرناطة وصاحبها هو آخر ملوك الطوائف بغرناطة المعزول عام 483 هـ، وقد نشر كتابه بعناية ليفي بروفنصال، عام 1955 بالقاهرة.

بعض المظاهر الطبيعية للحوز

ذ. محمد الاكلع
كلية الآداب ـــ مراكش.

مقدمة :

يتمحور موضوع هذه المداخلة السريعة حول دراسة نظرية لبعض المظاهر الطبيعية التي يمتاز بها سهل الحوز، وذلك باعتباره المجال الطبيعي الذي يحتضن مدينة مراكش والتي ارتكز حولها البحث خلال أعمال هذه الندوة.

ولقد اعترضتنا مشكلتان لدراسة جوانب هذا الموضوع :

أولهما : تعدد المظاهر الطبيعية للمنطقة

ثانيهما : مفهوم الحوز الذي سنتعرض لدراسته، هذا المفهوم نميز فيه بين مفهوم واسع ومفهوم ضيق، خاصة وأن مصطلح الحوز قد تغير مع التاريخ، حيث كان يعني المجال السهلي الذي ينحصر بين جبال الأطلس والجبيلات والذي عاصمته مراكش.

كذلك حدد حسن الوزان المعروف بليون الافريقي الحوز، وهكذا نجد في الغرب واد المال بالقرب من شيشاوة شرقاً واد غدات، شمالًا تانسيفت، جنوباً خط أعراف الأطلس الكبير.

MARMOL أضاف إلى تحديد ليون الإفريقي، أن الحوز تحيط به 6 عمالات، هي حاحا، سوس، كَزولة، سكورة، تادلة، دكالة، في القرن 16 أصبح الحوز يعني ضاحية مراكش دون اجتياز واد ايسيلفي الشرق وتانسيفت في الشمال، والضفة اليمنى لنفيس في الغرب.

كذلك بول باسكون قام بدراسة الحوز الذي تخترقه الأودية التابعة لتانسيفت بينما حالياً نجد على أن هذا المفهوم اتسع شرقاً وأصبح يضم كذلك الأودية المنتمية لحوض أم الربيع خاصة تساوت والخضر.

أما القطاع الفلاحي التابع للمكتب الجهوي للإستثمار الفلاحي بالحوز فهو يضم كذلك بعض الأجزاء من سهل البحيرة...

1 ــ الوضعية الطبغرافية للحوز : (الخريطة 1).

يقع سهل الحوز بين خطي عرض 3231 شمال خط الإستواء، وهو عبارة عن سهل بنيوي يمتد على مسافة تقترب من 180 كلم من الشرق نحو الغرب، ويتسع بحوالي 30 كلم، ينحصر بين وحدات تضاريسية مرتفعة.

ــ ففي الجنوب والشرق تشرف عليه الهوامش الشمالية للأطلس الكبير الغربي (أطلس مراكش) والأطلس الكبير الأوسط وهي عبارة عن جبال متواضعة (1000 م).

ــ في الشمال : كتلة الجبيلات التلية المتوسطة الارتفاع (800 م) والتي لها اتجاه شمالي شرقي جنوبي غربي.

ــ في الغرب تحده تضاريس هضاب الشماعية التي تمتد حتى المحيط الأطلنتي والتي تصل ارتفاعاتها إلى حدود 700 م.

ويعتبر سهل الحوز من سهول أقدام الجبال حيث يمتاز سطحه عامة بالإنبساط والرتابة والإنحناء التدريجي نحو السافلة.

ــ تتراوح الإرتفاعات داخل السهل بين 550 م في الغرب و 700 م في الشرق (الحوز الشرقي.. الحوز الأعلى).

ينحدر السهل من السلسلة الأطلسية في اتجاه الشمال بانحدار يضعف تدريجياً كلما توجهنا نحو المحاور الهيدروغرافية الرئيسية لهذا نجد اتجاهين للإنحدار، فهناك انحدار أول في اتجاه تانسيفت غرباً وهو انحدار خفيف لا يتعدى 2%، ثم انحدار ثان في اتجاه أم الربيع وسهل البحيرة شرقاً.

ويتشكل سهل الحوز في غالبيته من مجموعة مخارط انصباب مختلفة الأهمية والإمتداد وهذا راجع إلى كونه يقع عند قدم سلسلة جبلية تخرج منها مجموعة هامة من المحاور الهيدروغفرافية.

فهناك من الشرق إلى الغرب مخروط الخضر، تساوت، نفيس

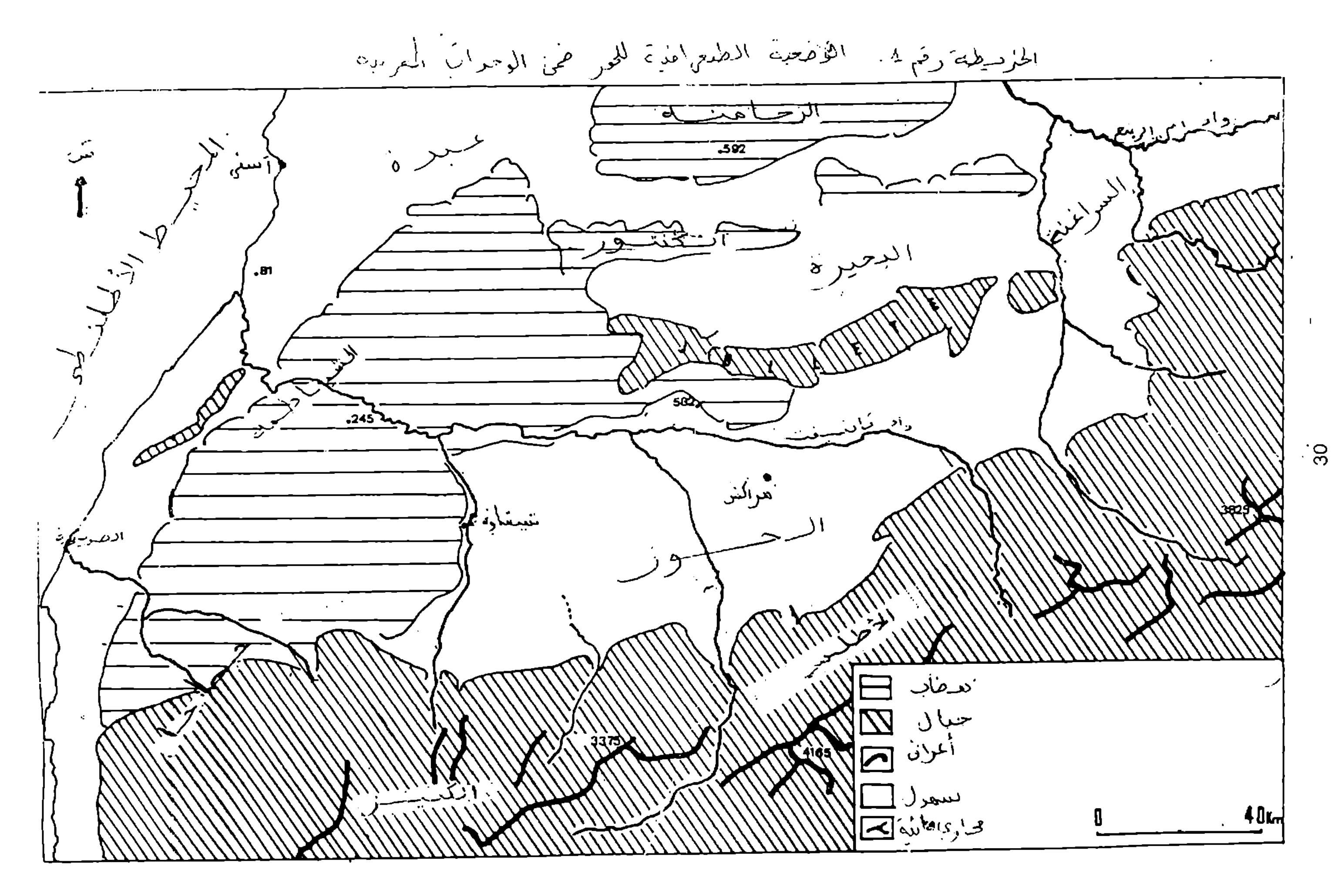
2 ــ البنية : (خريطة 2).

عبارة عن منخفض بنيوي تراكمت فيه توضعات قارية نيوجينية ورباعية من أصل أطلسي.

وتم تشكيل الحوز تدريجياً وذلك بموازاة مع الحركات التكتونية التي أبرزت السلسلة الأطلسية ابتداءاً من الايوجين إلى الزمن الرابع.

هذا المنخفض عرف حركات تهدلية أي نزولية، هذا التهدل لم يتم على كافة جهات الحوز خاصة وأن قعره قبل النيوجين لم يتعرض برمته للتغطية برواسب لاحقة ويبرز إلى السطح على شكل تلال صغيرة، كجبل تزكورت. كودية العبيد... والتي تتشكل من طبقات جيولوجية تنتمي للزمن الأول تسود فيها صخور الشست الغير المنفذ.

الخريطة رقم 4. الوضعية الطبوغرافية للحوز ضمن الوحدات المغربية



ـــ فوق مواد الزمن 1، في هوامش السلسلة الأطلسية تتوضع بتنافر سطوح الزمن 2 حيث الطبقات العليا صلصالية وطينية وينتميان إلى الترياس تتوضع فوقه مواد كاربوناتية دولوميتية تنتمي إلى الجوراسي الأسفل خاصة اللياس.

ـــ الزمن 3 تظهر مواده النيوجينية (الميوسين ـــ البليوسين) على شكل توضعات قارية فتاتية تغطي تضاريس متنوعة وتكون رصيصية في قدم السلسلة تدريجياً تتغير سحنتها لتصبح مادة دقيقة في اتجاه السهل، ولقد اختلف الباحثون حول هذه التوضعات خاصة في إعطاء اسم واضح (ليكوميوسين، ميوسين، ميوبليوسين...).

فوق هذه التراكمات التي تشكل القاعدة توضعت الرواسب الرباعية التي ارتبطت بالحركات التكتونية الحديثة، التي أصابت السلسلة الأطلسية وكذلك بالتناوبات المناخية (الزمن IV.

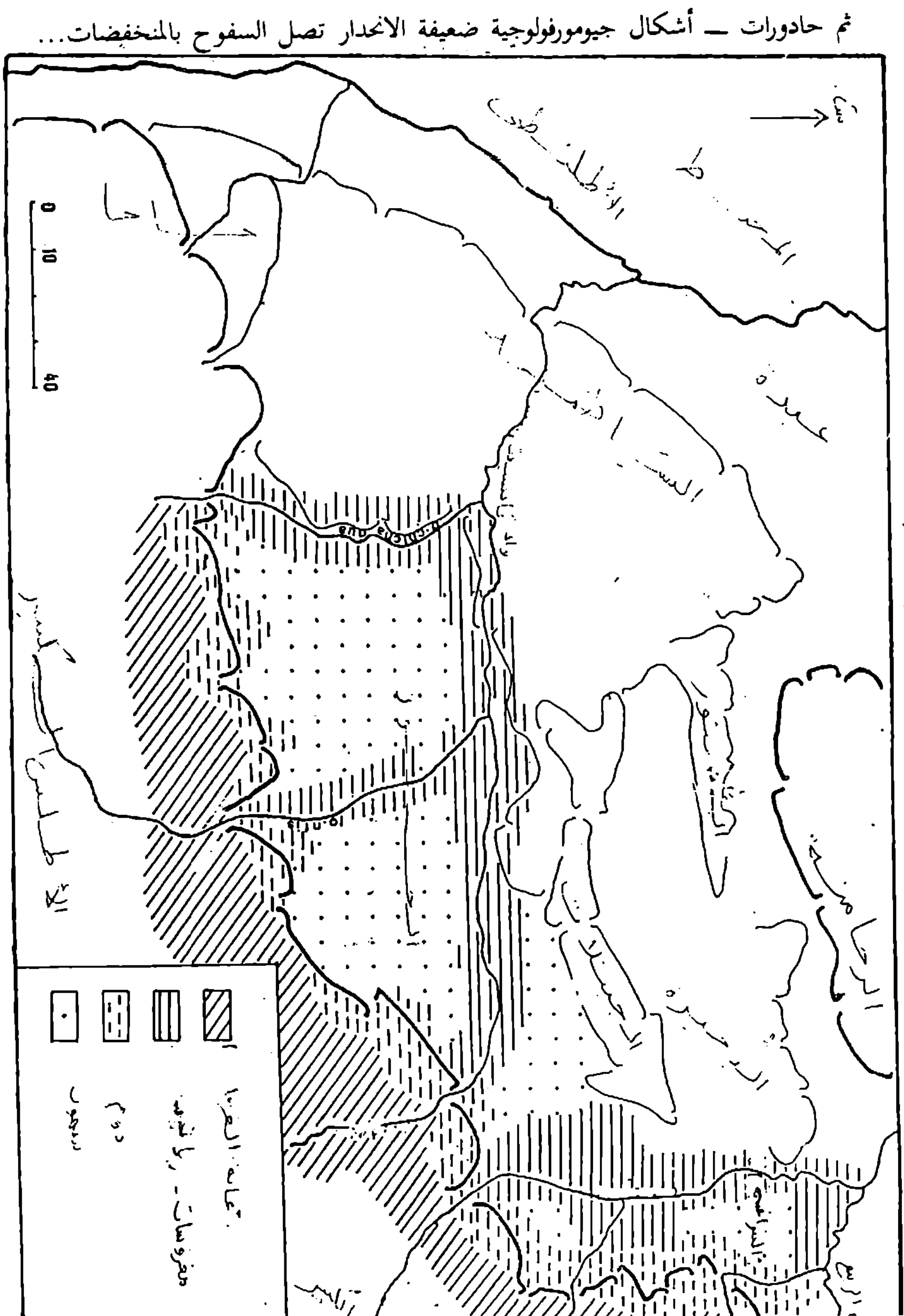


خريطة رقم 4: المناظر الجيومرفلوجية بالحوز

3 ــ المظاهر الجيومورفولوجية : (أنظر الخريطة 3)

ابتداء من الحاشية الشمالية للأطلس الكبير نصادف مجموعة مخارط انصباب تشكلت في مختلف الفترات الرباعية، فهناك مخاريط تنتمي للرباعي القديم.. الأوسط ــ الحديث...

ثم حادورات ــ أشكال جيومورفولوجية ضعيفة الانحدار تصل السفوح بالمنخفضات...



درجات نهرية تتمركز على الخصوص بالقرب من المجاري المائية... تتكون من مواد رصيصية حصوية ودقيقة ورمال غرينية تساهم في تكوين أتربة الحوز. كما أنها تحتوي على فرشة باطنية.

4 ــ المظاهر الهيدرولوجية. (الجدول رقم 1)

الأودية كلم	الطول كلم²	المساحة معدل م	الارتفاع م	ارتفاع %	انحدار التساقطات	معدل ملم	الصبيب	
نفيس	150	1703	1600	4089	17	580	188	5،40
غيغاية	36	225	1680	4167	21	609	56	0،90
إيسيل	20	94	1000	1666	–	534	9	–	–
أوريكة	46	503	2100	21	673	12	5،12		
الملاح	13	116	850	1426	–	696	10	–	–
الزات	50	525	2000	3300	18	541	13	4،37	تفريات
الخضر	117	2945	1670	3825	16	620	520	16،1	سيدي إدريس
تساوت	122	1465	1540	4071	21	650	370	11،7	أيت عادل

تقطع سهل الحوز شبكة مائية جد هامة تنتمي إلى حوضين هيدروغرافيين كبيرين في المغرب :

في الشرق الحوض الهيدروغرافي لأم الربيع :
يمثله في المنطقة كل من واد تساوت وروافده الخضر.

تساوت ينبع من الأطلس الكبير الكلسي وبالضبط من جبل مكون (4071م) يتخذ اتجاها متعامداً مع التضاريس «اتجاه جنوبي شرقي ــ شمالي غربي ــ عند خروجه إلى السهل عن أكادير بوعشيبة يغير الواد اتجاهه بكيفية مفاجئة نحو الشمال الشرقي راسماً زاوية واضحة جداً. التعمق 30 م يختفي هذا التعمق نهائياً عند وسط السهل.

واد الخضر، له اتجاه جنوبي شرقي شمالي غربي انحداره ضعيف مجراه أكثر تعمقاً 80 م وذلك بسبب التموج الذي نجده في المنطقة التي يخترقها (الحوز الأعلى) يلتقي بواد تساوت عند منطقة الفرايطة.

ـــ الحوض الهيدروغرافي لتانسيفت :

يخترق سهل الحوز من الشرق إلى الغرب مجرى تانسيفت على حاشيته الشمالية ليصب في المحيط الأطلتني بين آسفي، الصويرة هذا المجرى يشكل حوضاً هيدروغرافياً متكاملًا يرتبط بعدة روافد تلتقي به في السهل ويتعلق الأمر بأودية شيشاوة، سكساوة، نفيس، فيغاية، إيسيل، أوريكة، ملاح، زات، غدات، لاغ. (انظر الجدول).

الفرشة الباطنية :

إلى جانب المياه السطحية التي يتوفر عليها الحوز من خلال أوديته المتعددة نجد كذلك الفرشة الباطينة التي لعبت وتلعب دوراً مهماً في الحياة في المنطقة.

مصادر تغذيتها هي :

ـــ مياه الأطلس(220 م م³ / س

ـــ التساقطات المباشرة على السهل 13 م م³ / س

ـــ المياه المترسبة بعد السقي. 5 م م³ / س

وحسب التقديرات التي قام بها المكتب الجهوي للإستثمار الفلاحي فتمثل مياه الفرشة الأرقام التالية :

في الحوز الغربي والأوسط : (حوض تانسيفت)

ـــ يتسرب من الأودية والسواقي 160 مليون م³ / السنة

ـــ من التساقطات المباشرة 10 مليون م³ /

ـــ المياه المتسربة والمستخرجة من الفرشة 3 مليون م³ / س

5 ـــ المعطيات البيومناخية : (الجدول 4).

يندرج سهل الحوز حسب التصانيف المناخية التي أعطيت في إطار مناخ متوسطي جاف حار يتميز بضعف التساقطات ومتوسط حراري مرتفع، مع فوارق شهرية ويومية قوية التبخر قوي جدا، الرطوبة ضعيفة، كل هذه الخصائص تجعل مناخ المنطقة من النوع القاري.

1 ـــ التساقطات ضعيفة على العموم وغير منتظمة : ويتميز توزيعها السنوى بما يلي :

ـــ فصل مطير من أكتوبر إلى أبريل مع تركز مهم خلال نونبر ـــ دجنبر.
ـــ جفاف شبه مطلق خلال الصيف مع حرارات قوية ورياح مجففة (الشركي، القبلي) ـــ 5% من التساقطات السنوية.

وتتناقص التساقطات في السهل من الشرق نحو الغرب (انظر الجدول) وتزداد كذلك مع الإرتفاع (انظر الجدول).

المحطات	قلعة السراغنة	مراكش	شيشاوة	أيت أورير	تحناوت
معدل التساقطات السنوية ملم	260	255	179	352	437
معدل الحرارة	19°.2	19°.5	18°.6	20°	19°.4
معدل الحرارة العليا	29°.2	27° .2	27°	26°.6	28°5

أما عدد الأيام المطيرة فيتراوح بين 30 ـــ 40 يوماً خلال السنة، 38 يوم بمراكش.

2 ـــ الحرارة : معدلات حرارية مرتفعة مع فوارق يومية وشهرية كثيرة ـــ (أنظر الجدول).
معدل الحرارة العليا قوي فيكل مكان حيث يصل إلى 27،4 في مراكش و 26،6 أيت أورير.
ـــ الحرارات العليا القصوى تتعدى تقريباً كل السنوات 45 وهكذا سجلت 50،5 بقلعة السراغنة (يوليوز) 1924 49° بنفس الشهر 1929 بمراكش.
ـــ المدى الحراري السنوي فهو كبير جداً حيث يصل إلى 15،5 بمراكش و 14،3 بأيت أورير.
ـــ المدى اليومي كذلك كبير 17 خلال الصيف و 13 خلال الشتاء بمحطة مراكش.

الرطوبة والتبخر :

الرطوبة جد ضعيفة بالمنطقة حيث يزداد المتوسط الشهري من شتنبر 51،2% إلى يناير 70،2% بمحطة مراكش ثم ينقص حتى غشت 43،5% وتنعدم الرطوبة خلال فترة هبوب رياك الشركي والقبلي.

ـــ أما التبخر فهو قوي فعدد أيام الإشماس بمحطة مراكش 240 يوماً في السنة مع ارتفاع في الصيف وانخفاض في فصل الشتاء، الشيء الذي يساعد على التبخر حيث يصل معدل التبخر السنوي إلى 2300 ملم بمراكش.

الرياح : نظراً لموقع المنطقة فهي تتعرض لكتل شمالية خلال الفصل البارد المطير وكتل ساخنة جافة حرارية خلال الفصل الساخن الجاف.

ـــ رياح غربية وشمالية غربية.

ـــ رياح ساخنة الشركي من الشرق ثم القبلي من الجنوب الصحراء (الصابيات).

الغطاء النباتي والأتربة :

تنعكس آثار الحصيلة المناخية في الحوز على الغطاء النباتي والأتربة.

فأغلب الدارسين يصنفون سهل الحوز ضمن الطابق النباتي المتوسطي الجاف، الذي من أصنافه النباتية السدرة (شجرة الفستق الأطلسي «البطم») و «الطلح».

ومن جهة أخرى نظر المؤرخون والجغرافيين العرب الذين اتفقوا على أنه خلال بداية القرن الحادي عشر، وهي الفترة التي تأسست فيها مدينة مراكش، كان السهل مغطى بأحراش فكانت القعور المنخفضة مملوءة مستنقعات.

وفي تاريخ الجناتي المعروف بمصطفى بن الحسن الحسيني الجنابي السعدي المتوفى في أكتوبر 1590 ذكر (له كتاب العلم الزخير في أخبار الأول والأخير على أنه كان ينمو بجوانب مراكش شجر «الجوز» الصفصاف حيث يقول كذلك على أن يوسف بن تاشفين وضع المدينة وسط مستنقع مملوء بشجر الصفصاف.

التربة : (الخريطة 5)

تشكلت أتربة الحوز على التوضعات الرباعية التي رسبت في مختلف فترات الزمن الرابع، ونتجت بفعل تطورات مناخية ومتوالية ومتعددة إضافة إلى التطورات المرتبطة بالتدخل البشري.

انظر : خريطة الأتربة على سهل الحوز :

الصنف الأول : أتربة جيدة تسمح بقيام مختلف المزروعات بما فيها الحوامض.

الصنف الثاني : أتربة ذات قيمة متوسطة لا توافقث إلا بعض الزراعات.

الأتربة الضعيفة التي لا تتوافق إلا بعض الزراعات.

ـــ أتربة غير نافدة وغير قابلة للسقي.

خاتمة :

في الختام يمكن القول على أن منطقة الحوز منطقة غنية بالمعطيات الطبيعية التي تساهم في إعطاء المنطقة صورتها الواقعية.

الإطار البشري والحياة الحضرية
بناحية مراكش قبيل التأسيس

الأستاذ أحمد بلاوي
كلية الآداب ــ مراكش

يكاد لا يجادل أحد في أن المجال الطبيعي والبشري المحيط بالمدن يكتسي بالنسبة لها أهمية قصوى سواء من حيث الموارد الطبيعية من أراضي خصبة ومياه وافرة التي يوفرها أو من حيث الإمكانات البشرية التي يوفرها سكان هذا المجال... أو من حيث الدور الذي يلعبه هذا المجال في تشكيل أساس ساكنة هذه المدن.

وتتجلى هذه الأهمية كما هو معلوم، في العلاقات المختلفة والمتنوعة التي تنسج بين المدن والمجالات المحيطة بها والتي يصطلح عليها بالعلاقات «الحضر الريفية» وهي علاقات تجسد الى حد بعيد، مدى الترابط القائم بين هذه الأطراف من جهة ومدى استفادة بعضها من بعض من جهة أخرى.

ولعل خير شاهد على الترابط القائم بين مراكش وأحوازها ما جاء عند R. Escallier[1] في موضوع المجال الهجري لهذه المدينة حيث اعتبر أن الوافدين عليها ينحدرون :

— من سهل الحوز بنسبة 46%.
— من الأطلس الكبير الغربي بنسبة 18،5%.
— من هضاب احمر والرحامنة بنسبة 11،7%.
— من سهل السراغنة بنسبة 6%.
— ومن باقي المناطق المغربية بنسبة 17،8%.

ومما لا شك فيه أن ما يسترعي الانتباه هنا هو الدور الذي يلعبه سهل الحوز حاليا في تعمير مدينة مراكش. وهذا الدور بالذات هو الذي يبرز في نظرنا موضوع هذه المداخلة.

غير أنه إذا كان سكان الحوز حاليا ينتمون الى قبائل متعددة الأصول، أغلبها قبائل الكَيش التي لم تستقر بالمنطقة إلا خلال القرن 16 الميلادي، فإن مشكل معرفة هوية القبائل التي سكنت الناحية قبل تأسيس مدينة مراكش، يبقى مطروحا، ذلك لأن وجود الإنسان بهذه الناحية — بمفهومها الواسع — يعود الى ما قبل التاريخ كما تشهد بذلك الرسوم المنقوشة على صفائح حجر الكَري التي تم الكشف عنها بمنطقتي أوكايمدن وباكور[2] في حين لم يتم تأسيس مراكش كما لا يخفى على أحد إلا خلال القرن 11 الميلادي.

---

(1) R. Escallier. Citadins et espace urbain au Maroc, Fasc, de recherches N 8 et 9, T.I et II, Tours et Poitiers, 1981

(2) Simoneau. Les gravures rupestres du Haut Atlas de Marrakech, RGM N 11, pp. 67-75, Rabat, 1967

بل يمكن الذهاب الى القول بأن قدم عهد الإنسان بهذه الناحية يسمح ولا شك، بالقول بقدم الحياة الحضرية بها أي بعبارة أخرى بوجود مدن سابقة لمدينة مراكش بالمنطقة مما يدفعنا الى طرح التساؤلين التاليين :

1 ــ من هم سكان هذه الناحية مباشرة قبيل تأسيس مدينة مراكش ؟

2 ــ فيم تتجلى الحياة الحضرية يالناحية قبل تأسيس المدينة الحمراء ؟

يقتضي الجواب على هذين التساؤلين إمكانية وضع خريطتين : الأولى عن القبائل التي كانت تشغل الناحية على الأقل الى حدود تاريخ التأسيس، والثانية عن المدن التي ظهرت بالناحية قبل نفس الفترة.

وليس هذا بالأمر الهين، وذلك لأسباب عدة منها على سبيل المثال لا الحصر :

1) ندرة المعطيات الدقيقة في هذا المجال إن لم يكن غيابها تماما.

2) كون الكتابات التاريخية والجغرافية التي اشتغلت بهذا الجانب لم تكن تهتم لا بمسألة التوطين ولا بمسألة التمثيل الكارطوغرافي إلا في حالات نادرة.

3) اختفاء عدد كبير من أسماء المواقع الجغرافية ومن أسماء المجموعات البشرية واستبدالها بأسماء قد تكون في بعض الأحيان جديدة كل الجدة.

4) كون هذه الأسماء تعرضت في غالب الأحيان للتحريف عند تعريبها أولا وعند استنساخها ثانيا مما يجعل الكشف عن أصلها البربري من الأمور الصعبة إن لم يكن مستحيلاً... مما يستلزم الاهتمام بعلم المواقعية لما فيه من نفع بالنسبة للتاريخ والجغرافيا معا.

5) عدم تحري الدقة في تسمية المجموعات البشرية من لدن الكتاب الأقدمين.

6) كون الكتابات التي تغطي هذه الفترة أغلبها من صنع مثقفين حضريين أغلبهم أجانب عن المنطقة.. ذلك لأن المجتمعات القبلية لم تكن تعرف الكتابة إلا نادرا.

وهذه الأسباب تجعل المهتم بمسألة التعمير مرغما على تصيد المعلومات والتنقيب عنها بشتى الوسائل : كإعادة قراءة الكتابات التاريخية والجغرافية القديمة وتأويلها كما فعل المؤرخ الفرنسي لفي بروفنصال عندما حاول وضع خريطة القبائل جنوب مراكش خلال القرن 12 تحت عنوان (التوزيع المحتمل لقبائل جنوب مراكش خلال القرن 12 الميلادي)[3] والأستاذ أحمد التوفيق عندما حاول هو الآخر وضع خريطة لأماكن دفن المترجمين في كتاب التشوف ولمواقع البلدان ومواطن القبائل

(3) E. Lévi - Provençal. Documents inédits d'Histoire Almohade, Paul Geuthner, Paris, 1928.

المذكورة فيه(4). أو كالعمل على استعادة الوضع الماضي واستدراكه انطلاقا من الوضع الحالي كما فعل بول باسكون عندما حاول التأريخ لتعمير منطقة الحوز انطلاقا من التوزيع الحالي لقبائل المنطقة(5).

ومما تجدر الإشارة اليه هو أن مقارنة الخرائط التي انتهى اليها هؤلاء الباحثون تمكننا من التوصل الى الاستنتاجات الآتية :

1 ــ استمرار أسماء بعض المجموعات على الأقل منذ القرن الحادي عشر وعلى الخصوص المجموعات التي يمتد مجالها جنوب مراكش في اتجاه سلسلة جبال درن، كافروكة، ووريكة وكدميوة وصاودة أومزوضة.

2 ــ اختفاء أسماء بعض المجموعات كمسكالة التي ورد اسمها عند ليفي بروفنصال والتي كانت تسكن شرق أغمات.

3 ــ ظهور أسماء جديدة كمسفيوة وغيغاية من جهة وجميع القبائل التي تدخل تحت اسم الكيش كالوداية، وايت ايمور وأغواطيم الخ... والتي يكون مجالها حزاما حول مدينة مراكش من جهة ثانية وقبائل العرب وأولاد امطاع ومجاط وأولاد أبي السباع التي يفصل مجالها بين مجال قبائل جبل درن ومجال قبائل الكَيش السابقة الذكرة من جهة ثالثة.

وهي استنتاجات تسمح بالتأكيد على أن جل القبائل التي تمتد مواطنها غرب مراكش والتي يرجع تاريخ استقرارها بالناحية الى القرن 16 الميلادي حديثة العهد بالوجود بهذه الناحية وأن مجالات قبائل جبل درن بقيت على ما هي عليه على الأقل منذ القرن 12 الميلادي.

ولما كانت مجالات قبائل درن لا تمتد، كما يبدو إلا على الدير والجبل فإن مشكل معرفة القبائل التي كانت تشغل المجال الفاصل بين قدم جبال درن ووادي تانسيفت يبقى مطروحاً.

ذكر Jean le Coz في موضوع «قبائل الكيش في المغرب»(6) بأن القبائل التي تسكن غرب مدينة مراكش والتي تتكون أساسا من عرب بني معقل «استطاعت إبعاد احمر نحو الغرب، الرحامنة نحو الشمال والشرق وايقاف الشلوح عند قدم الجبل جهة الجنوب».

فهل هذا يعني أن المجال الممتد بين وادي تانسيفت وقدم جبال درن كانت تسكنه قبائل احمر والرحامنة قبل مجيي ء قبائل الكيش ؟

---

(4) التشوف إلى رجال التصوف للتادلي، تحقيق أحمد التوفيق، منشورات كلية الآداب، نصوص ووثائق، الرباط 1984.

(5) P. Pascon. Le Haouz de Marrakech, T. I et II, Rabat, 1977.

(6) J. Le Coz. Les tribus guich au Maroc. RGM, N 7, Rabet, 1965. pp. 1 - 52.

التسليم بهذه الفرضية لا يفك المشكل في شيء، ذلك لأن قبائل احمر والرحامنة نفسها لم تصل الى الحوز إلا مع بداية القرن السادس عشر الميلادي على أعقاب السعديين من جهة وبعد وصول قبائل أولاد مطاع والشبانات التي كانت تؤلف الجيش السعدي من جهة أخرى.

فما هي إذن القبائل التي سكنت هذا المجال قبل مجيء الكيش السعدي عند بداية القرن 16 الميلادي ؟

تدل خريطة ليفي بروفنصال السالفة الذكر على أن المجال الممتد بين وادي تانسيفت وقدم جبل درن كانت تسكنه خلال القرن 12 الميلادي القبائل الآتية :

ـــ قبائل ركراكة، مسكالة، متوكة ودمسيرة فيما بين وادي شيشاوة والساحل الأطلسي.

ـــ بطون فروكة وصودة ولصيفة فيما بين وادي نفيس ووادي شيشاوة.

ـــ بطون سكتانة ووريكة فيما بين وادي نفيس ووادي غدات.

ـــ قبيلة مسكالة شرق هذا الواد.

وهو توزيع يكاد يشبه التوزيع الذي وضعه الأستاذ أحمد التوفيق لقبائل ناحية مراكش خلال القرن 13 الميلادي، عند تحقيقة لكتاب التشوف حيث أورد هو الآخر القبائل الآتية :

* ركراكة غرب وادي أسيف المال (الذي يتوسط بين وادي نفيس شرقا ووادي شيشاوة غرباً).

* ركونة وصودة ما بين وادي أسيف المال ووادي غيغاية.

* أيلان أو هيلانة ما بين وادي نفيس ووادي الزات، التشابه الكبير بين هذين التوزيعين يجرنا الى القول بأن هذه الناحية كانت مجالا لنفس القبائل على الأقل منذ القرن 12 الميلادي، علما بأن ركونة وفروكة من فرق صودة.

فهل هذا يعني أن هذه القبائل كانت تستوطن هذه الناحية حتى خلال القرن الحادي عشر الميلادي ؟

جاء في حديث ابن حوقل(7) (القرن العاشر الميلادي) عن العلاقات التجارية لقبائل برغواطة ما يلي : «وقد يصل اليهم (أي البرغواطيين) أهل أغمات والسوس أيضا بالتجارة..» وفي مكان آخر جاء على لسان نفس المؤلف أن أهل أغمات من «أصحاب البرانس» دون أي تفصيل.

وهي معلومات غير كافية لوضع خريطة مفصلة لسكان المنطقة.

(7) ابن حوقل : صورة الأرض، ليدن، 1967.

إلا أن المعلومات التي وردت على لسان أبي عبيد الله البكري (القرن الحادي عشر الميلادي) لا تزيد عنها إلا بقليل.

ففي كلامه عن أغمات، كتب البكري[8] :

«وهي مدينتان سهليتان أحدهما تسمى أغمات أيلان والأخرى أغمات وريكة» ثم يضيف واصفاً مجال أغمات وريكة «وهوبلد واسع يسكنه قبائل مصمودة».

وذكر من جهة أخرى في شأن نفيس بأنها «قديمة أولية... يسكنها قبائل من البربر أكثرهم مصمودة».

باستثناء قبيلتي وريكة وأيلان اللتين ارتبط ذكرهما بذكر مدينتي أغمات، لم يأت البكري بجديد إذ اكتفى هو الآخر بإشارة عامة تذكر بإشارة ابن حوقل.

غير أنه يمكن استغلال هاتين الاشارتين (الاشارة إلى أصحاب البرانس والاشارة الى المصامدة) للتأكيد على الأقل بأن سكان هذه الناحية ينتمون الى قبائل مصمودية.

وليس هذا بغريب إذا سلمنا مع البكري نفسه، بأن المصامدة (امصمودن باللغة البربرية)، يشكلون أساس تعمير المغرب في واجهته الاطلنتيكية على الخصوص. إذ يكاد يتفق الجميع على أن المصامدة وهم «أكثر قبائل البربر وأوفرهم» على حد تعبير ابن خلدون ينقسمون إلى :

— غمارة الذين «يعتمرون رحاب الريف» في الشمال.

— برغواطة «في بسائط تمسنا وريف البحر المحيط من سلا وأزمور وأنفى وآسفي» في الوسط :

— أهل جبال درن... في الجنوب.

ويتضح على أساس هذا التقسيم أن سكان ناحية مراكش ينتمون الى المصامدة من أهل جبال درن.

ويزداد هذا تأكيدا عندما نقرأ على لسان علي بن أبي زرع الفاسي مثلا، بأن أبا بكر بن عمر اللمتوني بعد غزوه جميع بلاد السوس ارتحل الى بلاد المصامدة «ففتح جبل درن، وفتح أيضا بلادرودة، وفتح مدينة شيشاوة بالسيف ثم فتح بلاد نفيس وسائر بلاد كدميوة، وأتاه قبائل رجراجة وحاحة فبايعوه، وارتحل الى مدينة أغمات[9]».

---

(8) البكري : المسالك والممالك، ترجمة دوسلان، باريس 1965.

9) ابن أبي زرع الفاسي : الأنيس المطرب بروض القرطاس، الرباط، 1973.

وهواستشهاد، فضلاً عن كونه يزكي التقسيم السابق، يضيف أسماء قبائل جديدة الى اللائحة الهزيلة التي ورثناها عن البكري، منها رجراجة، كدميوة وحاحة.

وهي قبائل قديمة العهد بالاستقرار بحوز مراكش كما جاء في كتاب الأنساب.

ويبدو أن مواطنها الأصلية لم تعرف تغيرا كبيرا إلا بالنسبة لرجراجة التي كانت مساكنهم على عدوتي وادي تانسيفت عند مصبه في المحيط الأطلسي[10]، والتي كانت تمتد شرقا الى حدود وادي شيشاوة كما يتضح من كتاب الأنساب الذي يعتبر أن «مرامر وشفشاوة كانت تابعة لركراكة»[11].

أما كدميوة وحاحة فيبدو أنها احتفظت بمواطنها الأصلية أي جنوب موطن ركراكة بالنسبة لحاحة وجنوب موطن هزميرة بالنسبة لكدميوة.

غير أن هذا التوزيع يبين أن مواطن هذه القبائل الثلاثة تشغل مجالات تمتد أساسا على هوامش منطقة الحوز.

وهذا يعني أن القبائل التي كانت تسكن منطقة الحوز بمفهومها الضيق لا نعرف منها إلا قبيلة وريكة وأيلان اللتين ارتبط ذكرهما، كما سبقت الإشارة الى ذلك، بذكر مدينتي أغمات وريكة وأيلان.

غير أنه إذا كان الجميع يكاد يتفق على أن أغمات وريكة هي أغمات الحالية، فإن موقع مدينة أغمات أيلان لا يزال مجهولا الى حد الآن إذ لا نعرف عنه إلا أنه يبعد عن موقع أغمات وريكة بنحو 6 الى 8 أميال (أي ما بين 5، 8 الى 5،11 كيلومترات) في اتجاه الجبل[12].

ومن البديهي أن يشوب نفس الغموض مجال امتداد موطن قبيلة أيلان أو هيلانة. ولتحديد موطن هذه القبيلة ارتأينا الاستعانة :

— أولا : بالمعلومات التي أوردها الإدريسي في شأن موقع مدينة أغمات أيلان بالنسبة لمدينة

(10) كتاب الأنساب لمؤلف مجهول، مخطوط خ. ع. رقم ك 1275.

(11) عن ابن منصور في أخبار المهدي.

(12) كتب أحمد التوفيق في موضوع موقع أغمات أيلان «وأغمات أيلان كانت في شمالها الشرقي على بعد بضعة أميال ولم يبق من أغمات أيلان سوى أنقاض تعرف بأوخريبن نايت وأيلان أو أطلال أو أنقاض هيلانة بعد أن اضمحلت هذه القبيلة وحلت محلها قبيلة امسيوان (مسفيوة) التشوف ص 142... دون أن يذكر موقع هذه الأنقاض... في حين يرى بول باسكون أن أغمات ايلان تقع جنوب الخط الواصل بين جبل سال (1247 م) وتاسغيموت (1262 م) فوق ربوة يبلغ ارتفاعها 1101 م. بالقرب من زاوية للا تاشعوت الكائنة بمجال فرقة أيت ونكا الجبل إحدى فرق قبيلة مسفيوة. وهو موقع يتنافى في نظرنا بحكم توغله في الجبل مع وصف الادريسي الذي كتب عن أغمات أيلان بأنها «مدينة صغيرة في أسفل جبل درن». وعلى هذا الأساس فإننا نقترح أن يكون موقع أغمات .ايلان هو دوار إيكودار نايت أغمات الذي يبعد عن جمعة أغمات بحوالي 11 كلم جهة الشمال الشرقي على الطريق الرابطة بين اثنين وريكة وأيت أورير، والذي يقع هو الآخر ضمن مجال قبيلة مسفيوة.

أغمات وريكة، والتي يستنتج منها أن موطن هيلانة يمتد شرق مجال وريكة أي شرق وادي وريكة في اتجاه وادي الزات.

ــ ثانيا : بالاستشهاد الآتي المقتبس من البيذق والذي يتحدث عن اندحار الجيش الموحدي بعد وقعة البحيرة (1127 أو 1130) «وجاز الخليفة مع طلبة أغمات على هيلانة فأصبح لنا الصباح بموضوع يقال له إيمي ن الزات. فطلعنا مع ايمي ن الزات حتى وصلنا لدرن وهزرجة يسبوننا».

والبحيرة، كما هو معروف، هو اسم المكان الذي نزل به الموحدون عند حصارهم لمراكش ويوجد أمام باب أيلان وباب الدباغين، في حين أن ايمي ن الزات هو منطقة ايت اورير التي لا تزال تحمل هذا الإسم الى الآن.

ــ ثالثا : بما ورد من أخبار في ذكر اختطاط مدينة مراكش حيث نقرأ في كتاب الحلل الموشية أن السبب في ذلك هو أن اللمتونيين لما احتلوا أغمات وريكة «وكثر الخلق بها وضيقوا على أهلها... شكا أشياخ وريكة وهيلانة الى الأمير أبي بكر بن عمر ما يلحقهم في ذلك من العناء والمشقة.. وقال لهم الأمير «عينوا لنا موضعا نبني فيه مدينة ان شاء الله» اجتمعوا على أن يكون بناؤها بين بلاد هيلانة وبين بلاد هزميرة[13] وهي رواية وردت عند ابن عذاري المراكشي (القرن الرابع عشر الميلادي) بنفس الأسلوب.

ــ رابعا : بكون باب ايلان أحد أبواب مراكش يوجد هو الآخر شرق المدينة بالقرب من باب أغمات.

فيكون على هذا الأساس موطن هيلانة هو المجال الفاصل بين وادي إسيل ووادي الزات بالرغم من كون الأستاذ احمد التوفيق يرى أن قبيلة أيلان «كانت تستوطن ما يجاور أسوار مراكش في الجنوب والجنوب الشرقي بين وادي غدات ووادي نفيس»[14].

ولن يفوتنا هنا التساؤل حول صحة ما كتبه صاحب الأعلام في موضع موطن هذه القبيلة حيث قال «وبلد هيلانة المذكورة هو بلد كلاوة اليوم والوادي الذي منبعه من بلد هيلانة هو المعروف بوادي سيدي رحال المسمى واد غدات، وهو تصحيف عن وادي أغمات»[15].

---

(13) كتاب الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق د.سهيل زكار و د عبد القادر زمامة، الدار البيضاء 1979.
(14) أحمد التوفيق : التشوف، ص.252.
(15) الاعلام بمن حل مراكش وأغمات من الاعلام للعباس بن إبراهيم الجزء 1 الرباط 1974.

وحجتنا في ذلك كون وادي غدات يبعد عن منطقة وريكة بما يزيد عن 50 كيلومترا أولا وكون موطن كلاوة كان يمتد خلال هذه الفترة التاريخية جنوب الأطلس الكبير الغربي أي خلف موطن هزرجة ثانيا.

وبعد تحديد موطن هيلانة، يبقى السؤال المطروح هو : ما هي القبائل التي تمتد غرب مدينة مراكش ؟

جاء على لسان الإدريسي أن من بين القبائل التي تقطن جنوب مراكش قبيلتي نفيس وصادة، وجاء من جهة أخرى في كتاب الحلل الموشية أن مدينة مراكش كان بناؤها، كما شبقت الإشارة إلى ذلك، بين بلاد هيلانة وبلاد هزميرة.

فما هي مواطن قبائل نفيس، صادة وهزميرة ؟

يتضح من كلام الإدريسي عن نفيس أن اسم نفيس يشمل معا اسم المدينة واسم القبائل التي كانت تسكن بجوارها. ولكنه في نفس الوقت لم يربط تماما ما بين نفيس المدينة ونفيس الوادي. فهل هذا يعني أن مدينة نفيس لا تقع على وادي نفيس ؟ أم أن عدم ذكر الإدريسي للوادي ناتج عن قصور في الملاحظة فقط ؟

ولربما تساعد الإشارة الآتية الواردة عند ابن عذاري المراكشي حول الموضع الذي بنيت فيه مدينة مراكش ــ على تحديد موطن قبائل نفيس. يقول ابن عذاري : «وكانت مزرعة لأهل نفيس... ونفيس ــ بفتح النون وتشديد الفاء وسكون الياء المثناة من تحتها ــ جبل مطل على مراكش»(16).

ومعنى هذا أن مواطن قبائل نفيس كانت تمتد على طول وادي نفيس الى حدود موضع مراكش ولربما الى حدود وادي تانسيفت.

والتسليم بهذا الافتراض يجعل قبيلة هزميرة احدى قبائل نفيس.

ويؤيد هذا الافتراض كتاب الأنساب من جهة وقول الأستاذ احمد التوفيق في موضوع هزيمرة من جهة ثانية إذ يقول : «وأصلها إزامرن وهي الأكباش، وكانوا قبيلة من المصامدة استوطنوا بين أسوار مراكش ورجراجة»(17) وأخيرا ما جاء عند ابن القطان(18) عن استيطان المهدي لتينمل «أن أهلها بعثوا له بطاعة قبيلتهم هزميرة الجبل».

---

(16) ابن عذاري المراكشي : البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ج 4 بيروت ط 2 1980.
(17) التشوف، تحقيق أحمد التوفيق، ص 213.
(18) ابن االقطان، نظم الجمان عن عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس لمحمد عبد الله عنان، القاهرة 1964.

وفي موضوع قبيلة صادة، ذكر البيدق أن ابن تومرت، بعد خروجه من أغمات وريكة وهو في طريقه الى داره بإكلي ن هرغة، قام برحلة داخل جبال درن، زار خلالها معظم قبائلها ومنها قبيلة صودة التي قدم اليها المهدي بعد قبيلة اين ماغوس. وإذا علمنا أن قبيلة إين ماغوس أحد بطون كدميوة توجد مواطنها على وادي أسيف المال، فإن مواطن قبيلة صودة تقع ولا شك غرب هذا الوادي أي في المنطقة التي تسكنها حاليا قبيلة مزوضة والتي تعد فرقتا أيت أوكاس (كاسة) وإفروكن (فروكة) من بين فرقها.

يستنتج من خلال هذه الجولة عبر مختلف أجزاء الحوز أن القبائل التي كانت تسكن هذه الناحية قبل تأسيس مراكش هي[19].

- هيلانة أو أيلان ما بين وادي إسيل ووادي الزات ؛
- وريكة على طول وادي وريكة في اتجاه الجبل؛
- هزميرة على وادي نفيس وفيما بين هذا الوادي ووادي أسيف المال؛
- صودة ما بين وادي أسيف المال ووادي شيشاوة.

وهي قبائل تنتمي الى المصامدة من أهل الجبل مما يدل على أن منطقة الحوز كانت خلال هذه العصور جزءا لا يتجزأ من مجال أهل جبال درن وليس هذا بغريب إذا علمنا أن الاقتصاد الجبلي لا يمكنه الاستغناء عن السهل الذي يشكل بالنسبة لسكان الجبال خزانا للحبوب أولا ومرتعا شتويا ثانيا.

وهذا الاطار البشري لن يبلغ الغاية المتوخاة منه إلا إذا كان مرفوقا بدراسة ولو سريعة للحياة الحضرية التي كانت تعرفها الناحية قبل بناء مراكش.

والهدف من هذه المحاولة هو إبراز درجة التحضر التي بلغتها هذه الناحية من جهة والاقرار بأن التمدن ظاهرة قديمة بالمنطقة[20] من جهة أخرى.

ذكر الزياني[21] في الترجمانة الكبرى أن قبائل المصامدة بنوا مدينة شيشاوة وأغمات وريكة وأغمات أيلان... ولكنه لم يذكر مدينتي نفيس ومرامر... وهي مدن أقل ما يمكن قوله عنها أنها سابقة لمدينة مراكش.

وإذا كانت مدن أغمات وريكة وأغمات ايلان ونفيس قد استأثرت باهتمام المؤرخين والجغرافيين الأقدمين فإن مدينتي؛ شيشاوة ومرامر لم تردا إلا على لسان عدد قليل منهم... ويعتبر البكري أول من ذكرهما عند ذكر الطريق الرابطة بين أغمات ورباط قوز على الساحل الأطلسي.

(19) انظر الخريطة رقم 1
(20) تمد تكون هذه المحاولة أفيد لو رافقتها محاولة أخرى حول الحياة الحضرية ببلاد لمتونة في نفس الفترة.
(21) الترجمانة الكبرى للزياني تحقيق وتقديم الفيلالي وزارة الاعلام الرباط 1967

وإذا كانت شيشاوة ومرامر في عداد مراكز قبيلة رجراجة حسب كتاب الانساب، فإن Jacques Berque يستغل التشابه القائم بين كلمتي سكساوة وشيشاوة ليستدل على امتداد مجال سكساوة إلى حدود شيشاوة... ويخبرنا J. Berque نفسه بأن شيشاوة خربت من لدن المرينيين على أعقاب ثورة مصامدة جبل درن ما بين 1281 و 1307[21].

وفي موضوع مرامر كتب الحسن بن محمد الوزان بأنها «مدينة بناها القوط في الداخل على نحو 14 ميلا من آسفي... وكانت فيما سبق خاضعة لحاكم آسفي، فلما احتل البرتغاليون آسفي هرب سكان مرامر وبقيت مدينتهم خالية زهاء سنة، ثم اتفقوا بعد ذلك مع البرتغاليين ورجعوا الى ديارهم، وهم يؤدون حتى الآن جزية لملك البرتغال»[22].

وتقع مرامر ــ التي تحمل أنقاضها اليوم اسم صويرة مرامر ــ على الضفة اليمنى لمسيلة تحمل اسم وادي مرامر الذي ينبع من جبل جغرة (الذييبلغ ارتفاعه 518 م) الذي يقع على الضفة اليسرى لوادي تانسيفت.

وكلنا يعرف أن هذه المدن لا تعدو أن تكون اليوم مجرد دواوير أو على الأكثر مجرد مراكز حضرية صغيرة إن لم تكن قد انقرضت نهائيا كما هو الحال بالنسبة لأغمات أيلان ونفيس[23]. وهو وضع يختلف تمام الاختلاف عن الوضع الذي كانت عليه هذه المدن قبل تأسيس مراكش، والذي كان يتسم حسب غالبية المؤرخين والجغرافيين الأقدمين بالثراء والرخاء.

ولن يفوتنا هنا الوقوف عند عوامل هذا الرخاء لنجملها فيما يلي :

1 ــ كون معظم هذه المدن كانت عبارة عن عواصم اقليمية وعن مدن مستقلة عن الحكم المركزي يتولى إدارتها بالتناوب أعيان القبائل وأشياخها. وقد ساعدت هذه الوظيفة ولا شك على استقطاب العديد من العلماء والأدباء كما هو الحال بالنسبة لأغمات[24].

2 ــ كون هذه الحواضر كانت عبارة عن أسواق محلية كبيرة تلعب دور الوساطة بين الجبل والسهل. وخير شاهد على هذا الدور ما كتبه البكري حول سوق أغمات وريكة : «فسوق أغمات وريكة يقوم يوم الأحد بضروب السلع وأصناف المتاجر، يذبح فيها أكثر من مائة ثور وألف شاة، وينفذ في ذلك اليوم جميع ذلك».

(21 b) J. Berque. Les Antiquités Seksawa, Hespéris, 3° et 4° trim 1953, pp. 359-418

(22) الحسن بن محمد الوزان : وصف إفريقيا ترجمة محمد حجي ومحمد الاخضر، ج الأول الرباط 1980.

(23) لم يستطع المؤرخون إلى حد الآن تحديد موقع نفيس وذلك بالرغم من وجود عدة افتراضات لخصها وعلق عليها برنارد روزنبرجي في مقالة له بعنوان «ملاحظات حول قوز» في هسبريس 1967.

(24) انظر الأعلام.

ويساعد على القيام بهذا الدور، كونها تقع، كما هو معلوم قرب منطقة الدير.

3 ــ كون مواطنها مواطن خصبة كما يظهر من وصف الادريسي لناحية أغمات وريكة التي قال عنها : «وحولها جنات محدقة وبساتين وأشجار ملتفة...»

ومن البديهي أن ينعكس عنها غنى مواطنها بحكم علاقات التفاعل التي سبقت الاشارة اليها في بداية هذا الموضوع.

4 ــ كونها تقع على الطرق التجارية الكبرى التي كان لفجاج أدرارن درن دور لا يستهان به في توجيهها.. والتي تربط مدن الناحية بكل : ./1 من سجلماسة شرقا عبر فجاج جبال هزرجة وخاصة فج تيزي ن تلوات، ./2 من أودا غست ومن خلالها بلاد السودان جنوبا عبر فجاج تينمل (تيزي ن تاست وتيزي ن وشدان) أو على مدينة تامرورت (التي يعتقد أنها إيمي تانوت الحالية).. /3 من مدينة فاس على حصن داي شمالا../4 من بلاد برغواطة كما سبقت الاشارة الى ذلك جهة الشمال الغربي[25].

وتتجلى أهمية هذه العلاقات التجارية مع مختلف جهات المغرب :

ــ أولا : في كون سكان أغمات وريكة، مثلا، على حد تعبير الادريسي «تجار مياسير».. لم يكن في دولة الملثم أحد أكثر منهم أموالا ولا أوسع منهم أحوالا...»

ــ ثانيا : في كون مدينة أغمات كانت تربطها بالعالم الخارجي علاقات يساعد عليها توفرها على ميناء سماه البكري بميناء قوز وهو ميناء لم يتحدث عنه الادريسي الذي لم يفصله عن البكري إلا أقل من قرن من الزمن، بهو أفول يرتبط ولا شك بأفول أغمات التي كتب عنها الادريسي «وأما الآن في وقت تأليفنا لهذا الكتاب (أي حوالي 1154 ميلادية) فقد أتى على أكثر أمواهم المصامدة...» ووجود ميناء قوز التي يعتبر بمثابة مرفأ أمامي لأغمات يحملنا الى اعتبار هذه الأخيرة وسيطا تجاريا محتوما لمدينة سجلماسة.

5 ــ كون هذه المدن كانت تستفيد ولا شك من قربها من جبال درن التي كانت تشكل بالنسبة لها ظهيرها الرئيسي أي مجالا لتصريف منتوجاتها الحضرية من جهة وللتزود بالمواد الريفية عامة والجبلية خاصة من جهة أخرى.

ويزيد هذه الاستفادة أهمية كون جبال درن كانت حسب كتابات معظم الجغرافيين والمؤرخين تزخر بالخيرات أولا وتعج بالسكان ثانيا.

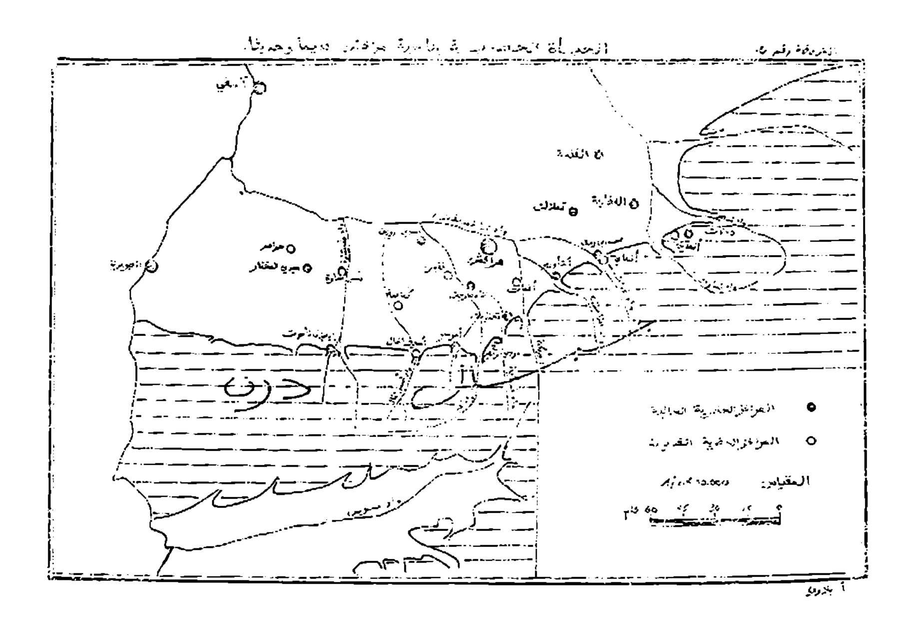
ومما تجدر الاشارة اليه كون هذه المدن كانت تقع بالأساس جنوب وادي تانسيفت وعلى مسافة شبه متساوية بعضها من بعض. وفي هذا يقول البكري «من وريكة الى نفيس خمسة وثلاثون

(25) انظر الخريطة رقم 2.

ميلا، ومن نفيس الى شيشاوة ثلاثون ميلا ومنها الى مرامر ثلاثون ميلا ومنها الى رباط قوز خمسة وعشرون ميلا».

وهي ملاحظات تجعل هذه المدن في نظرنا مدنا درنية ــ إن صح التعبير أكثر منه مدنا سهلية. وان دل هذا على شيء فإنما يدل على أن المجالات الجبلية كانت خلال تلك العهود تفوق المجالات السهلية من حيث الأهمية.

غير أن تأسيس مدينة مراكش بعيدا عن جبال درن أولا وانتصابها عاصمة لأول امبراطورية مغربية تجاوزت حدودها الآفاق التي كانت ترنو اليها مدن أغمات نفيس، شيشاوة ومرامر ثانيا، جعل هذه المدن تتقهقر تدريجيا الى ان اختفى بعضها نهائيا لتحل محلها مدينة مراكش التي كانت تعتبر بحق مفخرة من مفاخر العالم الاسلامي الغربي في العصر الوسيط.



ما علاقة الدولة بالمدينة ؟ وكيف يتم التحكم في أبوابها وأسوارها منذ تأسيسها مع التأكيد على أن عملية التأسيس لا تكون إلا نتيجة ضرورة تمليها عدة عوامل، منها ما هو طارىء، ومنها ما يخضع لاستراتيجية تدعيم السلطة، وكل هذه العوامل تدفع بالعمران إلى أن يأخذ بعدا ذا سلطة في المركز والمحيط سواء عندما تشرع جماعة ما في تأسيس أماكن إيوائها، والبحث عن غذائها وتوسيع من مكانتها وقوتها الشرائية بفتح مجال التبادل، أو عندما تكون قد أنهت عملية التأسيس ودخلت في مرحلة الحفاظ على وجودها بالدفاع الممكن والمتوفر داخل قلعة أو حصن.

إننا لن نأتي بأي جديد إذا قلنا إن الغذاء والدفاع والتبادل يشكل المحاور الأساسية داخل كل بقعة يتم تأسيسها(1) سواء اتخذت صفة القرية أو البلدة أو المدينة، إلا إن هذه المحاور تتفاوت نسبة حدتها وضخامتها وذلك حسب طبيعة المرحلة التاريخية التي تمر منها، حيث يتحول الصراع سواء كان داخليا أو خارجيا إلى مسألة وجود وبذلك تصبح سلطة المدينة داخل جهاز الدولة الرمز والمنطلق لحماية هذا الوجود، وهذه العلاقة الجدلية من وجهة النظر التاريخية تعرف تفاوتات وعلى عدة مستويات.

ويجب أن نبقى هنا في إطار النموذج الذي نحن بصدده : تأسيس مراكش، كيف تم ؟ وما هو المحيط الذي ساعد على النشأة ؟ ويمكن أن نقرر منذ البداية أن الأمر كان يتعلق بقرار سياسي اتخذ على أعلى المستويات ما بين سلطة وافدة هي السلطة المرابطية، وسلطة مغلوبة على أمرها، هي سلطة المشايخ والأعيان الممثلة في المصامدة، ويمكن أن نذهب إلى أبعد من هذا، لنقرر كذلك حقيقة تاريخية وهي أن عملية التأسيس هاته، ولو أنها كانت تحت إشراف السلطة الوافدة قد تمت بمشاركة فعلية للسلطتين معا، وبنوع من التوافق والتراضي ولو ظاهريا، إلا أن النوايا المخفية لكل من السلطتين تبقى قائمة تنتظر لحظتها المواتية.

يمكن للمعطيات التاريخية وعلى ضوء ما سبق أن توضح أبعاد العمران، وتحديد العلاقة ما بين موضوع الدولة والمدينة. على الرغم من بعض الاشكالات التي يطرحها هذا الموضوع والتي ليس من البساطة إيجاد أجوبة شافية لها، ولكن مع ذلك يمكن أن نسمح للتأمل مع محاولة دراسة العوامل التي ساهمت في بلورة فكرة التأسيس بأن نقدم بعض المنطلقات لتحديد الصورة الأولية لها.

ويجب كذلك أن نؤكد منذ البداية أن الوصف المجرد لا يحل إشكالية، بل يغيب جوهرها وكنهها، ودراسة العمران بشكل مجرد لا يكشف عن ماهية الدولة ولن تقدم إلا قدراً محدوداً من تصور ينحصر في الخطوط العريضة لتوجهاتها، وبذلك نعتبر أن تجاوز الوصف العمراني مسألة ضرورية لمعرفة كنه ذلك العمران لا على المستوى الحضاري فقط، بل وعلى المستويين السياسي والتاريخي، فكم من عمران تهدم وانقطع واندثر، إلا أنه لم يلغ تاريخية سلطة ما «إذ أن الظاهرة

(1) انظر ماكس فيبر — المدينة معناها وشروط قيامها — ترجمة رضوان السيد — الفكر العربي العدد 29 — 1982 — السنة الرابعة.

الملموسة التي يتجلى بها وجود الدولة لا تفيدنا في التعرف على كنهها(2)» كما يقول جورج بوردو في كتابه عن الدولة.

وأضيف كذلك بأن وصف المعالم والمباني التاريخية لمدينة ما لا يكشف عن طبيعتها إذا لم يتم الكشف عن البنية الذهنية المكونة لها، والحمولات الفكرية والتاريخية التي كانت وراء تأسيسها، وكيف، تطورت اجتماعيا واقتصاديا وثقافيا.

إن الدولة ما هي في نهاية المطاف إلا فكرة، والمدينة فضاء تسبح فيه تلك الفكرة الأوتاد التي تشد الخيمة، إنها تعكس الفكرة في ماديتها وحركاتها وتبقى الدولة تشكل البنية الذهنية المكونة لها، وبذلك نتعامل مع البنايات والمؤسسات والمرافق العمومية كفضاء لتصريف أفكار قابلة للتطور والتغيير وبواسطتها ندرك حدود الدولة وآفاقها وقوتها، ومدى قدرتها على حماية ورعاية الثالوث الأساسي لمحور الدولة في المدينة : الغذاء ــ الدفاع ــ التبادل.

ويمكن الآن على ضوء هذا التقديم أن نطرح سؤالنا الأساسي : ما هي العوامل الاساسية التي كانت وراء تأسيس مدينة مراكش ؟ هل هي عوامل سياسية قبلية أو عوامل اقتصادية ؟ عوامل حضارية مشدودة الرغبة في الاستقرار ؟ هل السلطة السياسية التي كان يتحكم فيها الصنهاجيون كانت واعية بأهداف الانجاز عندما خضعت لرغبة المصامدة ودفعت في اتجاه تأسيس مدينة بعيدة عن مواقعها وتجارتها ومركزها الديني ؟

لقد تمكن الصنهاجيون من احتلال مواقع المصامدة كمرحلة أولى، وهو احتلال يدخل ضمن نسق تطور صيرورة النمو الخارجي، تولد كمظهر من مظاهر الغزو لمجتمع جديد يتميز بالاستقرار وكما يقول صاحب الحلل الموشية «وانصرف إلى بلاد المصامدة / وطاعت أوريكة وهيلانة وهزميرة / احتلوا أغمات أوريكة»(3) وواضح من خلال هذه العبارات أن الاحتلال كان من نتائجه الإذعان والطاعة... ومن الطبيعي أن يفرز قلقا وضيقا وتبرما عبر عنه السكان الاصليون بوضوح.

ولكي تكتمل صيرورة النمو الخارجي في محاذاتها لصيرورة النمو الداخلي كان من الطبيعي أن يحصل تطور في أشكال السيطرة لجزء من مجتمع المصامدة.

ولا شك أن وعي المصامدة كان يقودهم إلى محاولة التخلص من السيطرة الصنهاجية بأي عذر كان، ووجدوا في توسع الكثافة السكانية للمهاجرين الحيلة الأولى إذ أن الطاقة الاستيعابية للارض لم تعد قادرة على تحمل تكاثر الوفود الوافدة «اذ كثر الخلق بها وضيقوا على أهلها وكانوا على حال صعبة»(4) ولم يكن أمام شيوخ المصامدة إلا الاكثار من الشكوى والتركيز على هذه النقطة

(2) George Burdeau l'état col point éd Seuil 1970 P.9 ترجمة إلى العربية د/سليم حداد المؤسسة الجامعية 1987 ص 7

(3) الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية تحقيق د. سهيل زكار وعبد القادر زمامة ــ دار الرشاد الحديثة 1979 ص 15

(4) نفس المرجع السابق ص 15

الـدولـة والمـدينـــة
مـرحلــة التـأسـيـس

د. عبد الغني أبو العزم
كلية الآداب ـــ البيضاء ا

وكأنها يمكن أن تحمل فرجا لضيقهم، فعرضوا الأمر على الامير أبي بكر بن عمر مرارا لما يلحقهم في ذلك من العناء والمشقة «وأنهوه إليه المرة بعد المرة»(5).

وأعتقد أن الحرص على استمرارية النمو الداخلي لسلطة في طور التكوين دفع بالأمير إلى قبول الطلب، وكان ذلك واضحا من قوله «عينوا لنا موضعا نبني فيه مدينة إن شاء الله(6).

ويمكن هنا أن نتحدث عن وازع داخلي نفسي، كان يستبد بالمصامدة وهو انهم كانوا يخافون خوفا لا حد له بأن يتعرضوا للذوبان، والحاحهم على السلطة الوافدة بأن تبحث عن مكان آخر لسلطتهم ولوفودهم، مما يفسر ويترجم رغبتهم في الحفاظ على عصبيتهم وعلى وحدتهم القبلية، وذلك ولو بالتخفيف من ثقل الغزو الخارجي والتخلص من شبح خطر الغزو.

وبذلك يمكن القول إن السلطة السياسية لم تكن هي التي الحت ودفعت وسعت إلى إنشاء مدينة مراكش ولكنها رأت في العملية خدمة لاستراتيجيتها ومحاولة جادة لتكوين مركز مستقر يخلصها من الصراع الداخلي، ولا شك أن إشرافها على عملية التأسيس للمدينة سيضعها بالضرورة في موقع قوة، ويبعدها عن كل ما من شأنه أن يعرضها مستقبلا لحقد دفين عند المصامدة.

وهنا ينبغي الإشارة فقط إلى أن خروج اللمتونيين من رباطهم عرف تداخلا ما بين نشر الدعوة والعمل على دعم مركزهم الاقتصادي وذلك بالاتصال بجماعات جديدة والتحكم بالمراكز التجارية، وهذا ما دفعهم للبحث عن وسائل جديدة لتوسيع مناطق النفوذ... ويمكن أن نستنتج أن وجودهم بأغمات لم يكن يلبي كل طموحاتهم وهذا ما يفسر قبولهم بدون تعقيد لمغادرتها تحت إلحاح أشياخ المصامدة للبحث عن موقع جديد لسلطتهم مع التأكيد على أن بسط نفوذهم في قلب أغمات كانت تحيط به مخاطر جديدة بالاضافة إلى أن مفهوم الرباط لم يعد يتلاءم وطموحهم السياسي ولكن مع احتفاظهم بالتشبث بالسلطة الدينية ومردوديتها، وهذا ما سيقوى من تداخل السلطتين، السلطة الدينية والسلطة السياسية بوجود أميرين أمير سياسي وأمير ديني، وهذا يعود إلى قناعتهم منذ النشأة وظروفها، وتدعيمهم لهذه الازدواجية. وهذه ميزة مرابطية وسنلاحظ استمرارها إلى حين في عهد الموحدين.

وأود الآن أن أعود إلى عبارة أبي بكر بن عمر : «عينوا لنا موضعا نبني فيه مدينة إن شاء الله» لأقول انها عبارة هادئة واعية تمثل طبيعة تلك الفترة التي تميزت بالانسجام ولو ظاهريا، وهو انسجام يبحث عن متنفس للطرفين مع العلم أن الطرف الأساسي المتمثل في السلطة المرابطية كان يحمل وعيا تاريخيا بضرورة إيجاد مركز مستقل خارج عن كل ما له علاقة بالنسبة للمصامدة ليسمح لها بالتحكم في الأطراف، إنه المركز الديني والسياسي الذي سيمثل نقطة الجذب وضبط

(5) نفس المرجع السابق ص 15

(6) نفس المرجع السابق ص 15

الصراع، وهكذا سيتمكن الطرف الثاني أي المصامدة بأن يخلو إلى وحدته وهدوئه وأسلوب معيشته بعيدا عن السيطرة المباشرة.

إلا أن هذه الرؤية لا تمنع من القول بأن تعاونا تاريخيا هائلا قد حصل ما بين الطرفين، طرف يسعى إلى الانكماش وتقديم الولاء والطاعة من بعيد ولو مؤقتا، وطرف يريد تأسيس سلطة ممتدة الأطراف ويبحث عن مركز اشعاعي، وهذا في اعتقادي ما يفسر أن اختيار بقعة رحبة وعلى أساس اتفاق جماعي قد تم بدون مشاكل وهكذا «اجتمعوا على أن بنائها بين هيلانة وبين بلاد هزميرة» فهل هذا الاختيار كما يقول دوفردان اختيار اتسم بالحياد ؟[7] وأعتقد أن الأمر لا يقف عند مجرد الحياد، فهو في ظاهره حياد إيجابي لا يخفي أي نوع من المكر والخديعة ظاهريا وخصوصا عندما يضيف المصامدة بقولهم : «لقد نظرنا لك أيها الأمير موضعا صحراء رحب الساحة واسع الفناء يليق بمقصدك» بل يضيفون أكثر من هذا : «نفيس جنانها وبلاد دكالة فدانها وزمام جبل درن بيد أميرها»[8] إلا أننا ومع كل هذا الوضوح، نجد أن بواطن الأمور تشير إلى شيء آخر، فالاختيار وعلى ضوء ما أوردناه أعلاه هو محاولة أخرى لاستراحة المحارب المنهك القوى، وفي نفس الوقت استعادة النفس واسترجاع الطاقات والامكانيات، وكذلك لا يمكن أن ننكر الوجه الاستراتيجي الآخر للمصامدة على المدى البعيد وكما يقول الصديق الباحث أحمد التوفيق «إن الموقع في نهاية المطاف كان بحيرة في بحر مصمودي»[9].

بهذه الصورة ننظر إلى المشاركة الجماعية التي سعت إلى اتخاذ قرار بناء المدينة، وهو قرار على طرفي نقيض، وكل طرف ينطلق من حسابات ذاتية واستراتيجية... قرار سياسي ساهمت فيه السلطة الوافدة وسلطة الجماعة المغلوبة على أمرها، وهو قرار يتوزع ما بين اعتبارات شتى، منها القبلي والسياسي والاقتصادي والاداري... وهذا ما أعطى بناء مدينة مراكش منذ البداية طابعها المعماري التام وما يتلاءم ومفهوم المدينة... فهي لم تكن مجرد قلعة عسكرية كما توهم لفي بروفنسال معتمدا في ذلك على كتابات ابن خلدون عندما أوضح بقوله : «وجعل يوسف مدينة مراكش لعسكره وللتمرس بقبائل المصامدة[10]... ولقد أصاب دوفردان في تساؤله الاستنتاجي بقوله «لا شيء يمنع من تصور أو تخيل أن اختيار رجال أغمات ورجال أبي بكر الموقع المدينة لم يكن يخلو من وازع داخلي»[11].

(7) Gaston Deverdun. Marrakech des origines à 1912, Rabat 1959. p. 45

(8) الحلل الموشية ص 15

(9) انظر البحث في هذا الكتاب للاستاذ أحمد التوفيق

(10) ليفي روفنسال ـــ الاسلام في المغرب والأندلس Islam d'occident بدون تاريخ ص 243

(11) Gastan Deverdun. Marrakech des origines à 1912, Rabat 1959. p. 55

وعلى ضوء هذه المعطيات يمكن القول كخلاصة أولية أن مدينة مراكش في أفق تأسيسها لم تكن مجرد محطة للاستراحة كما أنها لم تؤسس في أفق سوق موسمي... وهذا ما جعل من عملية التأسيس تأخذ طابع المركز السياسي المستقل للدولة المرابطية، وأهلها لتشكل موقعا معماريا إشعاعيا جنوبا وشمالا وشرقا وغربا.

ملاحظة : حاولنا أن لانثقل الهوامش بالمصادر التاريخية حول نشأة مراكش واكتفينا فقط بالحلل ونزهة المشتاق وبيان المغرب وحتى عندما تتكرر نفس المعلومات في هذه المصادر ذاتها.

معالم المدينة الاسلامية :
نموذج مراكش

ذ. عبد الغني أبو العزم
كلية الآداب الدار البيضاء 1

إذا كنا أوضحنا نظرياً أن تأسيس مدينة مراكش خضع لعوامل سياسية داخلية حددها النمو الداخلي للسلطة المرابطية وصيرورة تطورها، فإننا يمكن أن نلاحظ أن ذلك النمو جاء ضمن نسق تطورها على الصعيد الخارجي، وان الجانب التطبيقي لمفهوم المدينة ومؤسساتها جاء بدوره يؤكد الخلاصات الأولية التي قدمناها لهذه المداخلة، بل هي تدعيم لها، وتضيف مادة غنية لنظرية المدينة الاسلامية ومعالمها الأساسية التي تتجلى مظاهرها في :

I ــ تأسيس المسجد .
II ــ تأسيس بيت الإمارة أو ما يسمى بقصر الحجارة.
III ــ تكوين الجيش وتنظيمه.
IV ــ إنشاء مجلس الشورى.
V ــ وضع نظام ضرائبي.
VI ــ إنشاء دار الحكمة.
VII ــ تكون التجمعات السكنية.
VIII ــ تخطيط الهندسة المائية.
IX ــ وضع الأسس الصناعية الأولى
X ــ علاقة المدينة بمحيطها الخارجي (الضواحي والنواحي).

كيف تم تبلور هذه المعالم ؟ هذا ما سوف نحاول الإجابة عليه كمقدمات أولية وهي تحتاج إلى المزيد من البحث والاستقصاء.

I ــ تأسيس المسجد :

إذا كان المسجد يعتبر المعلمة الأولى في العمارة الإسلامية، فإنه يشكل كذلك البنية الأساسية لتكون المدينة الإسلامية، ولا غرابة أن يكون البناء الأساسي الأول للمدينة قد انطلق من المسجد لأن تكون فكرة الدولة المرابطية بزغت على أسس دينية رباطية إسلامية، ولا تزال آثاره باقية قرب دار الإمارة أو ما يسمى بقصر الحجارة، وهذا التشكيل المعماري الذي يضم المؤسسات العمومية ومؤسسات الدولة هو في الواقع تقليد قديم تشترك فيه كل المدن القديمة :

II ــ بيت الإمارة أو قصر الحجارة :

كانت المعلمة الثانية التي حركت قلب المدينة، وحددت مسارها في بداياتها الأولى هي تشييد دار الإمارة أو ما يسمى بقصر الحجارة، وليس صدفة أن يركز كل المؤرخين على هذا المعلمة، وفي مقدمتهم صاحب الحلل الموشية الذي قال عنها : «واشتغل ببناء الحصن المسمى

بحصن قصر الحجر برحبة مراكش وجعله تحت أسوار وأبواب وحصنه»[1] إن الأمر يتعلق بخطة استقرار واضحة بوضع اللبنة الثانية لدعامة المدينة، أي تأسيس مركز القرار والسلطة ليكتسي من الهيبة ما يفرضه الظرف، وحسب ما يبدو ويسمح به التأويل أن الباعث على هذه التسمية مرده عامل الدهشة والإثارة والإعجاب لأن استعمال الحجر في عملية البناء كتقليد لم يكن سائداً، وهذا ما يجعلنا نعتقد أن تحولا هاما في مجال المعمار قد تم، وليكن انطلاقاً من بيت الإمارة[2].

III ــ تكوين الجيش وتنظيمه :

يشكل الجيش أداة عملية لا في بناء أسس الدولة فقط، بل وفيما يتعلق بتشييد مباني المدينة ومؤسساتها الدفاعية والاجتماعية والاقتصادية بالإضافة إلى ما يكتسيه هذا التكوين في المرحلة التي يشرع فيها بتأسيس المركز الذي سيصبح المنطلق لضبط المحيط القريب والبعيد والتحكم في تطور الصراع داخلياً وخارجياً، ولن يعرف النمو السياسي والاقتصادي سيره العادي (على مستوى المدينة والدولة) إلا من خلال المظهر الأمني الذي تمثله قوة الجيش والأشكال التي سيتطور بداخلها.

صحيح ان المرابطين حملوا معهم الفيالق الأولى التي استوطنت أغمات حيث توالت الوفود والجيوش من الصحراء[3] وكون يوسف بن تاشفين من «الثلث الذي تركه له ابن عمه الأمير أبو بكر»[4] النواة الأولى لجيش المدينة أولا وطعم هذه النواة بعناصر جديدة[5] وأعتقد أن التحول قد بدأ تحديداً من هذه المعاينة وما عرفته المدينة في مرحلة تأسيسها، ولم يقف يوسف عند مجرد الاستقطاب، بل أخضعه إلى تراتيبية استراتيجية لها حس بخبايا صراع العصبيات في محاولة واعية لضبطه والتحكم فيه، وفي أقل من عشر سنوات على وضع الحجر الأساسي للمدينة، حيث تم تجديد الجيش وشق الطرق وإنشاء الأحياء السكنية[6] واشترى جملة من عبيد السودان وبعث إلى الأندلس، فاشترى منها جماعة من العلوج[7] ولا غرابة أن يعمد إلى تقسيم الجيش إلى طائفتين :

I ــ طائفة الحشم. II ــ طائفة الداخليين.

وهكذا ضمت طائفة الحشم عناصر من جزولة ولمطة ومصمودة وقبائل زناتة وواضح أن التوازن القبلي قد تمت مراعاته إلى حد كبير، وأصبح يشكل القوة الضاربة، والمواجهة الأمامية لكل المعارك الخارجية المقبلة.

---

(1) الحلل الموشية ص 25
(2) انظر الادريسي نزهة.
(3) نفس المرجع السابق ص 25
(4) نفس المرجع السابق ص 25
(5) نفس المرجع السابق ص 26.
(8.7.6) نفس المرجع السابق 33

أما الطائفة المسماة بالداخليين في البناء الداخلي وهي حسب السلم العسكري فإن مهامها محددة في حراسة الإمارة ويلاحظ أن اختيارها قد تم حسب القرابة وهي المسؤولة عن حماية قاعدة الدولة، ولا غرابة كذلك أن تضم هذه الطائفة جماعة من العلوج الذين لا دخل لهم في الصراعات القبلية من جهة ومن جهة أخرى فإن جزءا منهم من الأهل وحاشية الملك(8).

وهذا البناء الداخلي لقوة الجيش وانطلاقاً من المستقر المدينة هو الذي سيؤهل يوسف بن تاشفين للخروج إلى الجهاد ليتمكن من توسيع رقعة السلطة إلى حدود إيبيريا..... وهكذا يمكن القول ان تنظيم البناء الداخلي للمدينة انعكس على استراتيجية الدولة وجاء ملائماً لطموحاتها.

IV ـــ إنشاء مجلس الشورى :

بديهي ككل المجتمعات القديمة أن يكون للمدينة مجلس من الحكماء أو الفقهاء والأعيان والمشايخ، وبالأخص إذا كان الأمر يتعلق بمركز السلطة وبمستقرها الجديد، مع العلم أن وجود مجلس للشورى يدخل في نسق التكوين التربوي والديني لرموز السلطة المرابطية، ولم يخرج يوسف بن تاشفين عن هذا الإرث المرابطي، وهو الذي نشأ في ظل ازدواجية السلطة الدينية والسياسية في عهد أبي بكر وعبد الله بن ياسين مما جعد كما يقول صاحب الحلل الموشية « يفضل الفقهاء ويعظم العلماء ويصرف الأمور اليهم ويأخذ فيها برأيهم ويقضي على نفسه بفتواهم»(9) ويمكننا أن نضيف هنا أن نشأة مدينة ما من الصعب أن تستقر وتشكل مركز استقطاب إذا هي لم تكن خاضعة في قراراتها لمجلس ما... وإن كان هذا المجلس سيعرف تحولات اجتماعية هامة وذلك باستحواذه على السلطة الاقتصادية يمثل فئة / نخبة وعلى أساسها سيتميز وضعه الطبقي فيما بعد... وهذا شيء طبيعي أي من طبيعة نشأة المدينة وتطور حياتها المدينية، وبالأخص عندما يتحول ذلك المجلس إلى مجلس قضائي يبث في قضايا الناس.

V ـــ النظام الضرائبي وجباية الضرائب.

يدخل نظام جباية الضرائب في أسس تكون الدولة، وعندما تنشأ مدينة ما فإن أول شيء يتم تكوينه وحبك قوانينه هو النظام الضرائبي على الصعيد الداخلي من جهة، وفي إطار العلاقة ما بين المركز وضواحيه وأقاليمه من جهة أخرى، وبالتحديد في مجال تبادل السلع. وفي هذا الصدد سارعت السلطة المرابطية إلى فرض ضرائب على كل السلع الواردة، والسلع التي تم صنعها بقباب المدينة وكانت القبالة على كل شيء يباع أو جل(10) وفرضت كذلك ضرائب ثقيلة على اليهود سنة 464 ه. وذلك في مرحلة كانت الدولة منهمكة في تكوين وتنظيم جيشها القوي.

(9) نفس المرجع السابق ص 82.

(10) الادريسي نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ص 45.

ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب تحقيق ومراجعة إحسان عباس 1983 ص 22.

وهكذا يمكن أن نلاحظ أن مراقبة السلع وفرض ضرائب عليها، سواء تعلق الأمر بسلع مستوردة أو سلع يتم صنعها وإنتاجها بداخل المدينة لا تدخل فقط ضمن نقطة اقتصادية سياسية للسلطة، بل تسعى إلى ترتيب بيت المدينة وتحديد علاقاتها ما بين صناعها وتجارها من جهة وبين هؤلاء ومركز السلطة من جهة أخرى، هذا بالإضافة إلى ضبط علاقة خضوع وتبعية الأقاليم والضواحي للمدينة، أي للسلطة.

ويجب أن أشير إلى ان المرابطين سبق لهم أن تمرسوا بهذا النوع من المراقبة، فهم قبل أن يستقروا بأغمات وقبل أن يؤسسوا مدينة مراكش، كانت لهم دراية بمراقبة الطرق التجارية عن طريق البر مروراً بأواد بيو ووصولا إلى نول لمطا وأغمات (نول لمطا نواحي كلمين).

كما نجدهم قد راقبوا مراكز أخرى، مثل غينيا، وأهم المراكز بإفريقيا الشمالية، وباستيلائهم على سجلماسة التي كانت تمد فاس وتلمسان وقرطبة بالذهب تمكنوا من احتكار كل منتوجات مناطق نهر السنيغال..

VI ـــ دار السكة :

على الرغم من أننا لا نملك وثائق واضحة في هذا المجال فلقد قمنا بمجموعة من الاستنتاجات قادتنا إلى تصور وجود دار للسكة بمراكش في بداية تأسيسها.

إن المرابطين عندما تمكنوا من مراقبة الطرق التجارية شرعوا في ضرب الدينار المرابطي الذي كان يحمل اسم أمير المؤمنين عبد الله بن ياسين والأمير أبو بكر سنة 454 هـ.[11] وهذا ما يجعلنا نعتقد أن هذه الممارسة في ضرب النقود لم تكن غريبة عن يوسف بن تاشفين، وهو مؤسس مدينة مراكش وموسع أرجائها وإذا كنا نعرف أن أول ضرب للدينار بالمدينة قد تم سنة 499، أي بداية ظهور اسم مراكش على العملة، فإننا نستبعد هذا التأخر، لاعتقادنا بأن يوسف بن تاشفين كان يريد أن يحافظ على تراث المرابطين وذلك بإعادة ضرب العملة كما كان عليه الأمر في حياة مؤسسي الدولة. وبذلك من الصعب أن نتصور مدينة أصبحت مركز للسلطة بدون دار للسكة.

VII ـــ التجمعات السكنية :

إن من أسس تشكيل مدينة بمفهومها الكامل لا يتم فقط بتجمع سكني لفئة من الناس، ولا بضخامة وكثافة التجمعات السكنية، ولكن بما يمكن أن يفرزه استقرار هذه التجمعات من علاقات إنتاج داخلية وخارجية وتوازن الصراع الإجتماعي بين فئاتها وقدراتها على تراكم الإنتاج الحرفي والصناعي وتوسيع نطاقه، والإبتعاد عن الاعتماد الكلي على الزراعة، وهذا النوع من الاستقرار وما

(11) انظر : Mohamed Daoudi Monnaies Medias 1987. P. 146.

يمكن أن يسفر عنه لا يتم إلا إذا كانت هناك حاجة ملحة اليه، وهو استقرار كانت تفترضه اعتبارات جيوسياسية استراتيجية واعتبارات اقتصادية.

ومنذ تعيين «البقعة الأرضية» شرع الناس في بناء الدور في عهد الأمير أبي بكر بن عمر وقد نزل بها وأخذ في بناء الديار... فابتدأ العمل في الأساس بمشاركة شياخ وحسب عونهم، فأعانوا على البناء بالمال والرجال»(12).

ومنذ الشروع في عملية البناء بدأت تتوضح الأشكال المعمارية التي كانت تخضع إلى إمكانية الأفراد، واشتغل الناس فيها ببناء الديار كل واحد على قدر جهده واستطاعته(13) وهذا ما سيحدد طبقية التجمعات السكانية ويميز بعضها عن بعض ويشكل نوعاً من التراتبية الاجتماعية التي ظهرت منذ اللحظة الأولى لتأسيس المدينة، فهناك الأعيان والأشياخ والفقهاء والكافة والخاصة والجند على اختلاف مراتبهم(14).

وهذه الحاجة إلى الاستقرار والدفع بالنمو الحضري للمدينة بأسرع ما يمكن، وترسيخ مركز السلطة، استطاعت أن تستقطب وفودا أخرى للكشف عن رغبة عميقة في الاستقرار لمختلف العناصر التي كانت لها علاقة مباشرة أو غير مباشرة بالسلطة المرابطية... « فوفد عليهم منهم جموع كثيرة لأهم الأعمال وصرف أعيانهم في مهمات الأشغال، فاكتسبوا الأموال وملكوا الرقاب والرجال وكثروا بكل مكان وساعدهم الوقت والزمان»(15) وكل هذه عوامل حاسمة في توسيع نطاق المدينة مما سمح بنموها الحضري وهذا ما سوف يتجلى في دورها في مجال تبادل مختلف الصنائع وتقوية مركزها الصناعي وتوسيع أسواقها وما تقدمه من إنتاج.

VIII ــ تخطيط الهندسة المائية :

لا مدينة بلا ماء، وتنظيم مجاري المياه هو ما يساعدها على الإنتاج والعمار والاستقرار، ومن الغريب كما يبدو ولأول وهلة أن يرفض مؤسسو المدينة في البداية الاستقرار على ضفاف نهر تانسيفت، لأن هذا ليس من طبائعهم» ثم كانت آراء بعضهم أن تكون المدينة على وادي تانسيفت فامتنع لهم من ذلك وقال : «نحن من أهل الصحراء ومواشينا معنا لا يصلح لنا السكنى على الوادي»(16).

(12) ابن عذاري المراكشي البيان المغرب ص 20
(13) نفس المرجع السابق.
(14) الحلل الموشية، ص 26.
(15) نفس المرجع السابق ص 33
(16) ابن عذاري، البيان المغرب، ص 19

يمكن أن تشكل هذه الرؤية غيابا واضحا لدور الماء من أول وهلة كما أشرت في البداية، الا أنها كانت تنطلق من حس جماعي لما يمكن أن يحمله الواد من خراب وهلاك للجماعة، وهذا الادريسي يقول عنه انه «واد دائم الجري وإذا كان الشتاء حمل بسيل كبير لا يبقي ولا يذر»(17).

وبذلك لم يكن الابتعاد عن الوادي ومياهه بغض النظر عن الطبيعة الصحراوية استهانة بدوره، إذ سرعان ما تم إيجاد حل لمشكلة الماء وذلك بحفر الآبار على الطريقة الصحراوية ولم يكن «بعيد الغور، موجود إذا احتفر قريبا من وجه الأرض، وكون الماء ليس جاريا على وجه الأرض لم يمنع من إقامة البساتين، وهكذا أصبح ماؤها كما يقول الادريسي الذي تسقى به البساتين مستخرجا بكيفية هندسية حسنة على يد المهندس عبيد الله بن يونس وقد تم تعميمها، وهذا ما سمح لبساتين وجنائن مراكش بالاتساع والتعدد، حتى كثرت واتصلت بذلك عمارات مراكش وحسن قطرها ومنظرها...(19).

IX ــ وضع الأسس الصناعية الأولى :

إن من بين الأسس التي تسمح بانطلاقة مدينة ما وهي في طور التكوين هي قاعدتها الصناعية والإقتصادية، وبالأخص عندما يكون تأسيسها قد خضع لقرار سياسي، كما هو الشأن بالنسبة لمدينة مراكش.

إن الوافدين عليها ومؤسسيها لم ينطلقوا من العدم، فقد كانوا يحملون معهم تقنياتهم الأولية في مجال الصناعة، وهذه التقنيات لا يمكن إلا أن تجد مجالًا لتنميتها في رقعة من الأرض ما دامت السلطة السياسية ارتبطت بها ارتباطاً عضوياً، هذا مع العلم أن الأمر لا يتعلق بتحول مجتمع زراعي مستقر إلى مجتمع صناعي يسعى إلى احتراف التجارة، ولم يكن الهدف مجرد إنشاء سوق داخلي عابر، بل ترسيخ مركز له سلطة بإمارته وجيشه وصناعته واسراتيجيته، وبذلك لا غرابة أن تؤسس منذ البداية مراكز مع بداية تشكيل المعالم الأولى للمدينة.

إن أول الصناعات التي عرفتها المدينة هي صناعة النسيج، وكانت صناعة متطورة مسايرة لتطور الصناعة الدقيقة حسب ما يخبرنا به صاحب الحلل الموشية، ويمكن أن نصنف أنواع المنتوجات الصناعية في هذا الصدد كما يلي :

ــ نسيج الأثواب الصوفية، وصناعة العمائم والبرانس، والثوب السوسي.

ــ نسيج الصوف الدقيق وكانت تصنع منه الغفائر (مفرد غفارة) وهي عبارة عن خرق من الثوب تغطي بها النساء رؤوسهن، والاشتكري وهو ضرب من النسيج كانت تصنع منه الجبات.

(17) الادريسي نزهة المشتاق ص 44.
(18) نفس المرجع السابق ص 43
(19) نفس المرجع السابق ص 44.

ـــ نسيج الكتان، وكانت تصنع منه القبطية

ـــ صناعة الخيط ـــ وقد عرفت بدورها تطوراً مهما[20]

صناعة المعادن : ونكتفي هنا فقط بذكر صياغة الذهب وتحليته وصناعة السيوف والنقود والمهاميز وأنواع الأسلحة ومختلف أنواع الحلي.

أما في مجال التجارة فإن أسواقها عرفت اتساعاً لا في مجال الخضر والفواكه والقمح والشعير والمواشي من غنم وبقر وبعير بل في مجال المواد النادرة مثل العود والمسك والعنبر والند[21] كما كثرت أسواق مثل سوق الدخان والصابون والمغازل.[22]

X ـــ علاقة المدينة بمحيطها الخارجي (الضواحي والنواحي)

من البديهي أيضاً أن نقول أنه من الصعب على أي مدينة أن تعيش بدون روافد خارجية، أي بدون تنظيم العلاقة بضواحيها وهي التي تمدها بما تحتاج إليه من إنتاج زراعي، وبالمقابل فإن المدينة هي بدورها بحاجة تمد هذه الأقاليم والضواحي المحيطة بها ببضائعها وصناعاتها مع العلم أن بعض سكان المدينة يملكون بدورهم مراعي وفدادين وجنائن زراعية وإن كنا نعتبر هذا الرافد من الروافد الداخلية.

أكيد أن السوق المحلية ليس باستطاعتها أن تحول تجمعاً سكنياً إلى مدينة مزدهرة، ولكن الأمر يختلف عندما يتمكن أغلبية السكان من سد حاجياتهم اليومية من السوق المحلية وعلى أساس من التبادل المشترك داخل المركز وبما يرد عليهم من إنتاج زراعي ومواشي وهذا التبادل هو ما يعطي الحيوية الإقتصادية للمدينة، وهكذا يتردد سكان القرى المحيطة ـــ على المدينة ليجدوا أنفسهم في مسار تبعية مطلقة وهم في هذه الحالة يتعاطون البيع والشراء بتلقائية ولو إلى حين في منتوجات الحرفيين وسلع الاتجار معاً كما يلاحظ ذلك ماكس فيبر[23].

ولا شك أن الموقع الجغرافي للمدينة كان يؤهلها لتلعب هذا الدور وهذا ما يجعلنا نؤكد مرة أخرى أن اختيار الموقع لم يكن اعتباطياً أو خاضعاً للصدفة، بل تم لاعتبارات استراتيجية محددة الأهداف على المدى المتوسط و المدى البعيد في آن. وهذا ما توضحه العبارة المشهورة التي جاءت على لسان أشياخ المصامدة وهم يخاطبون الأمير أبا بكر بن عمر : نفيس جنانها وبلاد دكالة فدانها وزمام جبل درن بيد أميرها[24] إن هذا التحديد الجغرافي للموقع يعكس :

(20) الحلل الموشية ص 27، 28.

(21) نفس المرجع السابق.

(22) نزهة المشتاق ص 45.

(23) لنظر مقالة ماكس فيبر المدنية، معناها وشروط قيامها ترجمة رضوان السيد. مجلة الفكر العربي عدد 29 السنة الرابعة ص 8 ـــ 26.

(24) الحلل الموشية ص 16.

I ـ استراتيجية اقتصادية

II ـ استراتيجية سياسية.

I ـ الاستراتيجية الاقتصادية ـ إذا كان الموقع ما هو إلا مجرد خلاء لا أنيس به إلا الغزلان والنعام ولا ينبت إلا السدر والحنظل[25] فإنه مع ذلك إعلان المؤهل ليربط بلاد إيلان وبلاد هزميرة ما بين سكان الجبل والسهول والمجموعات السكنية سواء في الضواحي القريبة مثل نفيس ودكالة أو الضواحي البعيدة نسبياً مثل رجراجة وحاحا وسكان ضفاف أم الربيع... وبذلك يمكن القول أن الموقع شكل مفهوم اتجاه اقتصادي وأن مداخيل المدينة يمكن أن تنمو مستقبلاً، كما أنه بإمكانها أن تسد حاجياتها من المنتوجات الزراعية، كما أن المحيط بإمكانه أن يجد في فضاء المدينة المجال الأوسع لتصريف المنتوجات الزراعية.... وبالمقابل فإن على المدينة أن تزود هذا المحيط بمجمل البضائع والصناعات اليدوية والعملة، وهذا التبادل هو ما سيعطي للمدينة دوراً فعالاً وفعالية مستمرة لأداء دورها الطبيعي.

وبذلك يمكن القول أن علاقة المدينة بالأراضي الزراعية المحيطة بها هي علاقة حيوية ووجه من وجوه مظاهر متعددة لتشكل مركزاً ومستقرا لساكني الإمارة الجديدة.

II ـ الإستراتيجية السياسية ـ إن السلطة السياسية التي هي في طور التأسيس كانت تبحث بدورها عن مستقر جديد لتدعيم سلطتها وذلك بضرورة إحكام الاشراف الكامل على الدور الإشعاعي الذي يمكن للمركز السياسي أن يلعبه وبالأخص في مرحلة التأسيس وفي الوقت الذي كان يشكل فيه الموقع المركز بحيرة في بحر مصمودة على حد تعبير الأستاذ أحمد التوفيق، وكان يوسف بن تاشفين واعياً بخطورة موقع المركز، أنه مركز التوازن القوي بين ساكنيه وسكان محيطه وهذا ما ظهر بوضوح في وصيته لابنه «ألا يهيج أهل جبل درن ومن ورائه المصامدة وأهل القبلة (يقصد أهل جنوب الغرب)[26].

ولا شك أن الأحداث المتوالية التي عرفتها الفترات التاريخية اللاحقة قد حولت بسرعة موقع المدينة إلى موقع استهلاك وإنتاج وتجارة بالإضافة إلى موقعها الثقافي وهذا الاحكام تم بواسطة المراقبة الصارمة للسلع الواردة على المدينة وضبط خطة السياسية الاقتصادية وقد تمت إقامتها منذ البداية وذلك بتحديد العلاقة مع كل الأقاليم والضواحي. وهي بالتأكيد كانت تساير مدى التقدم في ترسيخ موقع السلطة السياسية باعتبارها اتحاداً سياسياً[27].

---

(25) نفس المرجع السابق.

(26) نفس المرجع السابق ص 82 ـ 83.

(27) انظر مقالة ماكس فيبر ـ نفس المرجع السابق.

ومنذ تسوير المدينة زادت فعالية هذا الترسيخ، وهذا التسوير لم يحولها إلى قلعة عسكرية، بل زاد موقع سوقها المحلي حيث أصبح يضمن نوعاً من الإكتفاء الذاتي، وينبغي أن نشير إلى أن التسوير لم يكن بدعة أو شيئاً خارجاً عن المألوف في تأسيس المدن القديمة وكما يقول ماكس فيبر « إنه لم تكن هناك مدينة قديمة في أقاليم البحر المتوسط وما حداها إلا وفيها قلعة أو سور»(26) هذا مع العلم أن علي بن يوسف لم يكن يرغب في الانفراد بالقرار مما جعله يطلب رأي العلماء في الأمر..

وباختصار يمكن القول أن العامل السياسي والإقتصادي قد تحكم في توجيه عملية التأسيس لتصبح مستقراً لإدارة السلطة السياسية، وهذا ما يعطي للمدينة صبغة «المدينة السياسية».

إن البنيات الأساسية، كما حاولنا توضيح أبعادها جعلت من مستقر مراكش مدينة بالمفهوم الكامل لما يتضمنه هذا المصطلح من معنى في القاموس العمراني إلا أنه لا ينبغي أن يغيب عن أذهاننا أن إشكالية المدينة / مراكش الأساسية هي أن إشعاعها ظل مرتبطاً بوجود جهاز الدولة بها على الرغم من توفرها على المقومات الأساسية للمدينة إذ كلما ابتعدت السلطة عنها آل إليها الخراب، وهذا مايحتاج إلى بحث مستقل.

مراكش بين التأسيس والتمدين
في العصرين المرابطي والموحدي

ذ. لكديم الصوصي مولاي ابراهيم
كلية الآداب ـــ مراكش

توجد أسماء مدن تاريخية رنانة وشاعرية تحمل الفاظا موسيقية باطنية تجعل المتلفظ بها يسبح خلال النطق في الجمال ولعل مراكش أكثرها نكهة لا في نظر أبناءها فحسب ولكن بشهادة كل من عرفها من شرقيين وغربيين الذين أوردوا لفظ مراكش في بعض أشعارهم وأغانيهم — مدينة ماروك اومرويكوس في الوثائق التاريخية الغربيةء المدينة التي دخلت القواميس اللغوية الأوربية من الباب الواسع بفضل شهرتها بصناعة الجلد إذ ينسب الفرنسيون مثلا كل ما يتعلق بصناعة الجلد إلى مراكش فظهر لفظ ماروكينوغي، المدينة التي يقدمها الاشهار السياحي بأوربا وامريكا على أنها مدينة ألف ليلة وليلة الساحرة بنخيلها المجاور لمنظر ثلوج الأطلس، بشمسها وسمائها وغروبها، تعتبر مراكش وبحق أشهر المدن الأصيلة المغربة والشاهد المباشر على عظمة المغرب والعبقرية المغربية ولعل صومعة الكتبية ببساطتها وعظمتها وشخصيتها الفريدة تذكر بذلك صباح مساء. وليس ذلك صدفة أو حكما ذاتيا بقدر ما هو نتيجة تفاعل عدة عوامل ضمنت وتضمن لمراكش أسباب البقاء والاشعاع بما لا تشتهي الرياح. فقد كان اختيار موقع موضع المدينة علميا أخذ بعين الاعتبار محاسن الظروف الطبيعية والجغرافية، وارتكز تمدين مراكش حول مبادىء دينية وموضوعية وحكم عليها موقعها الاستراتيجي ووظيفتها السياسية حيث كانت عاصمة البلاد علانية أو في الخفاء منذ نشأتها الى يومنا هذا ان تكون مدينة اختلاط وتمازج السكان وأفراد القبائل المختلفة والحضارات افريقية كانت أم متوسطية أو شرقية... كلها أسباب رسخت أهمية ومكانة مراكش وطنيا ودوليا.

ا) تأسيس مراكش والاختيار العقلاني للمواقع :

مدينة المغرب الاطلنطكي الداخلي توجد مراكش بسهل الحوز وهو سهل قبأطلسي داخلي ينحصر بين الجبيلات شمالا والأطلس الكبير الأوسط جنوبا ويمر منه واد تانسيفت أحد أنهار المغرب الكبيرة. وقد ظل السهل ولوقت طويل منطقة زراعية رعوية تفسر فيها قساوة الظروف المناخية سيطرة نصف ترحال في النشاط الاقتصادي القديم، فقد كانت المنطقة أزغار للقبائل البربرية بالأطلس الكبير الأوسط (ادرارندرن) بلد الاستقرار والتشجير الثمري. وضمن أراضي الرعي الجماعي وجدت منطقة عازلة بين قبائل هزميرة وغيلانة، مثل ما يصطلح عليه حاليا في الهضبة الوسطى المغربية ببلاد الزرواطا بين قبائل زمور، زعير وزيان، ولعل هذه المنطقة العازلة التي كانت في ملك شخص أو خلاء حسب الروايات، تحمل اسم مروكوش، كلمة أخرى استعملت للدلالة على بلد رعى خارج عن الأراضي الجماعية.

1 — تسمية المدينة :

ان كلمة مراكش مشتقة من اللغة البربرية التيفناغ التدباكين أو اللغة المقدسة لأهل الصحراء الكبرى قبل ظهور الاسلام وهي اللغة الأم للهجات البربرية المستعملة في أقطار المغرب

العربي الحالي، ومما يثير الانتباه هو تشابه هذه اللغة باللغة العربية الأصلية خاصة في استعمال الحركات على شكل نقط وفي استعمال حرف للتعبير عن أصوات ج و ق و ك (كل ما يقمقم، يجمجم أو يكمكم)، وعلى كل تتكون تسمية مراكش من كلمتين : مارووْ مارور وتعني مكان وكوش وتعني الرعي، لكن بعد اعتناق البربر الاسلام بدأوا يستعملون بكثرة في كتاباتهم لغة القرآن وتخلوا عن لغة التيفناغ التي لم يبق من حروفها الا رسومها تستعمل في وشم جلد النساء للتزيين أو لتوقيع جلود بعض الدباغين، لا يعرف لها مستعملوها أي معنى، كما انبثقت عنها عدة لهجات أهمها تاشلحيت، ونصادف كلمة كوس في اللهجة الدارجة المراكشية في الأوساط الشعبية القديمة الاستقرار بالمدينة إذ تدعو النساء على أبناءهن الغير المطيعين فتقلن «تمشي تكوس» بمعنى الله يبعدك عني لمدة كما يعد الراعي المنتجع أو الرحال عن أهله مدة معينة.

ولما أسس يوسف بن تاشفين أو أبو بكر بن عمر حسب الروايات مدينة مراكش في 1070 ميلادية على الترجيح أصبحت المدينة تحمل اسم المكان الجغرافي الموجودة فيه، وللا يقع خلط بين البادية المحيطة بالمدينة والحاضرة بدأ الناس يتحدثون عن حوز مراكش اسم عمم فيما بعد على كل السهل، ونتيجة لتوسع المدينة واشعاعها السياسي والثقافي على مر العقود التاريخية ضاع المعنى الأصلي لكلمة مراكش في غيابات التاريخ وأصبح الناس يعطونها ما بدى لهم بدهتهم من معاني، فمنهم من زعم أن مراكش تتكون من مر بمعنى اذهب، وكش بمعنى امسك جيدا، ومرد هذا التفسير حسب زعمهم، وجود قطاع الطرق بالمدينة والخاصية، تفسير من الصعب الاقتناع به مرجعه أن وجود قطاع الطرق كان شيئا مألوفا في المعمور بافريقيا وأروبا، فمن غير المعقول أن تنعت منطقة أو مدينة بصفة عادية أو مألوفة.

وتؤكد النصوص التاريخية أن معنى مراكش هو مكان الرعي ويلمح له صاحب الحلل الموشية وعبد الواحد المراكشي في كتابه المعجم بقوله أن مراكش كانت عندما وصل المرابطون مجالا خاليا بدون بنايات.

2 ــ موضع ممتاز وموقع استراتيجي :

لما تخطى المرابطون جبال الأطلس الكبير، لم يخطر ببالهم الاستقرارات في مدينة أغمات القريبة من وكر المصامدة والتي لا توفر امكانيات امتداد عمراني يستجيب لعاصمة في مستوى طموح الدولة الفتية. فوقع اختيارهم على مراكش لأنه مكان محايد يوجد بسهل في أسفل حادور طويل يمتد من الدير الى وادي تانسيفت، وعلاوة على توفر المساحات المنبسطة وحجارة البناء بجبل جليز والصخور الكلسية لانتاج الجير ورمال تانسيفت فإن تربة المنطقة خصبة جدا ويمكن تشكال التضاريس من استغلال السديمة المغدية بواسطة [1] لخطارات، وهي سواقي تحت أرضية تمكن من إيصال

المياه الباطنية الى وجه الأرض في مكان معين، وقد مكنت هذه التقنية أهل المدينة من الاستفادة من ثلوج الأطلس ومن التساقطات على طول السنة، ومن تزويد السكان والمنشآت الحضرية الاسلامية الحمامات والمساجد بالماء الشروب.

وإذا كانت مؤهلات موضع مراكش جد مهمة، فإن موقعه يزيد في الطين بلة، إذ يجعل المنطقة مفصلة عالمين مناخين وموفلوجيين مختلفين : العالم الصحراوي بتضاريسه الافريقية التي يغلب عليها الانبساط وبمناخه الجاف والعالم المتوسطي الاطلنطكي بتضاريسه الفتية المتنوعة المنظر والوحدات المكونة، الصغيرة الحجم نسبيا وبمناخه المتميز بتركز الأمطار خلال فصل الشتاء.

فقد أسست مراكش على طريق تجارية قديمة يرجح روض القرطاس امكانية وجود مدينة رومانية صغيرة بها سماها البعض بوكانوم هيمريوم ولو أنها توجد جنوب حدود الأمبراطورية الرومانية المعترف بها بالمعلومات التاريخية الراهنة والمسماة الليميس. وعلى كل مكن موقع مراكش الاستراتيجي المدينة من مراقبة الطرق الشمالية الجنوبية والشرقية الغربية، فالجبيلات بالشمال لا تشكل حاجزا طبيعيا في وجه التنقل كما تراقب مراكش الممرات الطبيعية الجبلية بالأطلس : تزن تلوات وتزن فدغات (قرب تزن تشكا الحالي) وتزن تاست وممر أركلنة وعبر هضاب إذا وتنان في الغرب كما تراقب المدينة الطريق المؤدية الى شمال المغرب عبر السراغنة وسهل تادلة الى فاس، الطريق التي ستنعت فيما بعد بطريق السلطان.

وبذلك تأهلت مراكش لاستقبال حبوب شونة المغرب بالشمال وتمور وحيوانات الصحراء ليصبح دورها الاقتصادي واشعاعها كبيرين.

تلك هي الظروف التي جعلت موقع وموضع وتشكالية مراكش تخرج عن قاعدة التصور الهدنسي التمدني المعمول به العصور الوسطى بالعالم وتقدم تنوعا فريدا من نوعه باحياءها ودورها : فهي المدينة الوحيدة بالمغرب المبنية في موضع غير محمي ومحصن طبيعيا، لا توجد بجواره عيون ولا مجاري مائية دائمة سطحية كما هو الشأن بمدينة نفيس أو سجلماسة أو فاس، ولا دير أو جبال محصنة كما هو الحال بأغمات أو دمنات... فهو واحة متعمدة ستجعل منها الحضارات هبة الأطلس الكبير وستأهلها امكانياتها الطبيعية والاستراتيجية لتصبح أكبر حاضرة بإفريقيا الشمالية.

3) ــ تمدين مراكش ناتج عن زواج الحضارات المحيطة :

تلخصت المدينة في النسيج المعماري المنحصر داخل الأسوار التي شيدت منذ عهد علي بن يوسف المرابطي، وقد طبع هذا المجال الحضري بمدينة سلطانية (قصر الحجر ثم القصبة)، وبرياضات القواد والأعيان، فبسكنه الشعبي ومجاله الحرفي بمميزات معمارية وتهيئة مجالية يمتزج فيها

التأثير الصحراوي الافريقي والتأثير المتوسطي الشرقي، فأعطاها هنداما خاصا جعل منها متحفا لتقاليد وتقنيات العالم المتحضر المعروف في ميادين البناء والحرف واعداد التراب.

ويمكن أن نؤكد بدون مجازفة أن مدينة مراكش هي أول مدينة مغربية حقيقية إذ أن كل المراكز الحضرية التي سبقتها اتسمت بطابع الجهوية المحدودة، فاس البالي بأزقتها الضيقة وساكنتها وحرفها تذكر بالشرق العربي والشرق الأقصى وتمزج المؤثرات المتوسطية الاغريقية الرومانية بالمؤثرات العربية الاسلامية، أغمات ودمنات تحمل البصمات التقنية لأهل الجبال الذين اعتنقوا الاسلام دون التفريط ببعض العادات والتقاليد القبإسلامية، سجلماسة مدينة تأثرت بالنمط الصحراوي الافريقي الذي نوعه مجيء الاسلام... ومرد كل ذلك إلى استفادة مراكش المدينة من ظروف طبيعية جيدة ومن ظرفية سياسية متميزة صادفت تكوين أكبر امبراطورية بشمال افريقيا امتدت من اسبانيا شمالا إلى السنغال ومالي جنوبا ومن المحيط الاطلنطكي غربا الى حدود مصر شرقا وأصبحت عاصمة الملك فترعرعت في ظل المرابطين والموحدين فاستقطبت النخبة الفكرية والأدبية وأمهر الصناع والحرفيين فصارت مدينة مختلطة الأجناس استفادت من تنوع التقنيات والخبرات المعروفة في المعمار وتصور تهيئة المجال والحرف جعل من الحاضرة الفتية منذ نشأتها معرضا ومتحفا للحرف والمعمار والمهن، تتجلى في أحياءها السكنية والحرفية بصمات الجهات الجغرافية الخاصة بشمال الأطلس الكبير وبجنوبه.

ولا زالت الأماكنية وتوزيع الأحياء في النسيج الحضري القديم تشهد بذلك وتبين أن مدينة مراكش المحاطة بالأسوار هي في الحقيقة مدن تشبه المدن القرى التي وصفها نييمر بالأندلس وسماها شتاتدورف Statdorf، فقد كان لكل حي استقلاله الذاتي، له تجهيزاته الاجتماعية الثقافية من مساجد الدروب والمسجد المركزي بالحي الذي توجد بجانبه ساحة عمومية لاقامة الحفلات الدينية والتقليدية وسقاءاته وحماماته وفراناته وباب مدخله الرئيسي الذي يغلق في الليل، وصلة الوصل بين الأحياء الشعبية هي مجال الأسواق الحرفية التي تجمع في ترتيب منسجم التعاضديات الحرفية أو الحنطات، ويتكون هذا المجال الاقتصادي من محورين طريقين متعامدين يلتقيان حول مسجد ابن يوسف بالقبة المرابطية المشهورة وينتهيان بأبواب الأسوار الرئيسية : باب دكالة غربا وباب الدباغ شرقا، باب الخميس شمالا، وباب السمارين جنوبا وينتهي الترتيب الذي يجعل قرب مسجد ابن يوسف المهن النبيلة والنظيفة (كتبيين وتجار الأثواب) ثم المهن القليلة التلوث فالأكثر تلوثا بمهن النار في أقصى جنوب وأقصى شمال (حدادين وقشاشين) وبالمهن الكيماوية والنارية في أقصى الغرب وأقصى الشرق (دباغين وفخارين).

ذلك كان شكل التنظيم المجالي الحضري الذي تمحور حول هذين الشريانين الحرفي التجاري بما نسميه المدينة الاسلامية العتيقة التي تمتد من باب الخميس الى ساحة جامع الفناء، كما أوحت

لنا به الوثائق القديمة والاماكنية، فدراسة الفنين المعمارين المتوسطي والصحراوي تم ذاكرة الآباء والأجداد، وضمنه نسجل تكتل الدور الفسيحة أو الصغيرة المبنية بالآجور الفخاري والجير والمحتوية على مستويين أو أكثر حول أو بالقرب من المركز ويتعلق الأمر بالأحياء السكنية المواسين القصور رياض العروس (درب تزكارين أساسا)، زاوية الحضر ازبزط قاعة ابن ناهض، بينما تظهر أحياء الصناع السكنية كشبه قرى، بدور من مستوى واحد غالبا فقيرة الآثار التاريخية على هوامش قرب الأبواب الرئيسية للأسوار، يوجد بها تداخل بين المهمة السكنية والمهمة الحرفية وتنقل بها مواثرة الحياة اليومية على مواثرة الأعمال الفلاحية : العمل من طلوع الشمس الى غروبها، ارتباط حجم الانتاج بطول أو قصر النهار وارتباط مداخيل الصناع بالتساقطات السنوية، فالجفاف يعني الكساد...

وتنتهي المدينة الشعبية جنوبا بساحة جامع الفناء (بكسر الفاء) أو الفناء (بفتح الفاء) أو الفنار حسب التأويلات والروايات. فمنهم من يعلل التسمية بفتح الفاء بما شهده قصر الحجر من مذابح عندما أقصى الموحدون المرابطين من الحكم ، أو يفسرها بتعليق رؤوس الثوار المملحة المقطوعة على جدران مساجد الساحة لتكون عبرة لمن أراد الخروج عن طاعة المخزن، ومنهم من يبررها بكسر الفاء بوجود ساحة فسيحة عارية من البناء تفصل المدينة الشعبية من المدينة السلطانية القصبة المحصنة بأسوارها وهوامشها روض الزيتون والقنارية، المدينة المتميزة بصميم هندسي تمديني يشبه الى حد بعيد ما كان معمولا به في المدن الرومانية : قصور ومكان للتعبد أي جامع رئيسي متمحورة حول شارع رئيسي ينتهي بأبواب فخمة تعبر على عظمة السلطة في جانبيه : باب أكناو خاصة.

ومنهم من يسميها بساحة الفنار ومرجع ذلك وجود أعلى صومعة بالمدينة، صومعة الكتبية. بالمكان تمكن مؤقت المدينة من اعلان دخول وقت الصلوات الليلية بواسطة مصباح (= فنار) يضعه المؤذن بواسطة حبل وجرارة بأعلى الصومعة فينطلق المؤذنون في جميع أرجاء المدينة بالمنادات على المصلين لصلاة المغرب، أو العشاء أو الفجر، أو الصبح.

4) ــ انسجام التنطيق التقليدي مع المناخ :

وجه تمدين مراكش بقانون وإيمان، مما جعل المدينة تضم تجمعا بشريا لا يعرف أي قطيعة بين ما هو روحي وما هو دنيوي، بين الفن الديني بالمساجد والأضرحة والفن العادي بالقصور ودور السكنى الميسورة، بين الوظيفة السكنية للمجال الحضري والوظيفة المهنية فقد استطاعت المنشآت الدينية أن تسوي الفوارق الاجتماعية بين الطبقات وأن تخلق في إطار الحي وعلى مستوى المدينة تعاضدا قد يذهب الى العصبية أحيانا «انصر ابن حومتك ظالما أو مظلوما» وعلى كل يتأخى أهل الحي والمدينة في المساجد والأضرحة دون أي اعتبار للثروة بفضل مساعدة الغني للفقير في الحي واختلاط أبناء الدرب كيفما كان مستواهم الاقتصادي.

فوحدة الحي تدور في فلك مسجد الجمعة للحومة والمنشآت التابعة له (مرحاض، ضريح، حمام، غسال، وسقاءة) وحوله تبنى المساجد الصغيرة كلما انطفأ صوت المؤذن ليبقى الآذان مسموعا في جميع أرجاء الحي والمدينة كما يلتف أهل الدرب في هذه المساجد الصغيرة، وتدور كل الحومات أو الأحياء الكبيرة في فلك مسجد ابن يوسف الذي تعطى فيه الدروس العلمية، ولا ينعكس مبدأ السلم على التصميم التمديني للأحياء والمدينة كلها فحسب، بل يتجلى حتى في رمز سبعة الذي تكنى به مراكش، فهي مدينة سبعة رجال، سبعة صنائع، سبعة أحياء، سبعة أبواب، ولعل رمز سبعة الذي يؤكد تنظيم المجال حول الماء (وضوء) والعبادة والأسواق، يوحي بما يلي :

س = سماء

ب = بحر

ع = علم

ت = تراب.

ويتجسد كذلك داخل وخارج الأسوار في تكاثر الجنان والرياضات والعراصي وحتى الروضات (مقابر) التي كانت جزءا لا يتجزأ من المجال الحضري مبدأ اعترف به التمدين العصري الذي يدخل ضمن تصنيفاته للمقابر في تهيئة المجال المعاصر المقابر الغابوية، المقابر المنتزه والمقابر مجالات خضراء الخ، .

وما هذه المساحات الخضراء التي لم يبق منها حاليا إلا أسماء واماكنية، وأحواض المياه الا انعكاسات لحظات خلود تتضاعف في المساجد والدور من خلال البركات والنافورات وحتى آفاق المدينة التي لبست حلة خضراء من البساتين والمساحات الخضراء النافعة ليعيش المدني في هدوء وسكون لا تعكره الا متعة خرير المياه، وكما وضع منبع الماء بالنافورة أو البركة وسط الدار وضع المسجد الذي يتوسطه الصحن في مراكز المدينة الحرفية. إلا أن تصميم هذه المدينة تصميم معكوس لما نسميه بالدار المغربية الأندلسية. ففي «الرياضات» توجد النافورة وسط الفناء تحيط بها «أحواض» من النباتات تفصلها ممرات أو «مشاوات» تؤدي الى الغرف أي البناء الذي يحيط بالدار، اما في المدينة فيوجد مسجد ابن يوسف في المركز تحيط به الأحياء السكنية والحرفية أي المجال المبني الذي تخترقه أزقة رئيسية متعامدة تجمع الصناع والتجار، وتحيط بالكل مساحات خضراء المتجلية في العراصي والجنانات أو الروضات.

وترتيب العناصر المكونة لتصميم المدينة هذا، الذي يناسب طبعا شكل تنظيم الحياة المدنية التقليدية، ضرورة تهدف الى احداث منيخ يعالج الافراط في كثرة الضوء والحرارة وجفاف الهواء في الصيف، فمن شأن التبخار الذي تحدثه نباتات المساحات الخضراء المتعددة أن يرطب الهواء، شيء

الزامي للرئتين، ويخفف من حرارة الصيف المفرطة إذ أن غراما واحدا متبخرا يبتلع 600 سعرة حرارية، شيء لا يعرف مدى أهميته إلا من عاش بمراكش وعانى من 19 يوما السنوية التي تهب فيها رياح الشرقي الجافة والحارة، وفي نفس السياق يحارب شكل الأزقة لهبان الصيف إذ أن الأزقة الضيقة والمغطاة من هنا وهناك في الدروب (صابات) وأزقة الأسواق المغطاة بالقصب تسمح باحداث تيارات هوائية تلطف المناخ في النسيج الحضري، علاوة على توفر كل حي على سقاءات ودوالي كانت تعطى السويقات بهدف التكثير من المنخيات بالمدينة لنفس الغرض.

ولا ينحصر دور المساحات الخضراء في تلطيف الهواء فحسب بل تمكن المواطنين اضافة الى ما تدره على المدينة من منتوجات بقلية وثمرية، من التمتع بالطبيعة والتنزه أيام العطل والأعياد بتشجيع من مالكي البساتين، وتضفي على النسيج الحضري حلة قشيبة جعلت سكان المدن المغربية الأخرى ينعتون مراكش بمدينة البهجة.

كل ذلك جعل من مراكش نموذج المدينة المغربية الأصيلة التي تراعي علاقة الانسان بالبيئة والتي تجمع ايجابيات تجارب الشعوب المحيطة في ميدان المعمار وتهيئة المجال الحضري النموذج التي تعبته المدن المغربية الأخرى في تطورها أو في بناءها.

من مسائل التعمير واستعمال المجال في العهدين المرابطي والموحدي

ذ. المجدوبي عبد العزيز
كلية الآداب ـــ مراكش

من بين القضايا التي تأخذ باهتمام الباحثين خاصة في الجغرافية التاريخية تأتي مسألة التعمير واستعمال المجال من طرف السكان والدولة.

وقد ارتأيت أن تنصب مداخلتي على هذا الموضوع فيما يخص مراكش خلال حكم الدولتين المرابطية والموحدية. وسوف أتناوله من زاويتين :

1 ـــ مرتكزات التعمير.

أ) الاشكالية العقارية

ب) السكان

ج) التوسع الحضري لمراكش وعلاقته بمواد البناء : مراحل التعمير.

2) مجالات مراكش المختلفة ودلالتها.

وقبل أن أنتقل الى الموضوع، أرى من الواجب أن أوضح الاطار الزمني الذي تقاربه المداخلة. يبتدىء من 462هـ (1070م) سنة إنشاء المدينة، وينتهي بـ 668هـ (1269م) سنة انتهاء حكم الموحدين. وهكذا تمتد فترتنا على 200 سنة تقريبا، وهي فترة كافية لحدوث تغيرات مجالية أساسية داخل بنية عاصمة الدولتين مراكش.

1 ـــ مرتكزات التعمير بمراكش خلال حكم المرابطين والموحدين.

1ـــ1 : الاشكالية العقارية :

تعتبر المشكلة العقارية من بين المشاكل التي تعترض الباحث اليوم في مجال التعمير والبناء، إذ يجب تحديد مالك أو مالكي الأرض ليتسنى فهم الانعكاسات والمنازعات التي تطرأ فيما بعد. وعندما انكببت على دراسة هذه النقطة بالنسبة لمدينة مراكش، صادفت روايات مختلفة حول ملكية الأرض التي أقيمت فوقها المدينة فيما بعد.

1ـــ1ـــ1 : فحسب ابن عذاري أسست المدينة فوق منطقة حدودية بين قبيلة هيلانة وقبيلة هزميرة، وهي منطقة بدون مالك، خارجة عن نفود القبيلتين. وفي هذا يقول : «... وفي هذه السنة ضاق المجمع بمدينة أغمات وريكة والخلق فيها، فشكا أشياع أوريكة وهيلانة بذلك إلى الأمير أبي بكر بن عمر، مرة بعد أخرى إلى أن قال لهم : عينوا لنا موضعاً أبني فيه مدينة إن شاء الله... اجتمع أشياخ قبائل المصامدة وغيرهم فوقع تدبيرهم أن يكون موضع تلك المدينة بين بلاد هيلانة وهزميرة»[1]. وانسجم صاحب الحلل[2] مع نفس الرواية.

(1) ابن عذارى : «كتاب البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب». طبعة تطوان 1963.

(2) «الحلل الموشية في ذكر أخبار الحضرة المراكشية» لمؤرخ مجهول، طبعة الرباط 1936.

1—1—2 : أما الإدريسي فينسب ملكية الأرض إلى بعض سكان أغمات ملكية خاصة وفي هذا يقول : «... وشمال هذه المدينة — أغمات — وعلى 12 ميلًا منها مدينة بناها يوسف ابن تاشفين في صدر سنة 470 هـ بعد أن اشترى أرضها من أهل أغمات بجملة أموال.»(3).

ويذهب صاحب القرطاس إلى نفس الغاية عندما يؤكد «وفيها. سنة 454هـ. اشترى ابن تاشفين موضع مدينة مراكش ممن يملكه من المصامدة»(4).

1—1—3 : وتختلف رواية المؤرخين المتأخرين بحيث رد صاحب المعجب(5) ملكية الأرض إلى عبد أسود، فيما سجل الناصري(6) تواجد تجمع قروي بربري بنفس المنطقة قبل بناء مراكش. ولم يفت دوفردان(7) أن يتقدم بافتراض استنبطه من حالات مشابهة لنشأة المدن، ويقوم هذا الطرح على أن المنطقة كانت محايدة ينعقد فوقها سوق أسبوعي يجمع بين سكان الجبال والسهل في إطار نشاط تبادلي تكاملي بين اقتصاد البلدين. وقد أيد بول باسكون(8) هذا الإفتراض. ويلتقي الباحثان مع التفسير الذي جاء به الأستاذ التوفيق هذا الصباح والذي يعتمد على أن مراكش تدل على المكان المقدس الذي وقع فيه اتفاق ذو صفة قدسية (الحرمة).

خلاصة : رغم أن الروايات متباينة، فإنه من المؤكد أن أراضي مراكش أصبحت ملكاً للدولة الناشئة تتصرف فيها كيفما شاءت ووقتما شاءت من موقع السلطة. توحد المالك وبالتالي توحد التصرف.

1—2 : السكان.

1—2—1 : افتراضات المؤرخين

لم يكن عدد سكان مراكش في البداية يتجاوز بضعة آلاف. ومع تحولها من معَسْكر للخيام إلى عاصمة للدولتين، توافد على مراكش عشرات الآلاف من السكان طمعاً في العمل والتجارة والقرب من السلطان. وفي هذا يقول صاحب «الروض المعطار» «وعظمت مراكش في الدولتين، فكانت أكبر مدن المغرب الأقصى»(9) ويصفها الحسن بن الوزان قائلًا: «مراكش مدينة كبيرة

(3) الادريسي : «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» ترجمة دوزي (الجزء الخاص بوصف افريقيا والأندلس).

(4) ابن أبي زرع : «كتاب الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ فاس». طبعة الرباط 1936.

(5) عبد الواحد المراكشي : «المعجب في تلخيص أخبار المغرب». طبعة القاهرة 1949.

(6) الناصري أحمد بن خالد السلاوي : «كتاب الاستقصا في أخبار دول المغرب الأقصى». طبعة الدار البيضاء 1955.

(7) G. Deverdun : «Marrakech des origines à 1912». Rabat 1966.

(8) P. Pascon : «Les Hauz de Marrakech». Rabat 1977.

(9) ابن عبد المومن الحميري : «كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار». ترجمة ليفي بروفنصال ليدن 1938.

جدا، ومن بين المدن الرئيسية في العالم»[10] وقد احتسب دوفردان مساحتها داخل الأسوار في عهد التوسع الكبير فتكلم عن 650 هكتاراً منها 606 لمراكش المرابطية و 44 هكتاراً لقصبة المنصور»[11].

وقد أدى هذا التحول إلى تزايد سكان العاصمة بحيث قال الحسن بن الوزان في وصف إفريقيا: «وكانت تقطنها مائة أسرة وأكثر في حياة علي بن يوسف»[12] أما طوريس[13] فقد ذهب إلى مائة وخمسين ألف نسمة في العهد الموحدي. ويظهر أن التقديرين يقربان من الوقائع إذ أن الوثائق التاريخية تقدر سكان فاس بـ 000 80[14] في نفس الحقبة. وقد ترك بعض المؤرخين العنان لتقديراتهم فذهب المقري الذي وصف مراكش ببغداد الغرب إلى 500.000 نسمة، وتكلم علي باي عن 700.000 نسمة لكننا نرجح تقديرات الحسن بن الوزان وطريس لأن عدد سكان مراكش داخل الأسوار اليوم لا يتجاوز 260.000 نسمة ومع ذلك تشكو من اكتظاظ مخيف

1—2—2 : وقد تطور عدد سكان مراكش استجابة لتطور وظائفها، فإلى جانب كونها عاصمة الإمارة والخلافة، أصبحت مراكش قاعدة تجارية جلبت نحوها كل الإهتمامات وسرقت الأضواء من المراكز المجاورة كأغمات ونفيس بل قصدها أعيان المدينتين للتقرب من السلطان، واتجه نحوها الحرفيون والعلماء والأطباء والفقهاء. وشعت حضارتها لتغمر إفريقيا السوداء جنوباً وأقطار إفريقيا الشمالية شرقاً.

وللدلالة على توسعها المستمر نسوق الخبر التالي. أمر أبو يعقوب يوسف الموحدي قبائل هزميرة وصنهاجة بالمجيء إلى مراكش قصد الاستقرار بها، لكنه لم يجد مكاناً فارغاً بالمدينة يضعه تحت تصرفها. فأمر ابنه أبا يوسف يعقوب بايجاد حل لهذا المشكل وتوطين القبيلتين، لذا اضطر هذا الأخير إلى هدم السور في الجهة الجنوبية الغربية للمدينة سنة 1183 م وتحرير 10 هكتارات وتسليمها لأبناء القبيلتين[16] (حي سيدي ميمون وما جاوره حالياً: أنظر الخريطة).

وقد اتسعت المدينة على حساب البساتين والبحائر. وفي هذا يقول صاحب الإستبصار : «ومدينة مراكش اليوم أعظم مدن الدنيا بهجة وجمالًا... وكانت بحائر عظيمة فيها قصوراً وجامعاً وأسواقاً وفنادق»[16].

(10) J. l'Africain (الحسن الوزان) «Description de l'Afrique» traduction E. Epaulard. Paris 1956.

(11) G. Deverdun. op. Cité

(12) الحسن الوزان : المصدر السابق.

(13) Torres : «Histoire des cherifs et des royaumes du Maroc, de Fes, de Taroudant et autres Provinces» ورد ذكره عند G. Deverdun

(14) Le Tourneau : «Fes avant le protectora» Cada 1949

(15) G. Deverdun : op. cit

(16) «الاستبصار في عجائب الأمصار» ترجمة فانيان. قسنطينة 1899.

ورغم ذلك حافظت على التوازن البيئي بحيث جلبت إليها المياه بواسطة الخطارات وانتشرت داخلها وخارجها المجالات الخضراء والمغارس، مما دفع صاحب الروض المعطار إلى القول: «وهي أكثر بلاد المغرب جنات وبساتين وأعناباً وفواكه. وأكثر شجرها الزيتون فيها منه ما تستغني به عن غيرها من البلاد.»(17).

1ـــ3 : التوسع الحضري لمراكش وعلاقته بمواد البناء.

1ـــ3ـــ1 : في البداية أنشأ المرابطون معسكراً ترامت خيامه وأحيطت بالزرب الشوكي بحيث قال صاحب البيان: «فسكن ـــ أي ابن تاشفين ـــ الموضع بخيام من الشعر، وبنى فيه مسجداً للصلاة»(18) وقد استقر المرابطون في مكان مراكش المنبسط الذي يضمن لهم وبهائمهم حرية التنقل. يقول صاحب الحلل: «فانتقلوا إلى تلك الرحبة فوجدوا في فحصها من المرج الخصيب للجمال والدواب ما غبطهم بها، ويمثل السدر والحنضل أهم نبات المنطقة»(19).

1ـــ3ـــ2 : ولم يبن المرابطون مخيما مؤقتاً بل قرروا البقاء في المنطقة وتحويله إلى مدينة. ويتضح ذلك من عزم أبي بكر بن عمر على إقامة قلعة صلبة هي قصر الحجر. يورد صاحب البيان : «وفي سنة 462 هـ 23 رجب ابتدىء أساس مراكش وذلك قصر الحجر. وشرع الناس في بناء الدور دون سور، وفي ذلك اليوم بعينه كان ركوب الأمير أبي بكر وإخوته وجميع محلته من أشياخ المصامدة والفعلة من البنائين وغيرهم. فابتدأ العمل في الأساس بمشاركة الأشياخ فأعانوا على البناء بالمال والرجال. فقام سور قصر الحجر في نحو ثلاثة شهور.»(20)

ثم اتسعت المدينة وظهرت الضرورة لتسويرها في عهد علي بن يوسف. أصبحت مراكش عاصمة الإمبراطورية المرابطية ثم الموحدية فكثرت بناياتها وتعددت مرافقها الإقتصادية والإجتماعية، وتجملت بالمآثر الفنية والروائع المعمارية التي شدت أنفاس المعاصرين فخلدوها في كتاباتهم التاريخية والأدبية. ونذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

* صومعة الكتبية.
* البيمارستان (دار الفرج).
* مدينة تمراكشت الموحدية جنوب مراكش بقساريتها الرائعة.
* جامع المنصور بقصبة مراكش ومقصورته إضافة إلى البساتين والمساجد

---

(17) ابن عبد المومن الحميري : المصدر السابق.

(18) ابن عذارى : المصدر السابق.

(19) «الحلل الموشية» : المصدر السابق.

(20) ابن عذارى : المصدر السابق.

ويلخص صاحب الروض المعطار ذلك بقوله: «وعظمت مراكش في الدولتين، فكانت أكبر مدن المغرب الأقصى. وعظمت تجارتها وتنافس الناس في البناء فيها وبُنيت فيها الفنادق والحمامات وفيها قيسارية عظيمة»(21). في مراكش المرابطية انشطرت الحياة اليومية إلى شطرين :

ـ شطر سياسي يُمارس نشاطه في قصر الحجر (دار الخلافة) وما يحيط بها من مرافق السلطة والحكم.

ـ شطر شعبي يتحلق حول مسجد ابن يوسف، ويتمثل في المسجد الجامع نفسه وفي الأسواق، ثم بعض الأحياء التي ورد ذكرها في بعض المصادر كحارة السورة ودشر تودغة، وأسوال (انظر الخريطة). لكن مع الموحدين، كبرت المدينة وظهرت أحياء جديدة بمختلف جهاتها كالسبتين شرقاً والقصور غرباً (انظر الخريطة) «وهكذا اتصلت عمارات مراكش وحسن قطرها» (الروض المعطار) وانتقل مركز الخلافة إلى الجنوب حيث بنيت تمراكشت وأصبحت تنافس المدينة الأم في الصدارة. واستقلت هي الأخرى بكل مراجعها.

1ـ3ـ3 : موارد البناء التي استعملت في مراكش

1ـ3ـ3ـ1 : تملك مراكش أرضية طينية جيدة تصلح قاعدة لانتاج مواد البناء، كما تتوفر على محاجر الجير على مسافة قريبة، إلى جانب الغابات الجبلية على بضع عشرات الكلمترات إلى الجنوب. وتوجد بشمال المدينة كديتان حجريتان جبل (ايجليز) جليز وجبل العبيد، تستخرج منها الحجارة للبناء وهكذا تنوعت مواد البناء واستعملت كلها في إعطاء مراكش رونقها وشكلها المعماري المتميز.

1ـ3ـ3ـ2 : واستغل قاطنو مراكش ما توفره طبيعة المنطقة في إقامة بنايات المدينة واعتمدوا على الطين والحجارة ونسوق فيما يلي مجموعة من النصوص لتأكيد ذلك.

* قال ابن عذاري : «فذكروا أن أول دار بنيت بمراكش من ديار لمتونة دار توروزكين بن الحسن الكائنة بموضع أسدال بناها بالطوب وجددها وهي الآن ظاهرة على المقر الموضوع المذكور إلى وقتنا هذا»(22).

* وقال الإدريسي : «وليس في موضع مدينة مراكش الحجر البتة إلا ما كان من هذا الجبل (ايجليز) وإن بنائها بالطين والطوب والطوابي المقامة من التراب. وهي في وطاء من الأرض ليس حولها شيء من الجبال إلا جبل صغير سمي ايجليز. ومنه قطع الحجر الذي بني منه قصر أمير المؤمنين وهو المعروف بدار الحجر»(23) وقال ابن أبي زرع: «... فسكن الموضع بخيام من الشعر، وبنى فيه

(21) ابن عبد المومن الحميري : المصدر السابق.
(22) ابن عذارى : المصدر السابق.
(23) الادريسي : المصدر السابق.

مسجداً للصلاة وقصبة صغيرة لاختزان أمواله وسلاحه ولم يبن على ذلك سوراً. وكان رحمه الله، أي يوسف بن تاشفين، لما شرع في بناء المسجد يحتزم ويعمل في الطين والبناء مع الخدم تواضعاً منه وتورعاً».(24)

* وقال الحسن بن الوزان : «كان لها أي مراكش ــ أربعة وعشرون باباً وجدار سور غاية في الجمال والصناعة مبني من اللبن الكلسي ومن رمل غليظ مخلوط بالجبص»(25).

ويلخص لنا ابن خلدون المواد التي استعملت في البناء وكذلك تقنية البناء في النص التالي: «... منها البناء بالحجارة المنجدة، يقام بها الجدران، ملصقاً بعضها إلى بعض بالطين والكلس الذي يعقد معها ويلتحم كأنه جسم واحد. ومنهاالبناء بالتراب خاصة يتخذ لها لوحان من الخشب مقدران طولًا وعرضاً فينصبان على أساس وقد بوعد بينهما بما يراه صاحب البناء في عرض الأساس، ويوصل بينها بأذرع من الخشب يربط عليها بالحبال والجدر، ويسد الجهتان الباقيتان من ذلك الخلاء بينهما بلوحين آخرين صغيرين ثم يوضع فيه التراب ثانياً وثالثاً حتى يمتلىء ذلك الخلاء بين اللوحين وقد تداخلت أجزاء الكلس والتراب وصارت جسماً واحداً ثم يعاد نصب اللوحين»).(26)

بينما يصف لنا جان موكي في رحلة إلى المغرب Voyage au Maroc مراكش قائلًا: «جل المنازل العادية بها منحدرة، صغيرة ومبنية بطريقة بسيطة بالطين والجير لكن منازل القواد والسادة وأسعة ومبنية بالحجارة ومسورة».

خلاصة :

نستخلص من مختلف النصوص الواردة أعلاه أن مواد البناء متنوعة لكن غلب عليها الطين والطوب نظراً لوفرتها بالمنطقة وللاءمتها لمناخ الجهة التي توجد بها مراكش. ولم يستعمل الطين وحده بل أضيفت إليه مادتا الرمل والجير ليصبح أكثر صلابة ومقاومة. والطين هو المادة الأولية المستعملة. أما منازل السادة، فقد استعملت فيها الحجارة المنجدة والتي حملت من جبل ايجليز شمال المدينة. ويلاحظ المؤرخون المحدثون أن المرابطين والموحدين اعتمدوا في بناء مراكش على تقنيات نقلوها من الجنوب الصحراوي الإفريقي ومن الشمال الأندلسي فاعتمدوا التبليط والزخارف الكتابية والنباتية والنحت المخرم والفستقيات.

---

(24) ابن أبي زرع : المصدر السابق.

(25) الحسن بن الوزان : المصدر السابق.

(26) عبد الرحمان بن خلدون : «المقدمة» القاهرة 1936.

1ـ4 : مـراحـل التعمـيـر :

يتضح من خلال الخريطة التي بين أيديكم أن تعمير مدينة مراكش خلال العهدين المرابطي والموحدي مر بـ 4 مراحل :

1ـ4ـ1 : تمثلت المرحلة الأولى في إقامة معسكر الخيام المرابطي وبناء قصر الحجر حيث استقرت دار الخلافة. وتزامنت هذه المرحلة مع أبي بكر بن عمر ويوسف بن تاشفين الذي اتجهت همته إلى فاس أكثر من مراكش.

1ـ4ـ2 : أما المرحلة الثانية فتوافق عهد علي بن يوسف الذي أعطى للمدينة شخصيتها الأولى بتجديد مجالها داخل سور بناه بعد استشارة العلماء، ثم تشييد المسجد الجامع بعيداً عن دار الخلافة والذي تركزت حوله الأسواق التجارية. وخلال هذه المرحلة ظهرت مجموعة من الأحياء السكنية والحرفية كحارة السورة ودشر تودغة وأسوال، واستقر الدباغون شرق المدينة بالقرب من واد ايسيل وكذلك صناعة الفخار والمعاصر.

1ـ4ـ3 : المرحلة الثالثة وهي التي بدأت مراكش تزدهر خلالها مع عبد المؤمن الموحدي وابنه أبي يعقوب يوسف. ونسوق النص التالي للإدريسي لأن فيه البيان الشافي «مدينة مراكش في هذا الوقت من أكبر مدن المغرب الأقصى لأنها دار إمارة لمتونة ومدار ملكهم، وكان بها إعداد قصور لكثير من الأمراء والقواد وخدام الدولة. وأزقتها واسعة ورحابها فسيحة ومبانيها سامية إذ كبرت المدينة وأصبحت في مصاف المدن الكبرى، واكتسبت شخصيتها وازداد عدد سكانها وامتلأت الفراغات المتواجدة بين أحياءها السكنية حتى ضاقت بأهلها وأصبحت تشكو الإكتظاظ».[27]

1ـ4ـ4 : ويمثل بناء تمراكش (قصبة الموحدين) جنوب مراكش على يد أبي يوسف يعقوب الموحدي (يعقوب المنصور) المرحلة الرابعة بحيث أنشأ له مدينة متاخمة لمراكش المرابطين ومدها بكل ما تحتاجه من مرافق سكنية وإدارية واقتصادية واجتماعية. وتمراكشت مدينة بأسوارها وأبوابها ومسجدها تتكون من ثلاث وحدات.

* دار الخلافة وملحقاتها وبها 12 قصراً.
* المشور أو الاسَراك.
* المسجد وملحقاته وما يحيط به من منشآت اقتصادية.

وتتصل هذه الأقسام الثلاثة بواسطة مجموعة من الأبواب.

---

(27) الادريسي : المصدر السابق.

2 ـ مجالات مراكش المختلفة ودلالتها :

نظراً لأن الزملاء الذين سيتناولون الكلمة من بعد سيتطرقون بتدقيق لهذه المجالات سأحاول أن أكون مختصراً.

2ـ1 : المجال السياسي :

لا شك أن دار الخلافة هي رمز السلطان والسيادة وبالتالي شكلها ورونقها يعكس مكانة السلطة السياسية. منذ الإنطلاق فكر المرابطون في بناء دار الإمارة فكانت قصر الحجر، والذي اختلف عن بنايات مراكش الأولى بحيث استعملت في بنائه الحجارة بدل الطين وأحيط بسور حتى أصبح ممتنعاً، في حين ابعدت الأحياء السكنية والمرافق الإقتصادية إلى الشرق منه.

استعمل الموحدون في البداية نفس القصر لكنه لم يعد ينسجم مع قوتهم وانتشار إمبراطوريتهم على الكثير من البلاد، وتكاثر حاشيتهم. أقاموا مدينة أخرى جنوب مراكش هي مدينة الإمارة حملت اسم تمراكشت وزينوها بمختلف البناءات والقصور. وقد ترك المؤرخ العمري وصفاً جيداً لهذه المدينة في مسالك الأبصار يقول العمري: «وبها قصر الخلافة بناه المنصور يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن، اختطها خارج مراكش خاصة به وخواصه، وتعرف بتمراكشت. قال ابن سعيد ولا أدري كيف أصل إلى غاية في الوصف، أصف به ترتيب هذه المدينة المحدثة، فإنها من عجائب همات السلاطين، ذات أسوار ضخمة وأبواب عالية، وبها قصر الخلافة وبه ديار عظيمة، منها دار البلور ودار الماء. وكل دار منها لا تخلو من المياه والبساتين العجيبة والمناظر المرتفعة المشرفة على بسائط مراكش(28) والقصبة المنصورية مدينة مستقلة بكل مرافقها الإقتصادية والإدارية منها تنطلق الأوامر وإليها تعود الجبايات. قصبة ممتنعة كذلك بأبواب ضخمة وأسوار عالية وساحات كبرى، قصبة تمثل عظمة السلطة السياسية. ومن الملاحظ أنها كالقصبة المرابطية بنيت بعيداً عن مساكن الشعب، وأحيطت بالأسوار، وأصبحت في عالم الغيب بالنسبة للإنسان العادي البسيط. وقد استمرت قصبة المنصور تلعب دور قطب المجال السياسي حتى بعد انهيار الموحدين.

وقد اجتذبت المدينة الجديدة إليها الإهتمام واستأثرت بالنفوذ لأنها مقر الحكم والسلطان، وبالتالي أصبحت مراكش الأولى ثانوية تقريباً. وأهم ما يميز المجال السياسي هو انعزال دار الخلافة بعيداً عن الأوساط السكنية العادية واحتمائها داخل أسوار من تراب أو من حجر وهو المجال الذي تمارس فيه الأمور السياسية وتتخذ القرارات المهمة وتدبر وتحاك المؤامرات.

---

(28) فضل الله العمري : «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار». ورد ذكره عند دوفردان.

2ـ2 : المجـال الـديني

يتمثل المجال الديني في المساجد. وعندما نطل على المساجد خلال هذه الفترة نخرج بالخلاصات التالية :

2ـ2ـ1 : المسجد الجامع الرئيسي بمراكش

عرف هذا المسجد عدم الإستقرار. ففي العهد المرابطي لعب مسجد بن يوسف دور الريادة لأنه كان الوحيد، فيه يجتمع الناس لصلاة الجمعة ثم لتأكيد ولائهم للدولة الحاكمة، ولما استولى الموحدون على الحكم أقاموا مسجداً جامعاً آخر هو الكتبية وفي هذا يقول الإدريسي: «وكان بها جامع بناه أميرها يوسف بن تاشفين فلما كان في هذا الوقت وتغلب عليها المصامدة وصار الملك لهم تركوا ذلك الجامع عطلًا مغلق الأبواب ولا يرون الصلاة فيه، وبنوا لأنفسهم مسجداً جامعاً يصلون فيه»[29] ويرجع بناء الكتبية لعبد المؤمن وابنه أبي يعقوب.

وعندما كبرت المدينة واكتظت بالسكان انتقل مركز الخلافة إلى جنوب المدينة حيث شيدت تمراكشت ضمت القصبة من بين مبانيها مسجداً جامعاً ثالثاً سرق الأضواء من الكتبية وأصبح يلعب الدور الأول على المستوى الديني لأن الخليفة يصلي فيه الجمعة.

لكن سرعان ما استرجع جامع ابن يوسف مكانته بعد انهيار الدولة الموحدية.

2ـ2ـ2 : مساجد الجانب الشرقي

لم تذكر الوثائق التاريخية أسماء هذه المساجد ولكن احتفظت لنا بأهميتها الدينية خاصة في العهد الموحدي عندما ازدهرت الصوفية بمراكش مع الولي الصالح أبي العباس السبتي وآخرين وحملت هذه الجماعة اسم أهل الصفة.

2ـ2ـ3 : المساجد العادية

وهي المساجد التي توجد بالأحياء وتقام فيها الشعائر الدينية اليومية.

خلاصة

المجال الديني مهم نظراً لتنوع عناصره من جهة وللدور الكبير الذي تلعبه المساجد في حياة الناس. فالمسجد مكان لأداء الشعائر الدينية وملتقى للمناظرات الدينية والسياسية ومكان لتواجد المعارضة السياسية للحكم ومنطلق الثورات.

---

(29) الادريسي : المصدر السابق.

2ـ3 : المجـال الإقتصـادي :

2ـ3ـ1 : مركـز صنـاعي

عرفت مراكش خلال العهدين المرابطي والموحدي نشأة مجموعة من الصناعات والحرف. فقد تجمعت الصناعات التي تحتاج إلى الماء والمكان الواسع في الناحية الشرقية. ونذكر منها الدباغة، الفخارة، إلى جانب عدد من المعاصر (انظر الخريطة) ولم يتغير مكان هذه الصناعة لحد الآن بسبب الروائح الكريهة إذ يستحسن أن يكون موقعها تحت الهواء والذي يهب من الغرب في اتجاه الشرق في غالب أيام السنة، كما ذكرت بعض المصادر أن مراكش توفرت على منشآت لصناعة الصابون والسكر. وإلى جانب هذه الصناعات توفرت بالمدينة ولا شك صناعات أخرى لازمة لحياتها وملازمة لمركز الخلافة كالتجارة والحدادة والحياكة والبناء...

2ـ3ـ2 : المجـال التبـادلي

2ـ3ـ2ـ1 : الفنـادق

أشارت المصادر إلى تواجد ثلاثة فنادق بمدينة مراكش هي فندق الأرنجة قرب مسجد ابن يوسف، فندق السكر قرب باب نفيس (انظر الخريطة) فندق المقبل الذي هبط فيه أبو العباس السبتي لما قدم إلى مراكش(30) وكانت الفنادق بمثابة أماكن يستقر بها التجار الزائرون لمراكش خلال المدة التي تقضيها تجارتهم، وفي نفس الوقت تعتبر مكاناً لإبرام الصفقات وترويج البضائع، والفندق كذلك مخزن لوضع السلع قبل ترويجها ومربط لبهائم النقل ووسائله وبيوت لإسكان التجار الوافدين ومن الممكن أن تضم مراكش بين أسوارها فنادق أخرى أغفلتها المصادر الشحيحة التي نتوفر عليها.

2ـ3ـ2ـ2 : الأســواق

يقول الإدريسي «ومدينة مراكش في هذا الوقت من أكبر مدن المغرب الأقصى.... وأزقتها واسعة ورحابها فسيحة ومبانيها سامية وأسواقها مختلفة، وسلعها نافقة» ويزيد قائلًا: «... وكانت أكثر الصنع في مراكش متقبلة عليها مثل سوق الدخان والصابون والصفر والمغازل».(31)

إذن تمثل الأسواق الفضاء التبادلي لمراكش حيث يلتقي البائع والمشتري. وكان من العادة أن تكون الأسواق التجارية الرئيسية مجاورة للمسجد الجامع. وهكذا انتقل المركز التجاري للمدينة مع انتقال المسجد الجامع من وسط المدينة (مسجد ابن يوسف) إلى غربها (مسجد الكتبية) إلى جنوبها (مسجد قصبة المنصور) ليرجع من جديد إلى وسط المدينة حول مسجد ابن يوسف وكلما انتقل الرواج من جوار مسجد إلى مسجد آخر أصاب المركز التجاري الاول كساد كبير في حين

(30) عباس بن ابراهيم المراكشي : الإعلام لمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام». فاس 1936.

(31) الادريسي : المصدر السابق.

تمتع المركز الجديد بالرواج. وقد ذكرت لنا المصادر أسماء بعض الأسواق مثل السراجين والبرادعيين والقشاشين، والقراقين، والقيسارية حيث تباع الأثواب. وهذه هي الأسواق المهاجرة في حين ذكرت أسواق أخرى لها شخصيتها وتخصصها كسوق الحنطة وسط المدينة وسوق البهائم خارج المدينة في الجنوب الغربي بينما يمثل سوق الكتبيين الميزة الثقافية والتعليمية للمدينة.

2ـــ3ـــ2ـــ3 : توفرت الأحياء على فضاء تبادلي بسيط تصلح لتغطية الحاجيات اليومية ويتمثل في الدكاكين.

2ـــ4 : المجـال التعليـمي

عرفت مراكش ازدهار العلوم والفلسفة وكانت مساجدها مكاناً للمساجلات الفقهية والمناظرات. كما استقطبت العلماء والأطباء والمهندسين والفلاسفة. ازدهر بها العلم الشرعي والوضعي ولعبت مساجدها دور المدارس الحالية والجامعات. وكانت القصبة السلطانية مكاناً ازدهرت فيه المدارس ونذكر منها مدرسة القصبة، القبة المنصورية، مدرسة الأمراء، نادي طلبة الحضر.

وإلى جانب المدارس كثرت الخزانات الخاصة والتابعة للدولة كما ازدهرت حرفة الكتبيين وأنشيء لها حي خاص تم ترصيفه لأهميته. وتطورت العلوم الرسمية وبجوارها العلوم الصوفية. واستقطبت كل واحدة مدرسين وطلاباً.

2ـــ5 : المجـال الإجتـماعي

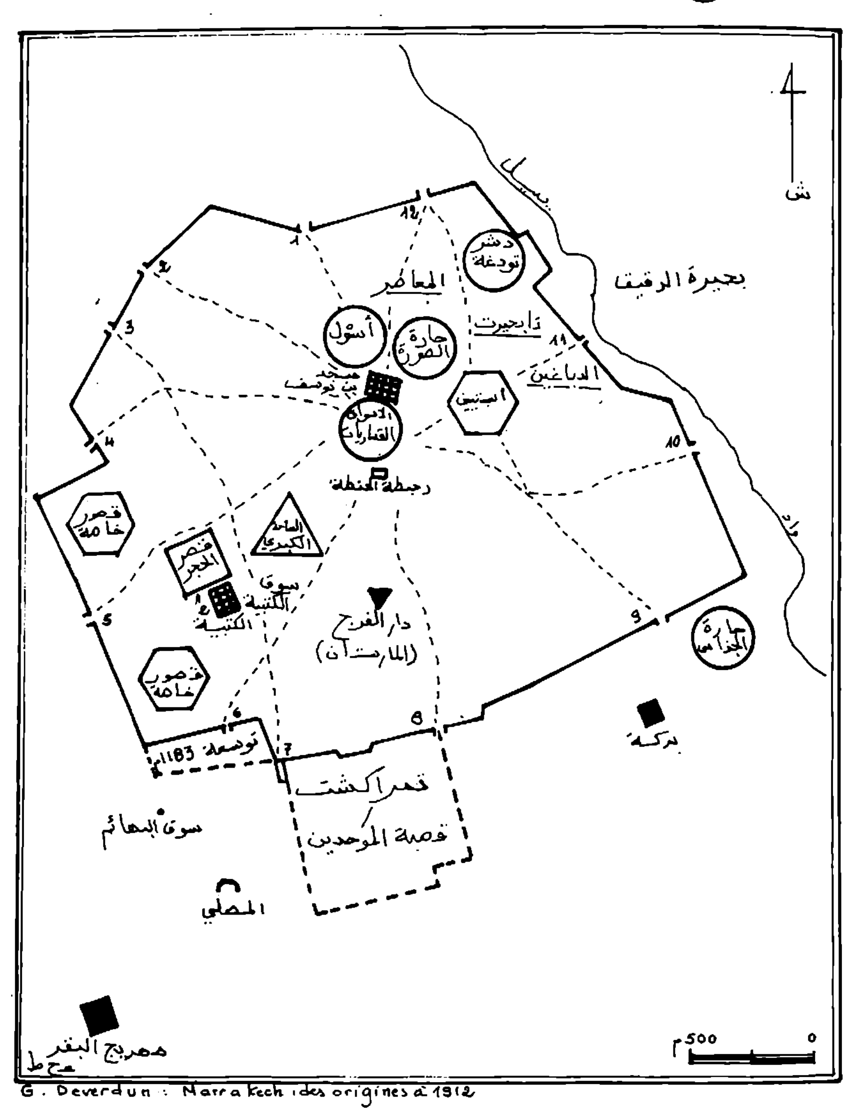
وفرت مراكش لسكانها بمساعدة الدول الحاكمة الخدمات الاجتماعية المختلفة فنقلت المياه من خارج المدينة وشيدت الصهاريج وغرست الحدائق (أكدال) وبني بيمرستان (دار الفرج) وهو مستشفى يقول عنه المراكشي في المعجب «وبنى يعقوب المنصور بمدينة مراكش بيمارستان ما أظن في الدنيا مثله وذلك أنه تخير ساحة فسيحة بأعدل موضع في البلاد وأمر البنائين بإتقانه على أحسن الوجوه... وأمر أن يغرس فيه مع ذلك من جميع الأشجار والمشمومات والمأكولات، وأجرى فيه مياهاً كثيرة تدور على جميع البيوت... ثم أمر له من الفرش النفيسة من أنواع الصوف والكتان والحرير والأديم... وأقام فيه من الصيادلة لعمل الأشربة والأدهان والأكحال وأعد فيه للمرضى ثياب ليل ونهار للنوم ولم يقصر على الفقراء دون الأغنياء بل كل من مرض بمراكش من غريب حمل إليه وعولج إلى أن يستريح أو يموت»(32) هذه هي النقط التي وددت أن أطرحها أمامكم اليوم في هذه العجالة.

وشكرا على تفضلكم بالإستماع.

---

(32) عبد الواحد المراكشي : المصدر السابق.

التوسع الحضري لمراكش في العهدين المرابطي والموحدي



G. Deverdun : Marrakech des origines à 1912

المفتاح

أحياء مرابطية

أحياء أضيفت في العهد الموحدي

الساحة الكبرى (جامع الفنا فيما بعد)

مباني دينية

ضرايح

الدباغين أسماء أحياء صناعية

الطرق والأزقة داخل المدينة

12 سور المدينة مع الأبواب

أبواب مراكش

1 باب تاغزوت
2 - الموصوفة
3 - دكالة
4 - الرخاء
5 - المخزن
6 - الشريعة
7 - نفيس (الرب)
8 - الصالحة
9 - أغمات
10 - ايلان (هيلانة)
11 - الدباغين (الدباغ)
12 - فاس

عح ط

من أودغست الى مراكش :
قراءة في تاريخ المرابطين
من خلال وثائق اركيولوجية

ذ. الموساوي العجـلاوي
كلية الآداب ــ مراكش

تمهـيد :

إن قراءة تاريخ الدولة المرابطية، يقتضي بالاساس الرجوع الى تلك المراحل الاولى التي نضجت فيها ظروف داخلية وأخرى خارجية والتي ستؤدي الى بروز قوة المرابطين وتأسيسهم لما يعرف بالدولة او الامبراطورية المرابطية، ولا شك أنه وراء ما يحكيه الاخباريون والرحالة العرب من قصص حول صنهاجة تكمن أسباب عميقة، كانت وراء إبراز قبائل صحراوية على مسرح الأحداث.

من الذي إذن جعل من هذه «القبائل الصحرواية المحترقة للترحال» قوة سياسية تمتد سلطتها من الأندلس الى أعماق الصحراء ــ مشارف نهري النيجر والسنغال ــ ؟ وهل يمكن فصل تاريخ المرابطين عن الآليات التي تحكمت في تاريخ المغرب ابتداء من وصول الاسلام الى المغرب ؟

يشتكي جل من تعرض الى تاريخ المرابطين، من نقص في الوثائق / النصوص للكشف عن المرحلة الأولى التي أدت الى قيام الدولة المرابطية، وهي من دون شك فترة هامة يمكن ان تكشف عن الأسباب العميقة التي أدت الى تكوين الدولة المرابطية، الوثائق النصية التي تتحدث عن المرابطين تنصب اساسا على الفترة المرتبطة بتاريخ الأندلس، ويتلخص جل ما كتبه الاخباريون والرحالة والجغرافيون العرب عن هذه المرحلة في الاشارة الى القبائل الصحرواية، والملثمين وأعمال عبد الله بن ياسين، وأن سبب صعود هؤلاء الملثمين الى الشمال هو رفع المظالم التي أصابت مدينة سجلماسة ــ المركز التجاري والستراتيجي ــ واستجابة لنداء وجههُ علماؤها الى القوة الجديدة.

1 ــ نحو مجموعة فرضيات :

تساؤلات متعددة تطرح نفسها حول هذا الزحف من أعماق الصحراء إلى شمال المغرب، والتفسير الذي أتى به الاخباريون لا يمكن ان يكون إلا غطاءا لاسباب أخرى أعمق، ومع ذلك، لا تعدم هذه النصوص إشارات وردت على الخصوص عند الجغرافيين والرحالة العرب، لها دلالتها في الكشف عن الأسباب الأساسية لنشاط المرابطين وعلى الخصوص التجاري منه، ولذلك لتسليط الضوء على هذه الفترة لا بد من وضع فرضيات انطلاقا من المكتوب، ومن التساؤلات المطروحة حول الفترة الأولى التي عرفت قيام الدولة المرابطية.

ــ **الفرضية الأولى** : القبائل الصنهاجية اتخذت لتكون حلفا، ثم لتنطلق في غزو المناطق المجاورة وعلى الخصوص الشمالية منها.

ــ **الفرضية الثانية** : ازدهار التجارة مع ممالك السودان، أعطت لصنهاجة قوة اقتصادية مكنتها من بناء قاعدة، تمثلت في أودغست. التحكم في هذه التجارة والطريق التجارية،

دفع بصنهاجة الى الاستيلاء على مدينة سجلماسة التي كانت تشكل الكفة الثانية للتجارة الصحراوية.

ـ **الفرضية الثالثة** : تبني القبائل الصنهاجية للمذهب المالكي ومحاولة بسطه في مناطق عرفت نشاطات لمجموعات مذهبية مختلفة.

انطلاقا من هذه الفرضيات بشكل جزئي او كلي، سنعيد تأسيس الأحداث بناءا على التنقيب داخل الوثائق الاركيلوجية التي عثر عليها في موقع أودغست بموريطانيا، وأيضا تلك التي تم انتشالها من منجم تازلاغت بالأطلس الصغير، دون ان ننسى بعض المعطيات النصية التي تتضمنها كتب الجغرافيين والرحالة العرب. وعمليات مقارنة المعطيات الاركيلوجية بالنصية ستوظف لفهم الاحداث السياسية المرافقة لصعود المرابطين وتأسيسهم للدولة.

هذه الفرضيات أيضا لن تستقيم إذا ما حاولنا فصل حركة المرابطين عن السياق العام الذي انتج فيه التاريخ المغربي بدءا من وصول الاسلام الى المغرب ؛ ولن نعود الى البدايات الأولى بقدر ما نشير الى ازدهار وتوسيع سجلماسة[1] التي ستصبح مركزا دينيا، عمرانيا، وعلى الخصوص تجاريا مهما ابتداء من النصف الثاني من القرن II هـ / VIII م، وتأسيس طريق تجاري يربط سجلماسة بممالك السودان عبر الصحراء، ولا شك أن هذا الحدث كان كافيا لتوسيع امتدادت الاسلام نحو أعماق الصحراء، وربط هذه المناطق بالشمال عن طريق وحدة اقتصادية، سياسية ودينية. إن الأمر في نهاية المطاف لا يختلف عما عرفه المجتمع العربي الاسلامي الى حدود منتصف القرن VII هـ / XIII م من وحدة دينية وأخرى اقتصادية متمثلة في شبكة من المراكز والطرق التجارية لتأمين حركة تنقل الأفراد والبضائع بين مختلف مناطق «مملكة الاسلام»، ويكفي الاشارة الى كثرة كتب المسالك، وما عرفته من ازدهار، لتقييم أهمية الطرق التجارية والمبادلات بين أطراف «مملكة الاسلام».

---

(1) ـ المقدسي : أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ص : 231 طبعة ليدن. 1906
انظر كذلك البكري : كتاب المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب طبعة باريز الثانية 1965 تحقيق وترجمة : DESLANE.

2 ــ القنــاة الأولـى : المعطى الاركيـلـوجي.

سنعتمد في هذه الدراسة على أعمال حفرية قامت بها مجموعة من الباحثين(2) في موقع تكداوست الحالي والذي تمت مطابقته مع مدينة أودغست، هذه الاعمال التي انطلقت منذ سنوات ووصلت الى انتشال مئات المخلفات الاثرية، تعتبر مادة خامة لقراءة تاريخ القبائل الصنهاجية التي اسست المدينة، مخلفات لا تكشف فقط عن النشاط التجاري للمدينة، بل تسلط الضوء على الحياة اليومية لسكان المدينة، وتزداد هذه المخلفات أهمية في فترة تطابق بشكل كبير السنوات التي أدت الى بروز قوة المرابطين وسيطرتهم على الطريق التجاري الصحراوي وسجلماسة فيما بعد.

أما المعطيات الاركيلوجية الثانية فتأتي من خلال تحليل مجموعة من النفايات المعدنية النحاسية وقطع فخارية(3)، التقطت بمنجم تازلاغت بالأطلس الصغير، الذي يعد مخزنا لمناجم النحاس التي استغلت في الحقب التاريخية التي عرفها المغرب، وهذه المناجم يمكن ان تكون وراء تزويد أودغست بالمسبوكات النحاسية.

وتأتي أهمية منجم تازلاغت من كونه أكبر المناجم التي لا زالت تحتضن آلاف الاطنان من النفايات المعدنية والركازات أيضا، بالاضافة الى وجوده بالقرب من مدينة تامدلت وارتباطه بها. هذه الأخيرة كانت تشكل إحدى حلقات الطريق التجاري الرابط بين سجلماسة وأودغست.

1.2 ــ موقع تكداوست (اودغست) :

أدت حصيلة الحفريات والنتائج الاولى إلى إثبات أن موقع تكداوست ليس في نهاية المطاف غير مدينة أودغست، المركز التجاري المهم والذي تردد كثيرا في كتب الجغرافية والرحلات ما بين

(2) ــ أشرف الاستاذ Jean Devisse على مجموعة أبحاث متعلقة بأوغست نذكر ما نشره بالاشتراك مع Denise et serge Robert سنة 1970 تحت عنوان : Tegdoust I - Recherches sur Aoudaghost منشورات المعهد الموريطاني للبحث العلمي رقم 1 . 1970.
كما أصدرت Claudette kyanaker بحثا بمنشورات المعهد الموريطاني للبحث العلمي رقم . 1979 تحت عنوان : Tegdaoust II Recherches sur Aoudaghost : fouille d'un quartier artisanal بالاضافة الى مجموعة أطروحات دكتوراه السلك الثالث حول نفس الموقع.
وتم تحليل معظم المخلفات الاثرية بأودغست بمختبرات جامعة Rennes بفرنسا : مجموعة البحث رقم 27 التابعة للمعهد الوطني للبحث العلمي الفرنسي، وتحت إشراف Jean Robert Bourhis.

(3) ــ تم تحليل المخلفات الاثرية لمنجم تازلاغت بمختبرات مركز الابحاث المتداخلة الاختصاصات للاركيلوجيا التحليلية. مركز مشارك في المعهد الوطني للبحث العلمي بفرنسا. رقم UA 1003 والمنتمي الى جامعة بوردو III، ويرأس هذا المركز الأستاذ Max Schvoerer.
كما ان بعض العينات تم تحليلها بمختبرات وزارة الطاقة والمعادن بالرباط. 1985.

القرن III و VIII هـ/ IX ــ XIV م وعمليات التنقيب الأثري شكلت رافدا أساسيا لتتمة المعلومات النصية الواردة في كتابات الجغرافيين والمؤرخين، ولم تكشف هذه العمليات عن تلك العلاقات والروابط التجارية بين المدينة وشمال الصحراء، بل ابانت أيضا عن امتدادات المدينة على المستوى الجغرافي والهندسة المعمارية التي طبعت المدينة، بالاضافة الى الحرف الممتهنة داخل مدينة أودغست وعلى الخصوص حرفة التعدين والتي أعطتنا مخلفاتها إمكانية إعادة بناء العلاقات التي كانت قائمة بين المدينة وشمال الصحراء.

1.1.2 ــ المخلفات الاثرية :

المخلفات الأثرية تعد بالمئات وكلها تغطي نشاطات المدينة منذ تأسيسها، وصنفت الباحثة Claudette Vanaker هذه المخلفات الى مجموعات، نقدمها كالتالي :

ــ الادوات والمنتجات النصف مصنعة، وبلغ عددها 836 قطعة تجمع بين الحلي والادوات المستعملة في الحياة اليومية، وتشكل الحلي أكبر حصة من المخلفات المنتشلة، ويبين هذا ان كمية النحاس التي كانت تصل أودغست كانت توجه الى صنع الحلي التي يمكن تصنيفها إلى :

أ ــ مجموعة حلقات، تختلف أحجامها وأقطارها تتراوح ما بين 1 الى 3 سنتم بالاضافة إلى مجموعة أخرى من الخواتم، وأشكال من الحلي، ويزداد عددها أهمية في المستويات الاركيلوجية التي تقابل مرحلة ازدهار المدينة اي نهاية القرن IV هـ وسسف الاول من القرن V هـ/ نهاية القرن X والنصف الأول من القرن XI م.

ب ــ أما الاساور فقد تعددت أشكالها وبلغ عدد المحتويات سبعة أساور وحدد عمرها في النصف الأول من القرن V هـ/ XI م، كما ان أقطارها تتراوح ما بين 3,4 سم و 8,4 سم وسمكها من 0،6 سم الى 0،9 سم.

بالاضافة الى الحلقات والاساور وباقي الحلي، عثر على أدوات كانت تستعمل في الحياة اليومية كالابر والخيوط النحاسية وشفرات مسطحة ومسامير وعدد الادوات المختلفة.

ج ــ مجموعة سبائك نحاسية وبرونزية تم صنعها عن طريق ما يعرف بالمسابك الطينية وتم استخراج 26 سبيكة نحاسية بعضها كامل والبعض الآخر عثر على اجزاء منه فقط، ووزعت على الحقب التالية بحسب المستويات الاركيلوجية :

ــ 6 نماذج تقابل نهاية القرن IV هـ/ X م

ــ 14 نموذجا تقابل النصف الاول من القرن V هـ/ XI م

ــ 6 نماذج وتقابل نهاية القرن V هـ/ XI م وبداية القرن VI هـ/ XII م

ونفس الملاحظة التي تم رصدها بالنسبة لكل المخلفات تنطبق أيضا على هذه السبائك، والمتمثلة في الفرق الواضح بين غزارة المخلفات في النصف الأول من القرن V هـ/ XI م وهزالتها ابتداء من منتصف القرن V هـ/ XI م.

هذه السبائك المعدنية توجد على شكل قضبان منها ستة فقط كاملة، أحدها طوله 14,5 سم وثلاثة يتراوح طولها ما بين 25،2 سم و 25,8 سم السبيكتان الباقيتان يصل طولهما الى 27 سم، والسمك يتراوح من 0,6 سم الى 0,9 سم، امكن التمييز بين أربعة انواع من هذه السبائك.

د ـــ سبائك على شكل شبه منحرف، حيث الوجه العلوي اكثر اتساعا، وغالبا ما تكون مستديرة، وهو ما يعطي لها شكل نصف أسطواني.

ه ـــ سبائك مستطيلة ذات سمك بسيط من 0,7 سم الى 0,8 .

و ـــ سبائك مستطيلة ذات زوايا مستديرة.

ز ـــ سبائك مستطيلة تتميز بسمك ملحوظ.

إلى جانب هاتين المجموعتين عاين المنقبون آثارا لممارسة التعدين في المدينة وفي مستويات مختلفة، وقارن الباحثون في موقع أودغست بين هذه السبائك المعدنية، وأخرى عثر عليها في موقع مراندي بالنيجر، وبموقع معدن إجافن بموريطانيا، فتبين أن السبائك الأخيرة أكثر طولا : 72 سم في المعدل، كما أن الاختلافات تظهر أيضا بين المجموعة الاولى والثانية من حيث أشكالها. كما لوحظ أيضا أن توزيع المخلفات النحاسية داخل موقع أودغست لا يتغير، وفي كل المستويات، بحيث أن عدد المخلفات يزداد انطلاقا من المستوى الاركيلوجي الاكثر قدما (أي المستويات التي تقابل نهاية القرن II هـ/ VII الى المستويات الاركيلوجية التي تقابل نهاية القرن IV هـ/ X م والنصف الاول من القرن V هـ/ XI م وهي فترة كما أشرنا الى ذلك، تعكس غزارة المخلفات النحاسية في كل أنحاء الموقع. وتشكل هذه الفترة قمة هرم المعثورات، ليبدأ بعد ذلك العدد في الانخفاض والذي سيتواصل رغم أنه لوحظ محاولة إعادة النشاطات السابقة للموقع، والتي سجلت في بداية القرن VII هـ/ XIII م.

انتهى الباحثون في موقع أودغست الى القول بوجود تعدين محلي، اكتسب أهمية كبيرة بدليل وجود أدوات مصنعة محليا وهذه الادوات مختلفة من حيث الاحجام ومن حيث التقنيات المستعملة في صنعها، وأن السبائك التي وصلت أودغست تم تحويلها في عين المكان، بدليل وجود نفايات معدنية نحاسية وبقايا قطع لم يصل بعد درجة الطهي والانصهار، عثر عليها بالخصوص في المستويات الاركيلوجية التي تقابل نهاية القرن IV هـ/ X م والنصف الاول من القرن V هـ/ XI م الى

جانب مسابك طينية على شكل شهد النحل(4) كانت موجهة لصنع كويرات من الذهب والفضة لسك النقود. أما الخيوط النحاسية فيظهر من خلال المخلفات المعثور عليها في الموقع أنها كانت توظف في تزيين الحلي واستعمالها كلحام للقصدير (على أساس أن درجة انصهار النحاس تقل عن درجة انصهار الحديد)، والانتاج الذي عثر عليه لم يكن موجها الى الاستهلاك العائلي او الاستهلاك المحلي ولكنه كان يتجاوز ذلك بكثير. الى جانب هذه النشاطات التعدينية لوحظ وجود حلي مصنوعة من الصدف وبيض النعام، والاحجار، كما تم العثور على عجينة زجاج.

ـ الجانب المهم في المعثورات هو بقايا أفران تم الكشف عنها في الجزء الجنوبي من الموقع. وهذه الافران استغلت في فترة ازدهار المدينة والجدير بالذكر أنه لم يعثر على اي فرن كامل، وتدل الحالات التي وجدت عليها الافران أنها تعرضت لتدمير متعمد. وتوجد الافران على شكل دائري، وقطر يتراوح ما بين 1,25 م و1,35 م بالاضافة الى حواشي طينية يتراوح سمكها من 8 الى 9 سم، وفي بعض الحالات قد تكون اكثر سمكا مما ذكر. والحواشي بنيت على شكل صفائح من الطين. الفرن قائم على فراش من الحجارة في عمق 40 سم من وجه الارض، والاحجار نفسها مرصفة على فراش من الرمل والحجارة الصغيرة.

التحاليل التي تمت على الأفران أثبتت وجود كمية كبيرة من عنصر السلس (Sis_2) وهذا ما يبين أن طاقة هذه الأفران في الطهي وصلت على الاقل الى 1000^o درجة. والعديد من الادوات المعثور عليها هي مزيج بين النحاس والزنك والرصاص، كما عثر بالقرب من الأفران على كوالح وأوان فخارية كاملة، بقطر يتراوح ما بين 14,5 سم و 18,5 سم وعلو 10,75 سم في المتوسط مع لون أحمر قاتم يغطي الوجه الخارجي وتستقر بداخلها الى حدود ثلاثة أرباع علوها طبقة خضراء ملتصقة بالطين. والتحاليل أثبتت وجود نسبة قوية من السلس ونسبة ضعيفة من الالومين، وهذه ربما التصقت بالطين نتيجة لدرجة حرارة مرتفعة، أما بقايا اللون الاخضر، فهي مخلفات تعدين نحاسي وربما داخل هذه الاواني كان يتم صهر ومزج النحاس بالزنك والرصاص.

2.1.2 ـ نتائج التحاليل والخلاصات الاولى :

أظهرت التحاليل التي أجريت على سبائك أودغست صنفين رئيسيين :

ـ سبائك نحاسية خالصة، وتصل نسبة تركيز النحاس فيها الى 19،3%.

ـ سبائك برونزية (نحاس زنك) وهذه تحتوي على نسب من الزنك تتراوح من 3 الى 12% على أكثر تقدير.

---

(4) ـ اطلق الحكيم ابو الحسن علي بن يوسف في كتابه الدوحة المشتبكة في ضوابط دار السكة (تحقيق حسين مؤنس. مدريد 1960 ص 34) على هذا النوع من المسابك الفخارية اسم كوجل.

كما سجل في تلوين هذه القضبان بصفة عامة العناصر التالية :

— نسبة ضعيفة من الفضة : 0,01 الى 0,5%

— نسبة من الاسنيك (AS) ويمكن ان تصل الى 1% وفي بعض الحالات قد تتجاوز هذه النسبة لتصل الى 2%

— نسبة من الحديد تصل الى 6,5% وهي حالة استثناء، أما النسب العادية فسجلت ما بين 1 الى 3,5%

— وأخيراً نسبة ضئيلة من النيكل.

هذه المكونات والنسب المذكورة تشكل خصائص للمخلفات المعدنية الموجودات في كل المستويات الاركيلوجية، إلا ان الفرق واضح بين باقي الفترات والمرحلة التي عرفت ازدهار المدينة، إذ تصل نسبة الرصاص في عصر الازدهار الى 20%

وأثبتت التحاليل من جهة ثانية ان الاساور تتطابق مع السبائك من حيث المكونات، فنجد نفس نسب الفضة، الارسنيك، الرصاص وضعف نسبة النيكل، اللهم من عنصر الحديد الذي تمت إزالته بالمرة.

التحاليل أدت إلى الخلاصات التالية :

— أن النحاس المستعمل في التعدين الذي عرفته أودغست، يحتوي على عنصر الارسنيك.

— حضور نسبة قوية من الرصاص نتيجة لرغبة الصانع في جعل نحاسه أكثر ليونة، وهذه العملية تمت في عين المكان بدليل وجود الافران وشواهد تدل على عمليات صهر النحاس بالزنك والرصاص.

— تجانس التحاليل والنسبة الضعيفة للزنك وعلى الخصوص في السبيكتين رقم 5 و6 يدعم فرضية جلب النحاس الخالص واستيراده على شكل سبائك. ولنقم الآن بمحاولة ربط هذه السبائك بمناجم النحاس الواقعة الى شمال الصحراء وبالضبط في الاطلس الصغير ولنأخذ كنموذج منجم تازلاغت لموقعه الستراتيجي ولكثافة التعدين الذي مورس في هذا المنجم طوال عهود طويلة.

جدول تحاليل عينات أودغست

N°	Cu	Sn	Pb	As	Sb	Ag	Ni	Bi	Fe	Zn	Mn
3445	XXX	tr	0,005	0.03	0.02	0,001	0,002	0,50	3	0,002	0,005
3446	(99)	0,008	0.15	0.01	0,005	0.01	0,007	0.015	0,15	0,005	tr
3447	86,2	0,015	0,20	0.25	0.08	0,05	0,008	0,05	1	12	0,10
3448	67,4	0,008	20	1	tr	0,05	tr	0,006	2	9	—
3449	86,5	0,005	1,5	0,15	0,15	0.10	tr	0,25	1,5	10	0,01
3450	96,3	0,005	0,01	0,07	0,005	0,01	0,001	0,40	2,5	0,05	—
3451	82,5	0,015	2	0.30	0,10	0,50	0,01	0,06	6,5	7	—
3452	83,2	0,001	2,5	0.30	0,025	0,10	0,008	0,08	0,03	(13)	tr
3453	43,9	—	tr	0.001	—	0,008	—	—	0,001	tr	—
3454	75,0	0,001	0,60	0.10	—	0,015	—	0,002	0,01	4	0,002
3455	93,0	—	0,005	0.10	0,01	0,05	0,002	0,30	1	0,005	—
3456	86,5	tr	0,20	0,03	—	0,015	0,001	0,003	0.20	8	—
3457	83,5	0,002	0,07	0,10	0.015	0,005	0,01	tr	0,005	0,05	—
3458	84,0	0,001	0,70	2	0,70	0,02	0,003	0,05	1	6	0,001
3459	38,5	—	0,004	0,004	—	0,001	tr	—	0,03	—	tr
3460	34,0	—	—	0,002	—	tr	—	—	0,005	—	tr
3461	85,0	0,05	tr	0,002	0,007	0,20	—	0,001	tr	—	—
3462	95,0	—	0,001	—	—	0,001	0,02	—	—	tr	—
3463	36,5	—	0,008	0,005	0,002	0,003	0,002	—	2	—	0,003
3464	48,0	0,001	tr	0,05	tr	0,001	0,005	—	0,50	—	0,003
3465	89,0	—	0,01	1	0,40	0,03	0,03	0,003	2	0,05	tr

عينة رقم 3445 ـــ قعر طيني لمخلف كان يستعمل في عمليات الصهر.
عينة رقم 3446 ـــ كويرة من نحاس.
عينة رقم 3447 ـــ سبكة برونزية ـــ نهاية القرن X م / IV هـ.
عينة رقم 3448 ـــ سبيكة برونزية] النصف الأول من القرن XI م / V هـ.
عينة رقم 3449 ـــ سبيكة برونزية]
عينة رقم 3450 ـــ سبيكة نحاسية ـــ نهاية القرن XI م وبداية القرن XII م / V هـ/ VI هـ.
عينة رقم 3451 ـــ سبيكة برونزية ـــ نهاية القرن X م / IV هـ.
عينة رقم 3452 ـــ قطعة من سوار.
عينة رقم 3453 ـــ جزء من سبيكة.
عينة رقم 3454 ـــ حلقة.
عينة رقم 3455 ـــ قطعة من سبيكة.
عينة رقم 3456 ـــ قطعة سبيكة.
عينة رقم 3457 ـــ شذرات من نحاس.
عينة رقم 3458 ـــ سبيكة صغيرة.
عينة رقم 3459 ـــ قطعة من نحاس مفتول.
عينة رقم 3460 ـــ قطعة من نحاس مفتول.
عينة رقم 3461 ـــ قطعة نحاسية.
عينة رقم 3462 ـــ قطعة من قطيب نحاسي.
عينة رقم 3463 ـــ قطعة من نحاس مفتول.
عينة رقم 3464 ـــ قطعة من نحاس مفتول.
عينة رقم 3465 ـــ قطعة من نحاس مفتول.

المرجع : ER N 27 CNRS. J. R. Bourchis Rennes Fance - 1983

2.2 ــ منجم تازلاغت :

يوجد منجم تازلاغت بالأطلس الصغير بقبائل أيت عبد الله على بعد 30 كلم الى الشرق من تافراوت، على مرتفع يصل الى 1800 م، وأول ما يثير الانتباه في منجم تازلاغت آلاف الاطنان من النفايات المعدنية المتراكمة، دون أن ننسى ركامات الاتربة التي استخرجت من أعماق الارض واعْتُقد أنها عقيمة، في حين تحتوي على تركيز لا بأس به من النحاس ونسب من الفضة، وتنتشر النفايات المعدنية المتراكمة في كل أرجاء المنجم الحالي وعلى مرتفع يدعى تيزالاغين توجد أصناف متعددة من النفايات المعدنية النحاسية وبقايا فخار وأدوات كانت تستعمل في صهر النحاس.

وتظهر من خلال المقالع التي تستعمل اليوم آثار للدهاليز المردومة والتي كانت قبل ذلك عبارة عن عروق معدنية تم استغلالها منذ القدم وتدل أعمال السبر التي قام بها الجيولوجيون على أن القدامى وصلوا الى أعماق 74,50 م وأن كل العروق المعدنية والى حدود العمق المذكور استغلت وعلى مساحة واسعة.

تمت بعض التقديرات لحساب ركامات النفايات المعدنية[5] ووصلت الى حساب فترة التعدين التي قد تكون استمرت من 5 الى 10 قرون. ويكفي الاشارة الى عملية قام بها أحد الجيولوجيين ما بين 1982 و 1983 وصلت الى حساب 133.400 طن من الأتربة التي تم استخراجها من باطن الأرض والتي كان القدامى يعتقدون أنها لا تحوي ركازات النحاس مع العلم ان هذه الحجارة تختزن نسبة 3,2% من ركاز النحاس و 32 غراما من الفضة في كل طن[6].

ولا زالت إلى يومنا هذا بقايا أفران تتوسط قرية تازلاغت وأثبتت النتائج الأولية أن تيزالاغين هي الموقع الاول الذي مورس فيه التعدين بهذه المنطقة.

فيما يخص المخلفات التي تم التقاطها وتحليلها فتتكون من نفايات معدنية وفخار ومزيج من سائل معدني وطين، فقد عثر على فخار[7] تبين أنه كان يستعمل في إحدى عمليات صهر النحاس وأمكن تحليل الوجه الذي يحمل بقايا معدنية فتبين من التحليل وجود الزنك مع آثار للأرسنيك.

وبالنسبة للنفايات المعدنية النحاسية تم تحليل سبع عينات تغطي جل ركامات المنجم[8].

---

(5) .B. Rogembeger : Les veielles exploitations miniéres R. G. M ° 17 - 1970 p. 75

(6) .J. Skacel = Gislment de Tazalaght Rapport intern. BRPM - D.E.M Fev. 1983

(7) ــ صنف هذا المخلف تحت رقم III % × BD بمختبرات مركز الأبحاث المتداخلة الاختصاص للاركيلوجيا المحيية ببوردو. C.R.I.A.A. Maison Des sciences de l'homme - Bordeaux. France

(8) ــ فيما يتعلق بهذه النفايات المعدنية، فقد خضعت لتحاليل مختلفة منها ما يسمى بـ La fluorescence X والتي تمت ببوردو والخمسة الباقية حللت بواسطة طريق Absorption atomique بمختبرات وزارة الطاقة والمعادن بالرباط وصنفت عينات بوردو تحت رقم : 871 × BD.

بالنسبة لقطعة الفخار المثقوب[9] تم معاينته بدقة وخاصة الثقوب، فأعطت التحاليل مجموع مكونات جد هامة، تتمثل في الحديد (Fe) والنحاس (Cu) والرصاص (Pb) والقصدير (Sn) بالاضافة الى الفضة (Ag).

أما مزيج الفخار والسائل المعدني فيحتوي أيضا على النحاس والزنك (Zn) والحديد والرصاص والارسنيك إضافة الى الفضة.

النفايات المعدنية النحاسية كشفت عن مكونات متعددة وبنسب متفاوتة، نجد في مقدمتها أكسيد الحديد : وتتشكل تركيباتها كالتالي :

Cu, SiO_2, Fe_2, O_2,3, Na_2O, AL, CaO, K2O, MgO, P_2O_5, SO_3TiO_2, Ag, Mn

وتبين ان كل النفايات المعدنية تحتوي على نسبة مهمة من (من 28,78% الى 45,08%) ومن (من 34,61 الى 50,83%)

أما نفايات الموقع المعروف بتزالاغين فكشف عن نسب مهمة لركاز النحاس (من 2,05% في قدم المرتفع الى 3,50% في القمة) لكون درجات الصهر لم تستطع استخلاص كل ركاز النحاس الموجود بالمعدن.

وبالنسبة للشوائب، النسب تختلف من موقع لآخر، الا أنها تمثل تقريبا نفس العناصر، ففي تزالاغين نجد الرصاص بنسب تتراوح ما بين 267 ppm و 428 ppm والزنك 365 ppm الى 6000 ppm والفضة من 4,2 الى 8,4 ppm وأخيرا المنغنيز من 125 الى 1500 ppm بينما نجد في بعض النفايات المعدنية خصوصا تلك التي ترتبط بالمرحلة الثانية من عمليات التعدين (قرب واد سيدي موسى) تحمل نسبة مهمة من ركاز النحاس تصل الى 2,25% ونسب من الرصاص والزنك تصل الى 2000 و 2242 ppm، على التوالي، وتركيز قوي لـ Fe_2O_3 يصل إلى 50,83% ونسبة من الالومين و Fe 0,62% من أكسيد المنغريوم.

أما النفايات التي التقطت من المكان المعروف بتارويرت النحاس والتي تعكس فترة متقدمة من النشاط التعديني، فلم تعد تحتوي إلا على 1,05% من النحاس و 142 ppm من الرصاص وعلى العكس من ذلك ارتفعت نسبة الالومين إذ وصلت الى 10,07%.

الملاحظة الاساسية التي يمكن الخروج بها من خلال هذه التحاليل هو الحضور الدائم لعنصر الفضة في مكونات الفخار والنفايات المعدنية، ومعدن النحاس، بل حتى في الاتربة التي ردم بها القدامى دهاليزهم.

---

(9) BD x 871 II

جدول تحاليل عينات تازلاغت (مختبرات وزارة الطاقة والمعادن 1985)

	Cu %	Pb ppm	Zn ppm	Ag ppm	Mn ppm	SiO_2 %	Al_2O_3 %	Fe_2O_3	CaO %	MgO %	Na_2O %	K_2O %	SO_3 %	F_2O_5 %	FeO %	TiO_2 %
I	1,9	500	1500	6.3	550	31.2	6.56	45.55	3,1	1.23	4.85	2,79	0,79	0.30	1,78	0.2
II	2,05	267	395	8.4	125	45.08	8,43	34.72	1.5	1.25	0.88	3.08	0.5	0.06	1.5	0,2
III	1,05	142	750	7.7	185	44.37	10.07	34,61	1,4	1.3	0,54	3,75	0,42	0.34	1.6	0,29
IV	2,25	2242	2000	6.3	475	28.78	5,62	50,83	4.1	0,86	0.48	2,02	1.59	0,50	2.39	0.33
V	3,50	428	6000	4.2	1500	31.51	6,79	45.42	4,55	2.03	0,32	3.27	0.56	0,07	1.90	0.25

I ـــ نفاية معدنية (6602) الموقع المسمى ذو القرنين.

II ـــ نفاية معدنية (6603) تزلاغين، السفح.

III ـــ نفاية معدنية (6604) ركام النفايات.

IV ـــ نفاية معدنية (6605) النهر.

V ـــ نفاية معدنية (6606) تزلاغين، القمة.

مجموعة التحاليل التي اجريت على عينات منجم تازلاغت أعطت الخلاصات التالية :

ـــ أن بعض نتائج تحديد الاعمار[10] كشفت عن رحلة استغلال تمتد ما بين 1300 م و 1660 م، وهذا له دلالته في إعطاء صورة تقريبية لفترات نشاطات منجم تازلاغت، فالعينات التي تم تحديد أعمارها لم تؤخذ من مستويات اركيلوجية بل تنتمي الى عينات ما يسمى بالالتقاط السطحي، ويمكن انطلاقا من هذه النتائج ان نعود بتاريخ بدايات الاستغلال والتعدين بمنجم تازلاغت الى القرن ١٧ هـ/ X م، ويعضد هذا الاحتمال ما تحكيه الرواية الشفوية حول انتماء السكان في الأصل إلى مدينة تامدلت، وأنهم هاجروا من هذه الاخيرة نحو الموقع الحالي لتازلاغت.

ـــ ان التحاليل التي اجريت على مجموعة من العينات خصوصا المعدنية منها تسمح لنا بمقارنتها مع العينات التي عثر عليها بأودغست والمقارنة يجب ان تنبني على عناصر الشوائب وهي العناصر التي تتواجد في العينة بنسبة ضعيفة جدا، والتي تستطيع تمييز معادن منطقة جغرافية عن أخرى. العينات أيضا تختلف من فخار ونفايات معدنية وأتربة تحمل ركاز معدني وحلي وسبائك، والمقارنة تنطلق من مبدأ أن كل معدن يحتفظ بذاكرة ركازه، فتواجد نفس الشوائب وبنفس المقادير

---

(10) ـــ ان الامر يتعلق فقط بمجموعة تجارب تحديد الاعمار تمت بطريقة ما يعرف بالاضاءة الحرارية ها ... بمختبرات C.R.I.A.A. واختيرت بشكل تقديري مقدار اشعاعي سنوى يساوي : 0.50 ± 14 rads/ans لحساب عمر عينات تازلاغت.

أو بأخرى متقاربة يؤدي الى تطابق المنبع والذي يمكن ان ينبيء عن المكان الذي أخذ منه معدن النحاس. وبناء على هذا عند مقارنة نتائج تحليل عينات أودغست وعينات تازلاغت نلاحظ وجود مجموعة شوائب مشتركة وبمقادير متطابقة :

ـــ وجود عنصر الفضة بنسب صغيرة في سبائك أودغست.

ونفس الشيء نلاحظ في تحليل عينات تازلاغت، اذ تعتبر الفضة العامل المشترك بين كل العينات، فإذا كانت التحليلات الاخيرة التي اجريت على الاتربة المعدنية (J. Skacel 82 - 83) اثبتت وجود الفضة كعنصر دائم الحضور، فان وجودها الى جانب النحاس يجعلها تتسرب الى كل العينات، نظرا لضغف درجات صهرها بالمقارنة مع عناصر أخرى اذ تكتفي درجة 779° للبلوغ الى صهر النحاس المختلط بالفضة وهذا هو السبب الرئيسي الذي يجعلنا نضع الفضة كشائب اساسي لإثبات تطابق الركاز الذي أعطى سبائك النحاس المستعملة في أودغست.

ـــ وتظهر كذلك تطابق الشوائب عند مقارنة نسب تواجد القصدير Sn والفضة، فيلاحظ غلبة نسبة الفضة على القصدير في عينات تازلاغت ونفس الملاحظة عند معاينتنا لنتائج تحليل سبائك أودغست.

ـــ والشوائب المشتركة تظهر ايضا عند مقارنة تحليل BD x 871. III وهو عينة عبارة عن سائل معدني التصق بفخار، فالى جانب النحاس والحديد كعناصر اساسية ظهر الزنك والرصاص والارسنيك بنسب لا بأس بها، دون أن ننسى عنصر الفضة، والانتموان (الكحل) Sb والالومين ، ونلاحظ نفس المكونات في مخلفات أودغست وفي بعض الحالات بمقادير متقاربة كما هو الحال بالنسبة لعنصري Sn و Sb.

3 ـــ القناة الثانية :

المعطى النصي :

ذكرنا في بداية هذه الدراسة ان جل المتعرضين الى تاريخ المرابطين يشتكي من قلة النصوص المكتوبة حول المرحلة الاولى التي ادت الى قيام المرابطين، وان جل ما كتب عنهم يدخل في إطار التاريخ الاندلسي بصفة عامة، الا انه مع ذلك نجد في كتابات الجغرافيين والرحالة العرب مجموعة إشارات لها دلالتها في قراءة تاريخ المرابطين عند انطلاقتهم، ويمكن الاعتماد على المعلومات التي كتبوها او الاشارات التي لها دلالة لفهم العديد من القضايا التي سنتطرق اليها ومجموعة من هؤلاء الجغرافيين والرحالة، عاينت المنطقة عن قرب او عايشت بعض احداثها واختلطت بسكانها او

نقلت عن رحالة جابوا مسالك المنطقة التي ستنجب دولة المرابطين كما أن هذه الكتابات تغطي بشكل جيد الفترة الزمنية التي نحن بصدد التعرض اليها.

النموذج الاول من هذه الكتابات لابن حوقل(11) الذي زار أودغست في منتصف القرن IV هـ X م والنموذج الثاني البكري ابو عبيد المتوفى(12) سنة 487 هـ 1094 م والذي نقل عن رحالة اسمه محمد بن يوسف القيرواني الذي ازداد سنة 292هـ/ 905,904 م وتوفي سنة 363 — /974,973 م وكتابات البكري تحمل معلومات مهمة عن بدايات المرابطين، النموذج الثالث الادريسي(13) 491 — 558 هـ (1099 م — 1164 م)، وأخيراً صاحب كتاب الاستبصار(14) والذي عاش في النصف الثاني من القرن VI هـ/ XII م.

وهؤلاء الكتاب يغطون فترة تمتد من منتصف القرن IV هـ الى القرن VI م (X م — XII م).

ولننطلق من أن حركة المرابطين ليست في نهاية المطاف الا استمرارا للحركية التاريخية التي عرفها المغرب من جراء وصول الاسلام اليه، ونقطة الارتباط هي مدينة سجلماسة، فهي بدون شك مفتاح لقراءة تاريخ المرابطين الاول وهي ايضا كمركز تجاري كانت وراء ازدهار الطريق التجاري نحو ممالك السودان وهي أخيراً وراء تأسيس مدينة أودغست كموقع تجاري استراتيجي في المبادلات مع ممالك السودان فهي توابث أربع لقراءة تاريخ المرابطين في بداياته الأولى 1) سجلماسة — 2) أودغست — 3) الطريق التجاري الواقع بين المدينتين — 4) قبائل صنهاجة المستوطنة للمجال الجغرافي المذكور، وهي القبائل التي ستؤسس دولة المرابطين.

لا شك أن التجارة المنتظمة بين سجلماسة وممالك السودان(15) خلقت اتصالا مستمراً بين القوافل التجارية والقبائل الصنهاجية، والقيام بخفرالقوافل التجارية قرب الصنهاجيين من قضايا التجارة وتأسيس مدينة أودغست يعتبر تحولا في حياة هؤلاء الرحل — على الاقل قسم منهم — والمؤكد من كتابات الرحالة العرب، أن أودغست اكتسبت أهمية كبيرة نظرا لما توفره من خدمات للتجارة مع السودان،ولعل هذا السبب هو الذي جعل بعض القبائل الصنهاجية الرحل أو بعض ممالك السودان تطمع في الاستيلاء على هذه المدينة المزدهرة، والحروب التي يتحدث عنها بعض

(11) — ابو القاسم ابن حوقل : كتاب صورة الارض — طبعة بيروت 1979.

(12) — ابو عبيد البكري : كتاب المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب تحقيق وترجمة Deslane الطبعة الثانية باريز 1965.

(13) — ابو عبيد الله الادريسي : كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق / نابولي.

(14) — مجهول : كتاب الاستبصار في عجائب الامصار تحقيق سعد زغلول عبد الحميد. البيضاء — 1985.

(15) — ابن حوقل، ص 65 :

الطريق الرابطة بين سجلماسة ومسالك السودان، ظهرت بعد ان اختفت الطريق التجاري التي كانت تربط مصر بغابة ويرد ابن حوقل سبب هذا للعواصف الرملية التي كانت تهلك القوافل التجارية بالاضافة إلى انعدام الامن.

المؤرخين إبان القرن IX م و X م تدخل في هذا الإطار. وهنا نصل إلى ابن حوقل الذي زار أودغست في منتصف القرن IV هـ/ X م اذ يحكي انه سمع من احد تجار سجلماسة المقيمين بأودغست ما يلي : «وسمعت أبا اسحاق ابراهيم بن عبد الله المعروف بفرغ شغله وهو صاحب الدين والصك الذي قدمت ذكره بأودغست، يقول سمعت تنبروتان بن اسفيشر يقول وكان ملك صنهاجة أجمع أنه يلي امرهم منذ عشرين سنة وأنه لا يزال في كل سنة يرد عليه قوم منهم زائرين له، لم يعرفهم ولا سمع بهم ولا مقلهم، قال، ويكونون نحو ثلاثمائة الف بيت»(16).

وهذا يفهم منه أن اودغست كمركز تجاري، كان منطقة جذب لما يثيره الاستقرار حول أودغست من منافع مادية مرتبطة بالتجارة. ويمكن الوصول الى خلاصة أن حول تنبروتان بن أسفيشر تكون حلف صنهاجي ويؤكد هذا ما أتى به صاحب كتاب الاستبصار «وكان صاحب مدينة اودغست في سنة 350هـ 360هـ (961—971) رجل من صنهاجة وكانت له جيوش كثيرة، فدان له أزيد من 20 ملكا من ملوك السودان وكلهم يؤدون الجزية»(17).

وابن حوقل يمدنا بإشارات هامة حول القيم التجارية التي كان يتعامل بها التجار أنذاك فبالاضافة الى استقرار بعضهم الشبه دائم بأودغست، يقول ابن حوقل «ولقد رأيت بأودغست صكّافية ذكر حق لبعضهم على رجل من تجار أودغست وهو من أهل سجلماسة باثنين وأربعين الف دينار، وما رأيت ولا سمعت بالمشرق لهذه الحكاية شبها ولا نظيرا...»(18).

ويكشف هذا النص على ازدهار التجارة لدرجة التعامل بالصكوك، إضافة الى دور التجار السجلماسيين في تأمين التجارة بين أودغست وسجلماسة هذه الاخيرة التي كانت بدون شك القلب النابض للتجارة الصحراوية، ونتابع مع ابن حوقل قوله : «ويقارب القيروان سجلماسة صحة الهواء ومجاورة البيداء مع تجارة غير منقطعة منها الى بلاد السودان وسائر البلدان وأرباح متوافرة»(19).

وصاحب الاستبصار يصف كذلك سجلماسة بالعظمة، أما عن مدينة اودغست فيقول : « وبين صحراء لمتونة وبلاد السودان مدينة أودغست وهي مدينة عظيمة آهلة فيها أمم لا تحصى وبها بساتين كثيرة ونخل كثيرة، ويزرعون فيها القمح بالمغرب بالفؤوس ويسقونه بالدلاء وكذلك يسقون

(16) — ابن حوقل، ص 97.

(17) — كتاب الاستبصار ص 216 : وينقل صاحب كتاب الاستبصار ما كتبه البكري عن هذه المنطقة (ص158 — —159) والبكري بدوره نقل مباشرة عن محمد بن يوسف الوراق.

(18) — ابن حوقل ص96: زار ابن حوقل سجلماسة سنة 340 هـ/ 951م وزيارته لأودغست تأتي بعد هذا التاريخ.

(19) — ابن حوقل ص 96.

بساتينهم، (...) وهم أرباب نعم جزيلة وأموال جليلة ولهم أسواق حافلة عامرة الدهر كله (...) وتجارتهم انما هي بالتبر وليس عندهم فضة».(20)

ونجد نفس الوصف عند البكري مع بعض الاضافات، إذ يذكر ما يلي «ويتجهز الى أودغست بالنحاس المصنوع وبثياب مصبغة بالحمراء والزرقة مجنحة ويجلب منها العنبر المخلوق الجيد لقرب البحر المحيط منهم والذهب الابريز الخالص خيوطا مفتولة، وذهب أودغست أجود من ذهب الارض وأصحه وكان صاحب أودغست في عشر الخمسين وثلاث مائة تين ببروتان ابن وينسو بن نزار رجل من صنهاجة وكان قد دان له ازيد من عشرين ملكا من ملوك السودان كلهم يؤدي اليه الجزية...(21)

أما الادريسي فنجد عنده صورة مغايرة لما كتبه صاحب الاستبصار فيرد ما يلي : «... وفيها مدينة او فيها مدينة صغيرة في صحراء ماؤها قليل وهي في ذاتها بين جبلين شبه مكة في الصفة وعامرها قليل وليس بها كبير تجارة ولأهلها جمال ومنها يتعيشون..»(22).

وعلى العكس من ذلك، لازالت مدينة سجلماسة تحتل أهمية في ما كتبه الادريسي : «وأما مدينة سجلماسة فمدينة كبيرة كثيرة العامر وهي مقصد للوارد والصادر كثيرة الخضر والجنات رائقة البقاع والجهات ولا حصن عليها، وإنما هي قصور وديار وعمارات متصلة على نهر لها كثير الماء...»(23).

ومع ذلك يشير الادريسي الى ما أصابها في الفترة التي يكتب عنها «غير ان المخالفين في زماننا هذا أتو على اكثرها هدما وحرقا...»(24)

ولعل سجلماسة كانت في عهد البكري او في عهد محمد بن يوسف الوراق اكثر ازدهارا، فالبكري يذكر سجلماسة كمدينة عامرة ويصف اسوارها وأبوابها وزراعاتها وبعض مظاهرها الاجتماعية والصحية.(25)

ونستخلص من هذه الاستشهادات مدى أهمية كل من سجلماسة وأودغست في التجارة الصحراوية، ويذكر الرحالة العرب ان الطريق الى ممالك السودان يمر عبر سجلماسة وأودغست، بل

(20) ـ كتاب الاستبصار ص 215.
(21) البكري : ص. 159.
(22) ـ الادريسي ص 108.
(23) ـ الادريسي ص 225.
(24) ـ الادريسي ص 226.
(25) ـ البكري : ص 148.

ان البكري يدقق في ذلك «فأما الطريق من أودغست الى بلد سجلماسة فمن أودغست إلى تامدلت على ما ذكرناه أيضا وذلك أربعون مرحلة ومن تامدلت إلى سجلماسة على ما ذكرناه قبل هذا إحدى عشرة مرحلة فذلك إحدى وخمسون مرحلة...»(26).

وابن حوقل يؤكد على الاهمية وحيوية هذا الطريق التجاري بتوفير مواد كانت تستهلك في الجانبين، وتشكل اودغست الممر الوحيد للمبادلات «وحاجتهم (ملوك السودان) الى ملوك اودغست ماسة من أجل الملح الخارج اليهم من ناحية الاسلام فانه لاقوام لهم الا به وربما بلغ الحمل الملح في دواخل بلاد السودان وأقاصيه ما بين مائتين الى ثلاثمائة دينار»(27).

أما المناطق التي تقع بين اودغست وسجلماسة، فكما يورد ابن حوقل كانت تسكنها قبائل بربرية متعزبة ويعطي أسماء بعضها كشرطة وسمسطة وبني مسوفا، وأن هذه القبائل لا تعرف التبر ولا الشعير ولا الدقيق وغداؤهم الالبان وفي بعض الحالات اللحم، وأن هذه القبائل تلتف «حول ملك يملكهم ويديرهم تكبره صنهاجة وسائر أهل تلك الديار، لانهم يملكون الطريق»(28) ويضيف «ولم ير لأحدهم ولا لصنهاجة منذ كانت من وجوههم غير عيونهم، وذلك أنهم يتلثمون (...) ولهم لوازم على المجتازين عليهم بالتجارة من كل حمل وحمل، ومن الراجعين بالتبر من بلاد السودان وبذلك قوام بعض شؤونهم»(29) ويقول البكري «... وبينها (سجلماسة) وبين مدينة غانة مسيرة وشهرين في صحراء غير عامرة الا بقوم ضاعنين ولا تطمئن بهم منزل وهم بنو مسوفة من صنهاجة ليس لهم مدينة يأوون اليها الا وادي درعة...»(30).

ويضيف البكري «... وخلف بني لمتونة قبيلة من صنهاجة تدعى جدالة وهم يجاورون البحر ليس بينهم وبينه أحد وهذه القبائل هي التي قامت بعد الاربعين وأربع مائة بدعوة الحق ورد المظالم وقطع جميع المغارم وهم على السنة متمسكون بمذهب مالك ابن انس رضي الله عنه...»(31) أما صاحب كتاب الاستبصار فيقول بأن الصحراء الواقعة بين سجلماسة وغانة يسكنها قوم من مسوفة وبأنهم رعاة رحل(32).

(26) — البكري : ص 159.
(27) — ابن حوقل ص 98.
(28) — ابن حوقل ص 98.
(29) — ابن حوقل ص 99.
(30) — البكري 149.
(31) — البكري 164.
(32) — كتاب الاستبصار : 200.

ويستفاد من هذه الاشارات والمعلومات الواردة عند الجغرافيين والرحالة العرب أن اودغست كانت مركزا تجاريا استراتيجيا لتبادل البضائع المتجهة نحو ممالك السودان بالجنوب وهي عبارة عن أوان وحلي نحاسية بالاضافة الى الملح الذي ربما قد يكون الاصل في هذه التجارة في حين ان الذهب يشكل المادة الاساسية التي يتم نقلها نحو الشمال، وأن تجار سجلماسة هم الذين كانوا في البداية يقومون بهذه العمليات على حسب ما ذكره ابن حوقل، كما أن هناك قبائل صنهاجة اخرى ملثمة تقوم بفرض مكوس على مرور هذه البضاعة من والى أودغست الا اننا نجد فرقا بين ما يصفه ابن حوقل عن مدينة اودغست وما يذكره صاحب الاستبصار والادريسي فأودغست تحولت نشاطاتها وأثار النشاط الفلاحي انتباه صاحب كتاب الاستبصار قبل التجارة.

أما الادريسي، فهو ينفي أن تكون بها تجارة في عهده في المقابل نجد البكري وصاحب كتاب الاستبصار يتحدث عن النحاس المسبوك الذي يتجهز به الى بلاد السودان من بلاد السوس وكذلك من أغمات التي اصبحت مركزا تجاريا مهما وهذا يبين ان سجلماسة لم تعد المزود الرئيسي لأودغست بالتجارة والسلع، بل يظهر أنه مع قيام المرابطين عدد من المراكز التعدينية اصبحت توجه قوافلها التجارية نحو الجنوب بحثا عن الذهب في اودغست ولعل هذا ما يفسر وجود طريقين تجاريين ومعثورات معدن اجافن نتتبث ذلك بما لاشك فيه خصوصا في القرن VI هـ XII م أما القبائل التي كانت تراقب الطرق وتأخذ مكوسا عن ذلك لم تعد تقوم بهذه المهمة، وتحولت الى قبائل تتكون اساسا من مسوفة، وتعتمد الرعي والترحال لضمان عيشها وتلتجيء الى وادي درعة.

ويأتينا الادريسي بمعلومات جد هامة عن تحول المراكز التجارية المرتبطة بممالك السودان من سجلماسة الى أغمات مع قيام دولة المرابطين، وأن الاغماتين مارسوا التجارة مع بلاد السودان الى حين انتهاء سلطة المرابطين. «...وهم (سكان أغمات) املياء تجار مياسير يدخلون الى بلاد السودان بأعداد الجمال الحاملة لقناطير الاموال من النحاس الاحمر والملون والاكسية وثياب الصوف والعمائم والمآزر وصنوف النظم من الزجاج والاصداف والاحجار وضروب من الافاويه والعطر وآلات الحديد المصنوع (...) ولم يكن في دولة الملثم أحد أكثر منهم أموالا ولا أوسع منهم أحوالا (...) وأما الآن في وقت تأليفنا هذا الكتاب أتى على اكثر أموالهم وغيرت المصامدة ما كان تأيديهم من نعم الله..»(33).

4 — عودة إلى الفرضيات :

1.4 — المعلومات التي تحملها النصوص المكتوبة، تؤكد وجود تجارة قوية بين سجلماسة وأودغست، قائمة على تبادل مواد حيوية بالنسبة للاطراف المتبادلة كالادوات والحلي النحاسية

(33) — الادريسي : نزهة المشتاق. ص 232.

والصوف والملح بالنسبة للمواد الموجهة نحو ممالك السودان والتبر بالنسبة للمغرب كمادة مستوردة.

هذه الطريق التجاري عبر الصحراء برز نتيجة وجود مدينة سجلماسة المركز التجاري الهام وملتقى الطرق التجارية وهو الشيء الذي أعطى ديناميكية قوية للطريق الصحراوي المرتبط بممالك السودان.

2.4 ــ تأسيس مدينة أودغست كان نتيجة لهذه الدينامكية التجارية، فأودغست في بدايتها لم تكن الاواحة، تقصدها القوافل للاستراحة لتصبح بعد ذلك مدينة ابتداء من أواخر القرن II هـ/ VIII م على يد قبائل صنهاجية وتدل الحفريات على وجود نشاطات مختلفة للمدينة ابتداء من اواخر القرن II هـ/ VIII م وستزداد أهمية لكونها اصبحت مركزا تجاريا لتبادل البضائع بين ممالك منطقة الساحل الافريقي والتجار السجلماسيين على الخصوص، والى حدود منتصف القرن IV هـ/ X م وهي الفترة التي زار فيها ابن حوقل أودغست لم تكن هذه الاخيرة سوى مدينة «خدمات» للقوافل التجارية مقابل استخلاص مكوس على هذه الخدمات، ولاشك أن أقوال ابن حوقل تنبيء عن حركة تجارية مزدهرة نظرا للمقادير المالية التي تصرف في عين المكان، وطرق الاداء المتقدمة ــ الصك ــ

3.4 ــ هذه الحركة التجارية الهامة ستدفع الى بروز قوة سياسية على مستوى المدينة في أواخر القرن IV هـ/ X م وهذا ما يفسره ابن حوقل بوجود ملك اسمه تنبروتان بن اسفيشر والاسم الاول يشابه الاسم الذي ورد عند البكري وهو تين يزوتات ونجد نفس المعلومات عند صاحب كتاب الاستبصار دون ذكر الاسم.

وأشار ابن حوقل انه «ملك أجمع منذ عشرين سنة» وإذا أخذنا بأن ابن حوقل زار أدوغست بعد سنة 340 هـ/ 751 م فان بداية هذه القوة تعود الى 320 هـ / 932 م أو بعد هذا التاريخ بسنوات قليلة وان الاتباع ازداد عددهم سنة بعد اخرى، وهذا ما أعطى لهذه القوة الناشئة طاقات بشرية سيكون لها أثر كبير على مستقبل الاحداث بالمنطقة، ونتساءل الا يتعلق الامر بحلف صنهاجي أخذ من أودغست عاصمة له ؟ وأن هذا الحلف أول ما بدىء به هو مد سيطرته على ممالك السودان كما نجد ذلك عند البكري وصاحب كتاب الاستبصار، والحديث عن الجزية المؤداة من طرف ممالك السودان يفسر سيطرة الصنهاجيين المستمرة.

4.4 ــ إلى جانب القبائل الصنهاجية التي كونت الحلف الأودغستي، كانت هناك قبائل صنهاجية أخرى تتحكم في الطريق التجاري الرابط بين اودغست وسجلماسة عبر تامدلت، وانها كانت تتكون من قبائل متعزية كشرطة وسمسطة وبني مسونة، تلتف حول زعيم كما يستفلح من شمادق ابن حوقل، وتستخلص ما وسط على القوافل التجارية في الاتجاهين معا.

إن الامر يتعلق إذن بحلفين صنهاجيين، احدهما مستقر بمدينة اودغست والآخر مرتبط بالطريق التجاري اودغست، سجلماسة وأن كلي الحلفين يستفيد من هذه الحركة التجارية، بل ان وجودهما قائم عليها.

5.4 — في أواخر القرن IV هـ/ X م بدأت النشاطات التعدينية تزدهر كما دلت على ذلك الحفريات في أودغست، من حلي وأواني ومزج معدن النحاس بالرصاص لتليينه وكذلك مزج البرونز بالرصاص، والتحاليل التي اجريت على عينات اودغست خصوصا على الافران اتبتت وجود عنصر السلس في بقايا الافران، وهذا يعني ان درجات صهرها للسبائك كانت تفوق 1000 درجة وبما أن درجة صهر النحاس يمكن حصرها في 1984 درجة حرارية والزنك في 907 درجة والرصاص في 1740 درجة، نستنتج أن هذه الافران كانت توجه لمزج النحاس او البرونز بالرصاص، بل ان إحدى السبائك وجد بماحز طولي، ويظهر انها كانت في طريق تهييئها للمزج مع الرصاص ويؤكد هذا الطرح ما كشفت عنه التنقيبات من مجموعة مسابك طينية لازالت تحمل آثار النحاس والرصاص، وجدت بالقرب من الافران الى جانب مسابك طينية على شكل شهد النحل، كانت موجهة لضرب النقود الفضية والذهبية، وهذا المؤشر جد هام لمعرفة ان هذه المعثورات وجدت في المستويات التي تقابل النصف الاول من القرن V هـ/ XI م. وهي الفترة التي ظهر فيها المرابطون ككيان متكامل وتزامن الازدهار الصناعي التعديني لمدنية اودغست إلى حدود ضرب السكة مع بروز المرابطين كقوة أساسية في المنطقة يتيح لنا مجموعة من الافتراضات لفهم تاريخ المرابطين الاول.

إن صنهاجة اودغست نظرا لاحتكاكهما اليومي مع التجار القادمين من سجلماسة وغيرها، ونظرا لكونها أصبحت قوة اقتصادية، بدأت تمارس عمليات تحويل السبائك النحاسية الواصلة من الشمال إلى أواني وحلي لإقبال سكان الساحل الافريقي عليها، ويشكل كل هذا نهضة حرفية تعدينية ارتبطت بتجارة مزدهرة، وسيعرف النصف الاول من القرن V هـ/ XIم. نشاطا مكثفا، ودليل ذلك المعثورات المتراكمة في المستويات الاركيولوجية المقابلة للفترة المذكورة ان الامر لا يعني استقلال أودغست عن الشمال، بل العكس أنها لازالت بحاجة الى سبائك نحاس الشمال، وانما الامر فقط يتعلق باستغلال محلي للسبائك النحاسية بالاضافة الى مواد اخرى، وهذا ما أدى الى التحكم في المبادلات سواء مع الشمال أو الجنوب. وقيام نشاطات بهذا الحكم ستؤدي الى تراكم ثروات صنهاجة اودغست كما سيفتح الباب امامهم للتوسع والخروج من دائرة المدينة للاستيلاء على أطراف التجارة الصحراوية، أي نحو ممالك السودان الى الجنوب، ونحو الشمال باتجاه منابع النحاس.

6.4 — يبقى إذن البحث عن مناجم النحاس التي كانت تزود أودغست بالادوات والحلي والسبائك فيما بعد مسألة اساسية لربط مدينة اودغست بالشمال نحو مناجم النحاس بالمغرب، وهذا لن يتم دون بسط لفرضيتين :

الفرضية الاولى والمتمثلة في ما يسمى بالاطار الاقتصادي المتكامل لمنطقة الساحل الافريقي وتبعا لهذا يجب البحث عن معادن النحاس في هذا الاطار، وهذا ما حاولت تبنيه الباحثة Claudette Vanaker، وباعتراف مجموعة البحث التي تشتغل في أودغست، لا تتجانس معثورات هذه الأخيرة مع معثورات مواقع اخرى توجد الى الشرق وهي مراندي وتكده ازليك، وأدت تحاليل عينات هذين الموقعين الى تمايز كبير بين مكونات معثوراتهما وتلك التي وجدت بأودغست، نفس الملاحظة سجلت بالنسبة لسبائك معدن إجافن حيث ان هذه الاخيرة تحتوي على نسب أكبر من النيكل ونسب أضعف فيما يخص الحديد بالمقارنة مع مخلفات اودغست.

توجد الى الشمال الغربي من اودغست في الموقع المعروف باسم اكجوجت بقايا استغلالات معدنية، الا أن الابحاث التي تمت في عين المكان تعود بهذه النشاطات الى عصور النحاس والبرونز بموريطانيا(34)، ولذلك يستبعد كليا ان تكون اكجوجت وراء تزويد اودغست بالنحاس. أما في حوض نهر السنغال فتم العثور على آثار لاستغلالات نحاسية، إلا أن المعلومات المتوفرة جد قليلة، ولا تسمح ببناء روابط بين هذه الاستغلالات ومدينة أودغست.

فالفرضية القائلة بالاطار الاقتصادي المتكامل لمنطقة الساحل الافريقي تبقى بدون اساس لانعدام مناجم النحاس حول أودغست اولا وثانيا حتى الاستغلالات المنجمية التي عليها لا يمكن أن تغطي النشاطات التعدينية التي عكستها مجموع مخلفات اودغست.

والقول بالاطار الاقتصادي المتكامل لمنطقة الساحل الافريقي يفصل منطقة الصحراء عن محيطها الشمالي، وهذا ما ترفضه النصوص المكتوبة، فالتغطية الحديثة يمكن معاينتها بشكل واضح ليس فقط على المجالات التي توجد فيها أودغست بل الى أبعد من ذلك نحو أعماق ممالك السودان.

يبقى الطرح المقبول والمتماشي مع الحركية التاريخية التي عرفها المغرب بارتباط مع الصحراء فوز وصول الاسلام الى هذه المنطقة، هو التوجه نحو الشمال للبحث عن مناجم النحاس التي قامت بتموين بلاد السودان بالسبائك والمصنوعات النحاسية منذ نهاية القرن IV هـ/ X م(35).

---

(34) Nicole Lambert : Nouvelle contribution à l'étude du chalcolithique de Mauritanie - métallurgies africaines I Nouvelles contributions - Paris 1983 p. 63 - 87

(35) — تعترف Clausette Vanaker بأن معلوماتها حول الاستغلالات المنجمية للساحل الافريقي ضعيفة، وتعترف بنفس الشيء فيما يخص معارفها عن التعدين ومن المناجم المغربية وطرحها لفرضية الساحل الافريقي يبقى دون اساس في غياب هذه المعطيات.

ـــ الفرضية الثانية ويمكن إجمالها في أن مناجم النحاس المغربية هي المزود الوحيد للنشاطات التعدينية بأودغست.

كما تؤكد ذلك النصوص، كانت التجارة الكبرى للقوافل وبدون منازع وراء ازدهار مدينة اودغست، التجارة في القرن IV و V هـ/ X و XI م.

وباعتراف مجموعة الباحثين في موقع أودغست كانت تشكل النشاط الاكثر حيوية للمدينة، وحتى بعد منتصف القرن XI بقيت المدينة محتفظة بنشاطاتها وازدهارها، وأن الادوات المجلوبة ازداد عددها على حساب الادوات المصنعة محليا، بل إن تنوع ونوعية المواد المجلوبة كان له بلا شك تأثير على خمود الافران والصناعات المرتبطة بالتعدين بمدينة أودغست، ونذكر من هذه البضائع المجلوبة الخزف والزجاج، وحسب ما يدلي به الادريسي أن هذه البضائع بدأت تصل الى تكرور على الضفة اليسرى من نهر السنغال، وهذا لا يمكن تفسيره الا بتقدم التجار بحركتهم التجارية الى أبعد من اودغست ولنتذكر ما كتبه الادريسي أيضا عن أهل أغمات وتجاراتهم في عهد المرابطين مع ممالك السودان، وتتطابق المعثورات في أودغست مع ما ذكره الادريسي حول البضائع التي كان يتاجر بها اهل أغمات من نحاس أحمر وملون وصنوف من الزجاج والاصداف والاحجار.

وبهذه الحركة التجارية يمكن تفسير تعدد مراكز التعدين النحاسي بالمغرب، على الخصوص من القرن X و XIII م / IV و VII هـ، لاقامة تجارة متواصلة مع بلاد السودان. ويؤكد هذا الطرح العثور على سبائك نحاسية بموقع يعرف بمعدن إجافن الى الشمال الشرقي من موقع أودغست وهو عبارة عن بقايا لقافلة هلكت في عين المكان وتركت ما يقارب ب 2000 سبكة نحاسية التحاليل التي تمت على سبائك معدن إجافن أثبتت مكونات تختلف عن سبائك اودغست، وربما قد تزودت من مركز تعدين يوجد بالقرب من المحيط ولتأسيس طريق تجاري محاذي للمحيط نحو ممالك السودان وعلى الخصوص نحو «ولاته» وسبائك معدن إجافن تحتوي على نسبة من النيكل ونسب ضعيفة من الحديد، كما أمكن تحديد أعمار السبائك كالتالي.

ـــ 1165 + 110 سنة : وهذا يعطينا فترة تمتد من 1055 م الى 1275 م / 446هـ إلى 673 هـ.

ـــ 1090+108 سنة وتعطي فترة تمتد من 978م إلى 1198م/367 هـ إلى 593هـ والطريق التجاري الذي سلكته قافلة إجافن وصفها الادريسي، ويمكن القول إن هذا الطريق لم يكن مستعملا على الاقل قبل النصف الثاني من القرن V هـ / XI م فإذا أزلنا من التواريخ التي حصلنا عليها من خلال عمليات تحديد الاعمار تاريخ 978 م بالمرة يبقى تاريخ 1055 مشكوكا فيه، على العكس من ذلك يحظى تاريخ القرن XII م بمصداقية أكبر.

ونستخلص من كل هذا أن الطريق الذي وصفه ابن حوقل في منتصف القرن IV هـ X م والبكري في القرن V هـ/ XI م وصاحب كتاب الاستبصار في القرن VI / XII م والذي يربط بين سجلماسة وأودغست عبر تامدلت هو الذي كان يؤمن المبادلات التجارية بين اودغست ومعادن النحاس المتوفرة بكثرة في جبال الاطلس الصغير فالبكري تحدث عن منجم للنحاس يسمى تنوداون(36) والذي يمكن ان يوجد بالمنطقة المتعدنة لآيت أحمان وربما الامر متعلق بمنجم البليدة حيث تم اكتشاف آثار استغلال قديم ممتدة على طول 4 كلمترات(37)، البكري كذلك يومىء الى منجم للنحاس يوجد على الطريق الرابطة بين سجلماسة وأغمات، وعلى بعد يومين من سجلماسة، يسمى تيحمامين(38)، وربما الامر يتعلق بمنجم بو معادن والذي توجد به كذلك آثار لاشغال قديمة كما يوجد الى جانب هذه المواقع المنجمية، منجم وانسيمي جنوب تزنيت، بالإضافة الى مجموعة أخرى استغلت بشكل كثيف مثل أكوجكال، تاسريرت بالاطلس الصغير، منجم بونحاس الى الشمال الشرقي من زاكورة والبليدة الى الجنوب الشرقي من وارزازات(39) الا أن أهمها يبقى منجم تازلاغت لقربه من مدينة تامدلت، ولاهمية التعدين الذي كان يمارس داخل نفسه.

7.4 — يجب وضع حركة عبد الله بن ياسين ويحيى بن ابراهيم ثم يحيى بن عمر من بعد في إطار توحيد حلفي صنهاجة : حلف أودغست وحلف والطريق التجاري وما يذكر من اعتزال عبد الله بن ياسين مع أصحابه في رباط(40)، قد يعكس نمط عيش الحلف الصنهاجي المرتبط بالطرق في مواجهة الصنهاجيين المستقرين بأودغست، ويصعب وضع اطار او فهم للاحداث التي ستجري ما بين 430 و 448 هـ/ 1039 و 1056 م. إلا انه يمكن طرح مجموع احتمالات.

— ان عبد الله بن ياسين أسس رباطه وتوسع على حساب صنهاجة الرحل، وأنه توجه الى الشمال ليسطر على سجلماسة المركز التجاري الهام، وهذا ما يفسره المؤرخون بالنداء الذي وجهه فقهاء المدينة لتخليص سجلماسة من «الظلم» وهنا يمكن بناءا على معطيات البكري القول بسقوط سجلماسة في يد المرابطين سنة 445 هـ/ 1053 م وبعد تأمين الشمال يعود عبد الله بن ياسين نحو الجنوب للسيطرة على أودغست سنة 446 هـ/ 1054 م ويقول البكري ان المرابطين أستباحوا المدينة، وبعد ذلك يقرر عبد الله بن ياسين الرجوع الى سجلماسة الذي تم فيها تمرد على

(36) — البكري 156.

(37) — موسى السعدي : الاستغلال المنجمي العربي في القديم وأثره على التكنولوجيا الحديثة مجلة الثروة المعدنية بعد ص 18 — المنظمة العربية الثورة المعدنية — الرباط 1983.

(38) — البكري ص 152.

(39) — موسى السعدي : الاستغلال المنجمي العربي في القديم وأثره على التكنولوجيا الحديثة مجلة الثورة المعدنية بعد ص 18 — المنظمة العربية للثورة المعدنية — الرباط 1983.

(40) — نظرا لموقع أودغست، فان من الارجح ان رباط عبد الله بن ياسين اسس على مصب نهر السنغال الى الغرب من أودغست.

القوة التي تركها المرابطون بالمدينة دائما حسب البكري الا ان جدالة رفضوا الانصياع لعبد الله بن ياسين للتوجه مرة ثانية الى سجلماسة لينطلق الى تامدلت حيث عمل على تكوين جيش وهنا سيبرز اسم أبي بكر بن عمر في حين تحصن يحيى بن عمر بجبل لمتونة الى أن قتل على يدي جدالة سنة 448 هـ/ 1056 م، ويظهر أن عبد الله بن ياسين وأبي بكر بن عمر اعادا الاستلاء على سجلماسة بشكل سلمي قتل سنة 449 هـ وهي السنة التي استوليا فيها على مدينة أغمات.

ـ الاحتمال الثاني أن عبد الله بن ياسين مد سيطرته في البداية على أودغست قبل 445 هـ / 1053 م ثم انطلق بعد ذلك نحو سجلماسة الا أن النصوص لا تعضد هذا الاحتمال.

ـ الاحتمال الثالث : ان بعض ممالك السودان أو بعض القبائل الصنهاجية او كليهما، حاولوا ان يحلوا محل الراحلين، وأن هذه المحاولات عرفت صراعا بين القوى الطامعة في السيطرة على المدينة، والبكري يشير الى الصراع الذي كان قائما بين زناتة والعرب، وأن المدينة في هذه الظروف كانت تحت سيطرة ملك غانة، ولهذا السبب نقم عليها عبد الله بن ياسين، فاستباح المدينة بكل ما فيها، فقتل رجالاتها وهدم مبانيها.

المعطيات الاركيولوجية لفترة منتصف القرن XI م / ٧ هـ تكشف على تعرض الافران لعملية هدم متعمد، فهل الامر يتعلق بما ذكره البكري عن غزوة عبد الله بن ياسين لاودغست سنة 446 هـ/ 1054 م واستباحته للمدينة ؟ وعمليات الهدم التي تتحدث عنها الوثائق الاركيلوجية، هل كانت تعكس رغبة المرابطين في القضاء على الامتيازات التي كانت تعرفها المدينة والتقليل من أهميتها الاقتصادية ؟

ولوحظ من خلال التنقيبات الاثرية أنه ابتداءا من هذا التاريخ تناقصت بشكل كبير إنتاجات اودغست، من خلال تناقص المخلفات الاثرية التي صنعت في عين المكان، وعادت اودغست كما كانت قبل نهاية القرن ١٧ هـ/ X م محطة تجارية فقط وتعتبر هذه الفترة جد هامة لفهم الاحداث التي نقلها الاخباريون فسنة 445 هـ/ 1053 م تعتبر انتهاء مرحلة التوحيد الكلي لصنهاجة والنجاح في الدفع بهذه القبائل نحو الشمال وبعد السيطرة على سجلماسة المركز التجاري نجد أول أهداف القيادة الجديدة عبد الله بن ياسين، أبو بكر بن عمر ويوسف بن تاشفين هو السيطرة على سوس، وذلك ما تم ما بين 448 و 450 هـ/ 1056 و 1058 م وليس من باب الصدف أن تأخذ منطقة سوس باهتمام المربطين الى هذه الدرجة دون ان يكون هناك وازع مرتبط بمعطيات سجلماسة وأودغست والخط التجاري نحو ممالك السودان. فمنطقة سوس والاطلس الصغير على الخصوص كان يختزن مناجم النحاس التي توفر المادة الاساسية في الاتجار مع ممالك السودان للحصول على الذهب الذي ستزداد حاجة الدولة الجديدة اليه، وما يحكيه الاخباريون عن رجوع أبي بكر بن عمر نحو الصحراء لنشوب صراع بين بعض القبائل الصنهاجية، أليس مبعثه

بالدرجة الأولى تأمين الطريق التجاري نحو منابع الذهب ؟ في نفس الفترة يؤسس خلفه بالشمال قاعدة يتحصن بها، فتم تأسيس مدينة مراكش ابتداء من 454 هـ/ 1062 م لتبتدىء مرحلة ثانية للتوسع نحو الشمال والشرق، تبتدىء من 455 / 1063 م الى 473 هـ/ 1080 م يتم خلالها الاستيلاء على فاس، تازة أجرسيف، وجدة، تلمسان، وهران. ثم لينتقل الاهتمام بعد ذلك الى الاندلس الى حين انتهاء الدولة المرابطية على أيدي الموحدين.

8.4 ـــ غياب أنشطة اودغست التعدينية ستعوضه مؤقتا مدينة أغمات ثم مراكش بعد ذلك بدليل ما يحكى عن النحاس المسبوك والمصنع الذي يحمل من أغمات نحو بلاد السودان، واختيار مراكش لم يكن اعتباطيا فالموقع ملتقى مجموع طرق، زيادة على أنها تشكل قاعدة خلفية للانطلاق نحو الشمال فكان طبيعيا أن تكون مراكش قلب الامبراطورية الجديدة وعاصمة لسلطة ووحدة سياسية واقتصادية وفقهية تمتد من شواطىء المتوسط الى أعماق الصحراء، دون أن ننسى الاندلس. مدينة مراكش ستصبح معقلا للانشطة الصناعية المتنوعة، ومنها كانت تنطلق القوافل نحو ممالك السودان وحاجة المرابطين الى الذهب ستزداد مع توسع دولتهم وكان طبيعيا أن يؤثر هذا على حركة القوافل التي ستعرف ازدهارا كبيرا بدليل أن المستويات الاركيولوجية لمدينة أودغست والتي تقابل النصف الثاني من القرن V والقرن VI هـ/ XI / XII م. بل على العكس من ذلك، أن عدد المعثورات الغير نحاسية ازداد وخاصة ما يتعلق بالخزف وعجينة الزجاج وهذه الظاهرة جد طبيعية تبعا لما تطرقنا اليه سابقا من تحول أودغست الى محطة تجارية لنقل البضائع المتنوعة نحو ممالك السودان وعمليات التعدين والتحويل التي كانت تمارس في أودغست نتقلت الى الشمال الى أغمات ومراكش عمليات كانت توفر المادة الاساسية في الاتجار مع السودان، كان لابد لها أن تبقى تحت مراقبة المرابطين.

الخاتمـــــة

إن الافتراضات المقدمة في هذا البحث تنطلق من قراءة مباشرة للمخلفات الاثرية ومقارنة التحليلات ودراسة العينات التي تم استخراجها من موقع أودغست ومنجم تازلاغت، مع النصوص المكتوبة. ونلاحظ تطابق الاحداث بشكل عام مع الاطار الاركيولوجي الذي تم الكشف عنه من خلال التنقيبات التي تمت في عين المكان.

فهل من الصدفة ان يطابق قيام نشاط تعديني من أواخر القرن ١٧ هـ/ X م الى منتصف القرن ٧ هـ/ XI م للحصول على أدوات اعتبرت حيوية للحصول على ذهب ممالك السودان، مع بروز قوة تحكمت في هذه التجارة ؟ وهل من الصدف أن الفترة التي شهدت انتقال هذه القوة نحو الشمال حوالي 445 هـ/ 1053 م تم فيه توقف النشاط التعديني الذي كانت تمارسه أودغست ؟ وهل من الصدف أن تتقوى المبادلات التجارية عبر أودغست، ببضائع جديدة دون نسيان النحاس كمادة أساسية لهذه التجارة وأن هذه المبادلات تنطلق من أغمات بالقرب من المركز الجديد مراكش الذي أسسه المرابطون كعاصمة لهم ؟

وهل من الصدف أخيرا أن يعود أحد أعمدة القوة الجديدة أبو بكر بن عمر الى الصحراء لتأمين الطريق التجاري الذي يضمن وصول الذهب الى الدولة الجديدة ؟

ان محاولة سد مجموعة من الثغرات حول تاريخ المرابطين الاول يقتضي البحث والتنقيب عن المادة الاركيولوجية التي يمكن ان تزيد من معلوماتنا أو تقومها، خصوصا فيما يتعلق بالاطار الاقتصادي الذي أعطى ما يعرف في التاريخ بدولة أو امبراطورية المرابطين، يبقى اذن توسيع البحث في مواقع التعدين ومناجم النحا، على الخصوص بالاطلس الصغير، وبعض المواقع الاثرية وبصفة خاصة سجلماسة تامدلت وأغمات، والتنقيب في هذه المواقع يمكن أن يمدنا بمادة أركيولوجية نستطيع من خلالها اثبات الارتباط التجاري الذي كان قائما بين أودغست والمراكز التجارية بالشمال، ويمكن من خلالها فهم أعمق لمجموعة الاحداث التي رافقت صعود المرابطين، إنه في نهاية المطاف الاختيار ذو المردودية العالية لاعادة بناء أحداث ووقائع الدولة المرابطية على مجموع المستويات المادية والروحية والاجتماعية والثقافية.

العوام في مراكش خلال عصري المرابطين والموحدين

ابراهيم القادري بوتشيش
كلية الآداب — مكناس

على كثرة ما كتب حول مراكش(1)، فإن معظم الدراسات الحديثة غيبت تاريخ العوام في هذه المدينة، رغم الدور الطلائعي الذي لعبه هؤلاء في رسم معالم تطورها وتشكيل مسارها التاريخي.

ومن نافلة القول، أن الانتاج الأجنبي عمد — عن قصد — تهميش هذه الفئة وطمس دورها، لارتباط المد الشعبي آنذاك بحركة التحرر فضلا عن اقتصار الأبحاث إبان المرحلة الاستعمارية على ما يخدم مصالح التوجهات الكلونيالية(2).

غير أن مثل هذا الغياب في الانتاج الوطني نقطة يجب الوقوف عندها لأنها — فيما ازعم — تشكل ثغرة لم يتم تجاوزها بعد، وهو أمر راجع في تقديري الى شحة النصوص، وتناثرها بين أمهات المصادر، فضلا عن ندرة المصنفات التاريخية المونوغرافية الخاصة بمدينة مراكش خلال العصر المرابطي والموحدي(3)، ناهيك عن كون قسط وافر من مصادر تاريخ المغرب العام لذات الحقبة قد عفا عنه الزمن(4).

---

(1) ثمة دراسات كثيرة ومتنوعة حول مدينة مراكش وتاريخها نذكر من بينها بعض الأمثلة فقط :

- Deverdun : Marrakech des origines à 1912 ed. Rabat 1959

- Le blond : une metropole africaine : Marrakech. ed. Paris 1905

- Terrasse : Les monuments almoravides de Marrakech acts du XXI congrès des orientalistes. Paris 23 - 31/6/1948

وقد أنجزت الدكتورة منى حسن محمود أطروحة جامعية حول مراكش في العصر المرابطي بكلية الآداب جامعة القاهرة.

(2) ارتبطت أغلب الأبحاث الإستعمارية بالمصالح العسكرية أو السياحية والبشرية كما نلمس ذلك من خلال النماذج التالية :

CORAP. Notes sur l'occupation de Marrakech Sept 1912 Revue militaire franç. Av 1924

-ENIVAL : L'eglise chretienne de Marrakech au 13 c Heperis 1927.

(3) إذا كانت بعض المؤلفات حول مراكش قد كتبت في الحقبة الحديثة فإن نظيرتها في العصر الوسيط قليلة جدا حسب ما ذكره ابن سودة، يوجد مصنف وحيد بعنوان تاريخ حفيل في التعريف بمن قدم مراكش من العلماء «لأبي العباس أحمد بن محمد بن علي بن أحمد بيرة الأنصاري الخزرجي الذي يرجح أنه عاش في القرن الخامس أو السادس الهجري بدليل ما ذكره صاحب الدليل والتكلمة بأنه وقف على معلقات منه بخط أبي العباس أحمد بن هرون المتوفى سنة 609 هـ انظر : ابن سودة : دليل مؤرخ المغرب الأقصى ج 1 طبعة البيضاء 1960 ص 36.

(4) من بين المصادر الضائعة الراجعة إلى عصري المرابطين والموحدين نذكر على سبيل المثال : «الأنوار الجلية في أخبار الدولة المرابطية» لابن الصيرفي وكتاب «المقتبس في أخبار المغرب وفاس والأندلس» لأبي عبد الله بن حماد السبتي والمغرب في محاسن أهل المغرب لأبي اليسع بن عيسى بن حزم «والمغرب عنه سيرة ملوك المغرب» لمؤلف مجهول انظر مزيداً من التفصيل عند محمد المنوني : المصادر العربية لتاريخ المغرب ج 1 طبعة البيضاء 1983 ص 37، 48، 55.

وقد سبق أن أبرزنا في دراسات سابقة[5]، الخلفيات الفكرية والاجتماعية التي كانت وراء تهميش طبقة العوام، لا نرى ضرورة الخوض فيها من جديد إلا أن ذلك لا يحول دون التأكيد على هذه المعضلة تعزى أساسا الى عجز مؤرخي العصر الوسيط عن الرؤية الواقعية لمسار حركة التاريخ الاجتماعي، والنظر الى التاريخ عموما على أنه تراكمات حديثة للعصور والأشخاص والدول، دون تفهمها في تفاعلاتها المتبادلة التي تنتظمها لتشكل منها ظاهرات شمولية وهذا ما يفسر عدم حضور العوام في المصادر المغربية باستثناء إشارات شاحبة وردت بكيفية عفوية على رؤوس أقلام المؤرخين، ولكنها إشارات تزخر بالتشويه والتعريف، وتنطق بالعداء السافر والمقت والحقد الدفين.

ونعتقد أن تعامل المؤرخين مع العوام لا يعزى الى موقفهم «السياسي» فحسب بل يرد كذلك الى المكانة التي احتلها هؤلاء في المخيلة الاجتماعية — أي العوام — في هذا المخيل، سواد الناس الذين لا يملكون السلطة ويعيشون في عال له أبعاده الفكرية والدينية التي تتدنى عن مستوى عالم «الخاصة»، ومن ثم فإن إهمالهم وتهميشهم يظل مسألة مشروعة حسب هذه النظرة الضيقة.

ونحن لا نناقش مدى الصحة أو زيف هذا الموقف، ولا نحاكم مؤرخ العصر الوسيط انطلاقا من جهاز مفاهيمي معاصر إلا أن من حقنا أن نتساءل : هل كان ثمة مبرر لتغييب دور العوام في تاريخ مراكش.

لا يمكن للباحث المنصف إلا أن يتأسف لكون هذه الطبقة الاجتماعية لم تخلف لنا أثرا نستعين به لأماطة اللثام عن ذلك الدور، وكشف النقاب عن أوضاعها وفي ذات الوقت عليه أن يتخذ الحيطة والحذر من المواقف الرسمية للمؤرخين ويبقى التجاؤه الى المصادر الدفينة من كتب الطبقات والتراجم والنوازل والحسبة وغيرها، أهم الأدوات التي يعول عليها لاستقاء مادته ورؤية حقيقة هذه الطبقة.

والواقع أنه ما يكاد المرء يتحرر من المؤلفات الرسمية حتى يجد نفسه أمام حقيقة الدور الطلائعي الذي لعبه العوام من أبناء المجتمع المراكشي ولا غرو فإن بناء مراكش ذاتها لم يكن ليتم لولا تظافر طاقاتهم العضلية، وكدهم الدؤزب حتى أن مؤرخا[6] اعتبر مساهمة الأمير المرابطي يوسف بن تاشفين في «العمل في الطين» مع من أسماهم بالخدمة — مشيرا الى البنائين — حسنة من

---

(5) ورد ذلك في بحث شارك به كاتب هذه السطور في مؤتمر اتحاد المؤرخين العرب المنعقد ببغداد بتاريخ 27 — 29 ديسمبر 1987 وكذلك في بحث على وشك النشر قدم لندوة نظمتها كلية الآداب بوجدة حول المغرب الشرقي بتاريخ 13 — 16

(6) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب طبعة الرباط 1973 ص 138 ويذكر أن «يوسف بن تاشفين كان يشاركهم عملهم تواضعاً منه»

حسناته التي سجلها له بفخر واعتزاز، وهو أمر يفصح بكيفية غير مباشرة عن دورهم في بنائها واحتيازهم قصب السبق في هذا العمل المشرف.

وعلى أكتاف العوام كذلك، امتدت الدولة المرابطية لتفيىء بظلالها ربوع المغرب والأندلس، حيث كانت الحملات التوحيدية والجهادية تنطلق من مراكش التي وجدت فيها أعداد هائلة من الجنود المتطوعة[7].

ولا سبيل إلى الشك في أنهم شكلوا كذلك الطاقة المحركة لانتاج الخيرات المادية للمدينة ولعل تواجدهم في الأسواق والمصانع والمزارع — كما سنبين — ينهض قرينه على الدور الرائد الذي قاموا به، فيما يعطي مشروعية اخراجهم من ركام النسيان، وبالتالي استجلاء معالمهم وأوضاعهم.

ولا يخامرنا شك في وجود علاقة وثيقة بين قيام الدولة المرابطية وبناء مراكش ونمو طبقة العوام، إذ ما كاد يمر على تأسيس المدينة مدة يسيرة، حتى أصبحت العاصمة الجديدة كمدينة كبرى تعج بالأسواق والمصانع[8]، واتجهت الهجرات الأندلسية صوبها بعد أن خيم عليها مناخ الاستقرار السياسي، فنما عدد العوام إلى أن بلغ مائة ألف كانون إذا ما صدقنا رواية الوزان[9] وقد شمل هذا الرقم خليطا من جماهير قبائل متعددة يحددها الادريسي[10] في قبائل نفيس وبنو يدفر ودكالة ورجراجة وزودة وهسكورة وهزرجة.

ثم جاء المد الموحدي ليعطي لمراكش زخما جديدا ويجعل «العامة» في واجهة الأحداث بعد أن شجع الخلفاء الموحدون الصناعة والتجارة ووفروا الخدمات والحرف الدقيقة وإذا كنا لا نملك احصائيات حول السكان وهم السواد الأعظم من العوام فإننا نفترض أن عددهم يكون قد ارتفع نتيجة العوامل الآنفة الذكر وتحول الوتيرة السكانية وسرعة ايقاعها في مراكش، مما أهلهم لكي يلعبوا أدوارا متنوعة.

ويمكن تمييز، بعض أصنافهم من خلال ما تركته لنا المصادر، ويأتي في مقدمتهم شريحة الصناع الذين تميزوا بمهارتهم وإبداعهم حتى أن الخلفاء الموحدين كانوا يطلبون من حدادي مراكش أن يصنعوا لهم القيود الخاصة بتكبيل السجناء[11] بل مما يدل على حدقهم ومهارتهم أن الخليفة

---

(7) المراكشي : المعجب في أخبار المغرب طبعة الدار البيضاء 1978.ص 343.

(9) وصف إفريقيا ج 1 طبعة الرباط 1980 ص 100

(10) ضفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس طبعة ليدن 1894 ص 45.

(11) البيذق : أخبار المهدي بن تومرت طبعة الرباط 1971 ص 79.

الموحدي أبا يعقوب طلب من الصناع أن ينقشوا في سيفه عبارات يخلد فيها اسمه فتم له ذلك(12) كما كانت لهم اليد البيضاء في جعل قصر الصالحة اية من الفن والروعة(13).

وإذا كان اتقان عملهم وحضور عبقريتهم مسألة لا يرقى اليها الشك، فإننا لا نعرف بعض التفاصيل حول وضعيتهم، وإن كان يلوح أنهم تمتعوا بمكانة مستحسنة إبان ازدهار ازدهار الدولة الموحدية بدليل الرواج الصناعي الذي ساد مراكش في تلك المرحلة حتى أن ابن سعيد(14) شبهها ببغداد، فضلا من تمتعهم بالاعفاءات الضرائبية إلا أنه من الراجح أن اليد العاملة المجلوبة من الأندلس(15) حالت دون ظفرهم بنصيب الأسد من الامتيازات التي وفرتها هذه الوضعية ولعل هذه «المزاحمة» هي التي جعلت بعض صناع مراكش يحترفون صناعات متواضعة كصناعة القدو، للتعيش بها(16) هذا في الوقت الذي ظلوا يعانون من ثقل الضرائب في العصر المرابطي كما تكشف ذلك بعض المصادر(17).

أما البناؤون فلم يكونوا في وضعية مريحة كما يستشف ذلك من خلال كتب المناقب والتصوف فقد كان يزج بهم في مكان يدعى «الموقف»(18) حيث يتقدم كل راغب في الاستئجار، وينتظر من يستخدمه في أعمال البناء وإذا ما حالفه الحظ في ايجاد من يستأجره، فإنه غالبا ما كان يتعرض للمماطلة في أداء أجره، وهو ما حدث لرفيق أبي العباس السبتي حين دخل مراكش في بداية الدولة الموحدية، فتقدم لاصلاح بنيان أحد المنازل، وحينما أتم عمله ماطله صاحب المنزل في أداء الأجرة فرجع خاوي الوفاض. وتحدثت النصوص عن بعض الأخطار التي تعرض لها البناؤون مثل سقوط الجير على اليدين والأرجل وهو ما حدث للرفيق المذكور.

---

(12) ابن عذاري : البيان المغرب القسم الخاص بالموحدين طبعة البيضاء 1985 ص 100 والعبارة التي طلب من الصناع نقشها هي : «لأمير المؤمنين بن أمير المؤمنين»

(13) ابن عذاري : م.س.ص 174.

(14) المقري : نفح الطيب ج 3 طبعة بيروت 1968 ص 153.

(15) ن.م.ص المذكورة.

(16) ابن الزيات : كتاب التشوف لرجال التصوف طبعة الرباط 1984 ص 414

(17) الادريسي : م.س ص 45 ومن الأكيد كثرة الضرائب هي التي جعلت قاضي المرية يحتج لدى يوسف بن تاشفين ويطلب منه أن يقسم ألا يوجد في بيت المال درهم.

(18) حين وقف أبو العباس السبتي المتصوف المشهور على مشارف مراكش طلب منه خديمه السماح له بدخول مراكش طلباً للرزق من حرفة البناء فدخل المدينة وبقي ينتظر في الموقف وهذه الكلمة لازالت مستعملة إلى الآن انظر : مؤلف مجهول : مناقب الشيخ أبي العباس السبتي (مخطوط) ورقة 156 ط.

(19) نفس المرجع والصفحة.

(20) التادلي : المعري في مناقب الشيخ أبي يعزى (مخطوط) ورقة 156 ط

وفي الأسواق تظهر حرف أخرى احترفها العوام كحرفة الدلالة في السلع[21] أو الخياطة[22] وبصدد هذه المهنة يمكن القول على أنها لم تكن تـف بأبسط الحاجيات لصاحبها، إذ تذكر بعض الروايات أن أحد الخياطين استحاب لأبي العباس السبتي في التبرع بدينار لأحد الفقراء غير أنه اشتكى بفقره، وأنه لم يملك سوى ذلك الدينار[23] كما كان هناك الباعة المتجولون الذين لا نعرف عنهم الشيء الكثير ولا يساورنا شك في بعض النزعات التي تقوم بين العوام خاصة في مجال البيع والشراء[25]. وتظهر نصوص أخرى حرفا شتى كالبوابين أو خدمة المنازل حيث تكثر الاشارات أحيانا الى الخادمات اللائي يعملن في البيوت الارستقراطية[26]. وهناك أيضا الجنود الذين قذفت بهم ظروف العيش الى مراكش لكسب معاشهم في المساهمة في الحروب وقد عدهم المراكشي[27] بعشرة آلاف نفس في العصر الموحدي كما يرد ذكر الجنانين وهم عامة الزراعين الذين كانوا يشتغلون في أجنة وبساتين الارستقراطية، وقد كانوا يعانون من ظروف طبيعية مجحفة تتمثل بالخصوص في هبوب الرياح الشرقية التي عاقت عملهم الانتاجي[28].

أما من لم يسعفه الحظ في ايجاد حرفة ما، فإنه كان يلجأ الى الغصب واللصوصية[29] ويبدو أن اللصوص في مراكش كانوا ينتمون الى أصول اجتماعية فقيرة مظلومة نشأت من التحولات التي عرفتها المدينة وزيادة الترف والاستهلاك وارتفاع الأسعار وهي تطورات خلقت طبقات اجتماعية عاجزة عن كسب رزقها ناقمة عن الأوضاع مما حدا بها الى احتراف أعمال اللصوصية.

وإلى جانب هؤلاء الذين فتح أمامهم بريق من الأمل في معاركة الحياة وجد من عوام مراكش من لم يبتسم لهم الحظ، فلم يجدوا حرفة يرتزقون بها ولذلك دخلوا في عداد الفقراء والمساكين. والواضح أن الفقر الذي شكل ظاهرة اجتماعية في عاصمة المرابطين ثم الموحدين بعدهم أثار انتباه بعض الحكماء، من أمثال أبي العباس السبتي فجعله منطلق فلسفة اجتماعية.

---

(21) ابن الزيات : م.س.ص 393 ويذكر أن أبا علي حسين بن عبد الله صار يحترف دلالا في قيسارية مراكش.

(22) نفسه ص 295.

(23) مؤلف مجهول : مناقب الشيخ أبي العباس السبتي : ورقة 102 (مخطوط).

(24) ابن الزيات : م.س.ص 359 ويذكر في ترجمة أبي محمد عبد الواحد بن تومرت المسكوري أنه كان يبيع الباقلاء ويحمله على رأسه في سوق مراكش.

(25) الونشريسي : المعيار المغرب : 102 طبعة بيروت 1981 ص : 23.

(26) المعجب ص 483 — 106.

(27) ابن سعد : النجم الثاقب ص 131 (مخطوط) مؤلف مجهول : مناقب الشيخ أبي العباس السبتي ورق 106.

(28) ابن الزيات : أخبار أبي العباس السبتي ص ورقة 206 من الوجهين (مخطوط)

(29) ابن الزيات التصوف ص 393 — 394 ويذكر ترجمة أبي علي حسن بن عبد الله المعروف بابن يابو أنه تعرض في مراكش لعملية اغتصاب فرسه وثيابه.

لقد أصبحت مراكش تعج في القرن السادس الهجري بجيوش من العاطلين والمحتاجين ولعل ذلك كان وراء حركة المتصوفة الذين وجهوا كل همتهم لمساعدة هذه الفئة المتضررة ويخبرنا في الصدد ابن الزيات(30) بأن أحد المتصوفة ويدعى أبا الحجاج الضرير تلقى مبلغا ماليا من أحد الأمراء المرابطين فلم يخرج من مراكش «حتى فرقه على المساكين» وكانت «الفتوح» وهي نوع من الإحسان اشترطه أبو العباس السبتي المذكور على كل من أقبل عليه يستوهب دعواته تصب في هذا الاتجاه وحسبنا أنه كان يقصد به التصدق «على سبيل الله لمن ظهر عريان، وكبده جيعان، وعينيه ساهرة من الدين»(31) بل إن هذا المتصوف كان ينادي في أسواق وطرقات مراكش مطالبا الناس بالتبرع على المحتاجين(32) ومن الأمثلة التي يمكن أن نسوقها كدليل على انتشار الفقراء في هذه المدينة هو أن رجلا وضعت إمرأته فلم يجد ما يمون به مولوده الجديد(33) وذكر ابن الزيات(34) رواية مؤداها أن رجلا آخر أصابته فاقة فظل يومين دون أكل الى أن أجبر على رهن لباسه لشراء رغيفين. وكانت قساوة البرد تضر ببعض الفقراء فتحرمهم من النوم(35) ووصلت الفاقة ببعض الأسر المراكشية الى الاقتصار في طعام سحورها خلال شهر رمضان على الخبز(36) فحسب، ولعل هذا ما يفسر انتشار ظاهرة التسول كما يتضح ذلك من خلال بعض النصوص(37). وتدخل شريحة المتصوفة والزهاد ضمن طبقة العوام، فعلى الرغم مما تورده بعض الروايات حول تبرعهم على بعض الفقراء، فإن ذلك لم يكن سوى هبة وهبت لهم وحسبنا دليلا على فقرهم أن أحد المتصوفة ويدعى أحمد بن محمد الغرفي لم يوجد عنده بعد وفاته ما يكفن به(38).

وتندرج ضمن طبقة العوام كذلك شريحة الرقيق التي تكونت من أسرى الحروب، خاصة عندما نجحت حركة الموحدين من اجتثات جذور المرابطين والسيطرة على مراكش، إذ حول الاحرار الى عبيد «وبيعوا بيع الأسرى المشركين هم ونساؤهم وذراريهم»(39) كما تكونت من أسارى الحروب مع القبائل الثائرة وفي هذا المجال يذكر البيذق(40) أنه في أوائل الدولة الموحدية سيقت بعض الغنائم

(30) كتاب التشوف : ص 106.

(31) مؤلف مجهول : مناقب الشيخ ورقة 102.

(32) نفس المرجع والورقة.

(33) ن.م ورقة 103 ظ

(34) التشوف ص 405.

(35) ابن الزيات : أخبار أبي العباس السبتي ورقة 201 و

(36) مؤلف مجهول : م.س ورقة 103 و

الى مراكش و «بيعت بباب الشريعة الكزوليات واللمطيات» وتحوي شريحة الرقيق كذلك أسارى الحروب مع النصارى، إذ بلغ عدد أسرى الزلاقة خمسين ألف أسير قادهم يوسف بن تاشفين الى مراكش على ظهور الجمال(41). وفي سنة 532 ه عاد الأمير المرابطي تاشفين ابن علي من الأندلس محملا بستة آلاف سبية دخل بها العاصمة(42) هذا فضلا عن بعض السود الذين قادهم حظهم التعس الى مراكش(43).

وينقل الونشريسي(44) بعض النوازل حول رقيق من النصارى وجدوا في حالة تأهب للفرار نحو بلاد الافرنجة في التخوم الأندلسية، ولما تم القاء القبض عليهم استظهروا بعقود مكتوبة في مراكش تنص على أنهم اشتروا حريتهم من أسيادهم.

وربما زاد الأمر تعقيداً حتى أصبح بعض الأحرار ينتسبُون إلى العبودية ويحتاجون إلى إعطاء الدليل حتى تثبت حريتهم وقد رفع سيل من هذه المسائل إلى قاضي الجماعة بمراكش(45).

ومما يدل على تدني وضعية العبيد في هذه المدينة أن صفة العبد كانت من أقسى الصفات الدنيئة التي ينعت بها المرء(46).

ورغم أن النصوص لا تسعفنا في تكوين رؤية واضحة عن العبيد، فليس من المستبعد أن يكونوا قد عوملوا معاملة تشييئية ولدينا نص يذكر أن الخليفة الموحدي يعقوب المنصور، عندما أراد الزيادة في بنيان مراكش كلف العبيد بهدم السور القديم وما علينا إلا أن نتصور هذه المهمة الشاقة(47).

وحتى المعلمين بحكم وضعيتهم المادية يمكن ادراجهم كشريحة من طبقة العامة، إذا كانوا يعيشون وضعا لا يحسدون عليه، فالرواتب التي كانوا يتقاضونها لم تكن تكفيهم لاقامة الاود. وإذا كان الحسن الوزان(48) يذكره ان راتب المعلم بلغ مائة أو مائتي مثقال حسب نوع الدروس التي يلقيها دون توضيح ما إذا كانت كافية أم لا، فإن ابن الزيات(49) يذكر في نص آخر أن أبا العباس

(41) الزياتي بغية الناظر (مخطوط) ص 121.
(42) ابن أبي زرع : م.س ص 164.
(43) نفسه ص 140
(44) المعيار ج 2 ص 179.
(45) نفسه ص 514.
(46) نفسه ص 54 514.
(47) ابن عذاري : م.س.ص 153 — 154.
(48) الوزان، م.س.ص 104.
(49) أخبار أبي العباس السبتي ورقة 195 و

السبتي الذي درس بأحد الفنادق، خصص له رسم من بيت المال، ولكن من خلال تصفح حالته الاجتماعية يتبين أن هذا الراتب تميز بالهزالة. بل أن أجرة معلمي الكتاب تنهض دليلا على الفقر المدقع الذي عانوا منه حتى أن أحدهم وضعت زوجته فلم يجد قط ما يسعفها وظل يوما كاملا ينتظر عطف آباء الصبيان علهم يقدمون له ما يرتزق به ناهيك عن الديون التي تذكر نفس الرواية أنه كان يرزح تحت وطأتها(50).

ولم يكن طلبة الحضرة (مراكش) أنفسهم في وضعية مريحة الى درجة أنهم أثاروا انتباه الخليفة عبد المومن الذي وصفهم بأنهم «عرايا ضعفاء»(51) فاقترض مبلغا من بيت المال ليجبر حالتهم.

ولا شك أنه تواجدت أصناف أخرى من العوام في مراكش، غير أن النصوص التي بين أيدينا لا تسمح لنا بذكرهم أولا بأول ومن المفيد أن نذكر أنهم عرفوا مشاكل متباينة وتعرضوا لمحن يمكن تلمسها من خلال ما تزودنا به بعض المصادر.

فخلال عصري المرابطين والموحدين عانى عوام مراكش من كوارث طبيعية وبشرية أثرت سلبا عليهم، وترد في هذا الصدد بعض الأخبار حول السنوات العجاف التي تمخض عنها قحط شديد فتك بالزرع والضرع ففي عهد يعقوب المنصور ضرب الجفاف مدينة مراكش مما جعل الخليفة المذكور يبادر الى مطالبة الناس بالخروج للاستسقاء وغالبا ما أعقب كل قحط مجاعة تعصف بأرواح آلاف من المستضعفين لعل أهمها تلك المجاعة التي حدثت في عهد الخليفة الموحدي الرشيد وأثرت في حركة الأسواق ونظرا للنتائج الوخيمة التي خلفتها على العامة في مراكش نثبتها بنصها كما أوردها ابن عذاري(52).

(لما توجه الرشيد في حركته المذكورة وخرج أمام الخلط من الحضرة تحير الناس وكثر فيهم الرهج وعظمت عليهم المصيبة بأسلامهم وعدم الأقوات والمرافق ولم يبق لأحد سبد ولا لبد، ولا طارف ولا تالد، ولا ذخيرة ولا مال ولا عقار، واستولت المجاعة على جمهور الناس ورأو محناً يستعاذ بالله منها وانتهى المد الواحد من القمح الفحصي الى سبعة دراهم كبارا من الطبع... السكة، وأما الدرهم الفضة فكان يصرف في نصف درهم وكان هذا عرفا بين السوقة بالسبعة الدراهم السكة إنما تخرج من مثلي عددها. وأما أسواق المدينة في هذه المجاعة فلم يكن بها ما ينطق عليه إسم شيء بوجه من الوجوه والحوانيت مغلقة وما بقى بها من يلبس ثوبا يساوي عشرة دراهم إلا الاطمار المتغيرة الخلقة...)

(50) مؤلف مجهول، من مناقب الشيخ و 100 ظ

(51) أبن عذاري م.س.ص 81.

(52) البيان المغرب. القسم الموحدي ص 235.

ويضيف نفس المؤرخ موضحا نتائج هذه المجاعة على قلة التغدية قائلا : («إذا ظهر في السوق بعد أيام كثيرة شيء من خبز الشعير يعشر الناس عليه وأنهم لقيام ينظرون وما يصل اليه الا الكفاة الذين لهم تجلد على الاقتحام وصبر ثم لا يعدم الذي يتوصل اليه أن يجتمع عليه العشرون وأكثر من الضعفاء المساكين حتى ينتزعوه منه قهرا وأما شيخ أو عجوز أو طفل أو ضعيف فإنه لا يصل الى شيء ولا على لقمة منه وسائر الأيام إنما يظهر في الأسواق ما يكرر طحنه من فيتور الزيتون وغيره فهو كان غذاء الناس لأنه كان كثيرا بالبوادي الخالية فتجتلبه الضعفاء ويقتاتون منه»).

وفضلا عن المجاعات انتشرت الأوبئة والأمراض من صفوف عوام مراكش ففي سنة 571 ه حسب ابن أبي زرع[53]. و 572 هـ حسب ابن الابار[54]ابتلت المدينة بوباء الطاعون، فكان الرجل لا يخرج من منزله حتى يكتب اسمه وموضعه في براءة ويجعلها في جيبه فإن مات حمل الى موضعه وأهله وانتهى عدد الأموات بمراكش الى ألف وسبع مائة رجل[55] ولعل حدة هذا الوباء ما جعل أحد المؤرخين[56] يصفه بأنه «لم يعهد مثله فيما تقدم من الأزمنة قبله» وحسب نفس المؤرخ فإن عدد الأموات وصل في كل يوم الى مائة وتسعين شخصا أو أكثر[57].

وفي سنة 609 هـ[58] و 610 هـ[59] وقع وباء عام في طول بلاد المغرب وعرضها فلم تنج مراكش من شره ولم يتم بناء المارستانات الا في عهد أبي يعقوب المنصور الذي بنى دار الفرج[60]، ولا نعتقد أنها كانت تفي بحاجيات هذه الجيوش من المرضى.

صحيح أن جل الفئات الاجتماعية كانت تقع ضحية هذه الأوبئة إلا أن عجز الفئات المستضعفة عن مواجهة المجاعات والأوبئة جعلها الاكثر ضررا.

وغالبا ما كانت هذه المجاعات والأوبئة تنتهي بغلاء شديد وارتفاع صاروخي في أثمان السلع الضرورية خاصة في حالة تعرض المدينة للحصارات فخلال الحصار الذي ضربه الموحدون على المرابطين في مراكش وصل الربع من الدقيق الى مثقال حشمي ذهبي[61]. وعندما حاصرها الخلط

(53) الانيس ص 267.
(54) المقتضب من تحفة القادم. طبعة 1983 ص 107 — 108.
(55) ابن أبي زرع : م.س.ص 267.
(56) ابن عذاري م.س ص 136.
(57) نفس المرجع والصفحة.
(58) ابن أبي زرع م.س 272.
(59) الذخيرة السنية في أخبار الدولة المرينية طبعة الرباط 1972 ص 49.
(60) مؤلف مجهول : كتاب الإستبصار طبعة البيضاء 1985 ص 210.
(61) ابن عذاري م.س.ص 319.

وذمروا بحائرها وقطعوا مياهها، ارتفعت الأسعار وعدمت الأقوات وافتقر الناس لأبسط اللوازم، وصار الربع الواحد من الدقيق يباع بثلاثة دنانير[62] واستمرت الحالة على هذه الصورة المحزنة «حتى كاد الناس يأكلون بعضهم بعضا»[63].

ولم تكن الطبيعة وحدها قاسية على هؤلاء، بل ان الفعل البشري ساهم في تردي وضعيتها. فالضرائب المفروضة عرفت تفاقما خطيرا خاصة في مرحلة تدهور الدولتين المرابطية والموحدية.

ومن البديهي أن تلوذ المصادر التاريخية بالصمت اتجاه الضرائب المفروضة ولكنها لحسن الحظ تذكر باعتزاز أعمال الخلفاء الذين الغوا ما سبقهم من ضرائب وفي ذلك اشارة صريحة الى ما عاناه العوام من نقلها فبمجرد ما استقر الخليفة الموحدي عبد المومن بن علي في مراكش سنة 543 ه بدأ في الغاء ضرائب القبالات التي سادت في العصر المرابطي[64]، وعندما دخل الخليفة الموحدي الرشيد رفع بدوره المغارم عن السكان، مما ينهض حجة على أن مرحلة الانحطاط الموحدي كانت وبالا على عامة المدينة[65].

وعندما تسلم المرينيون السلطة ألغوا كل الضرائب والوظائف المخزنية كما يقول ابن أبي زرع[66] مشيرا بذلك الى الضرائب التي أثقلت كاهل العامة في مراكش خلال العصر الموحدي.

أما الجغرافيون والرحالة فهم أكثر صراحة وصدقا فالادريسي[67]، يوضح بجلاء أن كل صناعة كانت تفرض عليها الضرائب في عصر المرابطين مثل سوق الدخان والصابون والصفر والمغازل بمراكش الى ان جاء الموحدون والغوها.

وفي الجانب العسكري عرف العوام محنا صعبة أثناء الحصارات المفروضة على المدينة حتى أن مؤرخا يذكر أنهم اضطروا الى أكل الجيف خلال الحصار الموحدي وعند ما فتحت، استباحت جيوش الموحدين كل الذكور البالغين، واستمر البطش والتنكيل بهم ثلاثة أيام حتى هلك منهم خلق كبير[68] ودام هذا السيناريو المخزن الى أن نودي عليهم بالعفو لكنهم تعرضوا للأسر والسبي[69] وابتيعت النساء[70].

(62) نفسه ص 318 ــ 319.
(63) نفسه ص 320.
(64) ابن عذاري م.س.ص 37.
(65) نفسه ص 320.
(66) الذخيرة ص 118.
(67) وصف إفريقيا الشمالية ص 70.
(68) ابت عبد الملك م.س.ص 228 ابن خلدون كتاب العرج 6 طبعة بيروت 1979 ص 232. ابن الأحمر : بيوتات فاس الكبرى طبعة الرباط 197 ص 20 البيدق : م : س.ص 65 الوزان : م.س ص 103.
(69) البيدق م.س.ص 66.
(70) نفسه ص 66.

أما خلال حصار مراكش من طرف المرينيين فقد نقل لنا ابن زرع[71] حواراً بين سكان المدينة وأبي دبوس، وهو حوار يعكس مرارة المحنة التي عصفت بهم ومن المشاكل المزمنة التي تعرض لها العوام كذلك مشكل قلة الماء مما جعلهم يعتمدون على مياه الآبار وبالرغم من أن يوسف بن تاشفين قام ـــ من أجل تزويد مراكش بالماء بحفر خطارات ـــ فإن ذلك لم يكن كافيا لمدينة أصبحت تعرف نمواً[74] مضطردا ولم تقل جهود ابنه علي بن يوسف أهمية في هذا الاتجاه إذ حاول بطريقته الخاصة جلب المياه من احدى العيون غير ان عهوده تلك اتسمت بالتواضع ولم يتم ذلك سوى في العصر الموحدي.

وقد احتدت مشكلة الماء بعد توحيد المغرب بالأندلس وقدوم موجات أندلسية إلى مراكش[75] غير أن هذه المشكلة حلت نسبياً في عهد الخليفة الموحدي أبي يوسف يعقوب الذي أرسل في وسط المدينة ساقية جعل عليها «الساقيات لسقي الخيل والدواب واستسقاء الناس»[76]

وبالمثل لم يول المرابطون كبير عنايتهم بالجانب الفلاحي لتعودهم حياة الشظف والصحراء[77] الشيء الذي أثر سلبياً على سكان المدينة.

وكما قاسى العوام من هذه المشاكل فإنهم عانوا من مشكلة أخرى لا تقل أهمية وهي مشكلة السكن حيث أن مراكش أصبحت في عصر الموحدين تضيق بسكانها بسبب الهجرات الأندلسية إليها وانتقال بعض القبائل بأمر من الخلفاء الموحدين للإقامة فيها، وهذا ما حدا بأبي يعقوب إلى توسيعها والزيادة في بنائها.[78]

ويلاحظ أن العوام كانوا دائماً يتهمون بالتآمر مع الثوار[79] وهذا ما يفسر تواجد السجون والسجناء بمراكش ولحسن حظهم فإن بيعة كل أمير أو خليفة جديد كانت غالباً ماتقترن بعفو عام عن المسجونين[80].

(71) الذخيرة 117 وهذا نص الحوار : «وقالوا له كم تعتقد عن حرب بني مرين وتجبن عن لقائهم ؟ أما ترى بلادنا قد خرجت وأموالنا قد نهبت وحريمنا قد سبي ؟»

(72) الإدريسي م.س ص 68 ـــ ياقوت معجم البلدان ج 5 طبقة بيروت ص 94.

(73) حركات التنظيم السياسي والحربي في عهد المرابطين طبة البيضاء (دون تاريخ ص 111.

(74) Drevedun p. 86

(75) جلاب : من تاريخ الماء وأساليب الري والتوزيع بمراكش مجلة دعوة الحق ص 178 العدد 265 يونيو يوليوز 1987.

(76) مؤلف مجهول كتاب الإستبصار ص 210.

(77) جلاب م.س ص 77.

(78) ابن عذاري م.س ص 153 ـــ 154.

(79) ابن الخطيب أعمال الاعلام ج 3 طبعة بيروت 1956 ص 267 ويذكر أن فقهاء مراكش اتهموا ابن تومرت بأنه يفسد العامة.

(80) كما هو الحال عن بيعة أبي يعقوب انظر : صاحب الصلاة المن بالامامة طبعة بيروت 1987 ص 266 ابن عذاري م.س ص 99.

ومن انصاف الحقيقة والواقع القول بأن وضعية العامة في مراكش عرفت بعض التحسن في فترات ازدهار الدولتين المرابطية والموحدية خاصة إبان عهود الخلفاء المستنيرين وهو مايعبر عنه ابن صاحب الصلاة[81] خير تعبير عند ذكره لعهد الخليفة الموحدي أبي يعقوب حيث يقول «ونمت الأرزاق وعمرت الأسواق بالبيع والتجارة الرائجة ودرت على الناس الخيرات درورا واغتبط العالم به وببيعته وكثر المال في أيدي من توالى سمعه وبركته وابتنوا بمراكش الديار العتيقة»

وكانت مثل هذه العهود فرصة للعوام يهتبلونها لاسترداد ما ضاع من حقوقهم، إذ كان يعقوب المنصور يعقد مجالس يحضرها «أناس من السوقة والتجار»[82]» ولو أن هذا المجلس لم يستمر «فقطع للعامة ذلك الجلوس» وهذا ما يفسر التجاء هؤلاء إلى المتصوفة لحل مشاكلهم غير أن المتصوفة أنفسهم تعرضوا بدورهم للقمع والبطش[83] والسجن، والإغتيال أحياناً.[84]

وفي خضم هذه الوضعية المؤلمة التي عاشها العوام، كيف كانت وضعية المرأة المراكشية ؟.

وإذا كنا نملك نصوصاً لا يستهان بها حول المرأة الأرستقراطية فإن المرأة العامية في مراكش لا نملك حولها سوى نصوص ضئيلة ومن خلالها يتبين أن عملها ارتبط بغزل الصوف وبيعه[85] بينما بقي النساء اللائي ترملن فريسة في يد الفقر والحاجة.[86]

ولم يكن إقبال كبير على الزواج من الفتاة الفقيرة فالناس كما جاء على لسان امرأة معاصرة للموحدين «لا يتزوجون إلا من عندها[87] مال ولعل هذا ما كان وراء دعوة أحد المتصوفة إلى وجوب التصدق على أهل الجمال من النساء الفقيرات مخافة فسادهن[88]، هذا على الرغم من أن مراكش لم تخل من نساء صالحات وصلن إلى مرتبة الزهد والتصوف[89].

وتميزت التربية في الوسط العامي بالقسوة والعنف كما يتضح ذلك من خلال بعض كتب المناقب[90].

---

(81) كتاب تاريخ المن بالإمامة ص : 266.
(82) ابن عذاري م.س ص 173.
(83) ابن الزيات م.س ص 232.
(84) نفسه ص 215 عبد العزيز بن عبد الله : الفكر الصوفي والانتحالية بالمغرب القسم 2 ص 99 ــ 100 مجلة البينة عدد نوفمبر سنة 1962 ويذكر أن محمد بن خلق اللخمي ألف في سجنه بمراكش مجموعاً في التصوف.
(85) مؤلف مجهول : مناقب الشيخ ورقة 103 /1
(86) نفس المصدر والصفحة.
(87) نفسه ورقة 105 و
(88) ابن أبي زرع الذخيرة ص 40.
(89) ابن الزيات م.س ص 386.
(90) مؤلف مجهول : مناقب الشيخ ورقة 103

في ظل هذه الأوضاع المتردية، كيف كان رد فعل العوام ؟ وهل قاموا بثورات وانتفاضات لتحسين وضعيتهم .؟

تشح النصوص حول الثورات التي قام بها العوام في مراكش والإشارات الواردة بصدد الموضوع مختزلة ومقتضبة فابن عذاري[91] يحدثنا عن ثورة قام بها ثائر يدعى الجريري، استطاع أن يجمع جموعاً غفيرة من العوام، ويعلن ثورة في مراكش انتهت بالفشل وطرده من المدينة، وفي هذا السياق يذكر عنه هذا المؤرخ ما يلي : «فمشى ملفوظاً يتغرب ويتجول في الأقطار ويسعى في الفساد بالتكتم والإستتار، ويلتمس أبدا جهالًا من العوام يحادثهم ويطابقهم ويلابسهم ويرافقهم إلى أن ظهر بمراكش الخث وشنعت عنه الأحاديث فأمر السيد أبو الحسن بن أبي حفص بالبحث عليه في أقطار المدينة فاختفى وخرج فارا بنفسه لا يعرف يومه من أمسه».

وثمة نص آخر يكشف عن رجل استغل سخط العوام فادعى أنه من سلالة الفاطميين لكن الأمر انتهى بقتله وتعليق رأسه مع ثوار مراكش.[92]

والواقع أن مثل هذه الإنتفاضات كانت تستقطب عامة المدينة بشكل مثير، وهو أمر يرد إلى الأوضاع المزرية التي عاشوها. وإذا كانت المصادر تتكتم عادة عن ذكر تلك الأوضاع فإن ما سبق ذكره من محن ينهض دليلًا على ذلك، فضلًا عما يرد في ثنايا تلك المصادر نفسها بكيفية عفوية وهي تتحدث عن حسنات الخلفاء وحسبنا أن مؤرخاً[93] ذكر وهو يتحدث عن مناقب الخليفة الموحدي أبي يوسف يعقوب أنه سمع لظلامات الناس بعد نزاع الصلاة الفريضة في يوم الجمعة من 16 ربيع الأول عام 566 هـ.

إلا أن كل انتفاضات العامة لم يقدر لها النجاح نظراً لافتقارهم إلى تنظيم محكم وأهداف مسطرة ووعي ناضج ولذلك كانوا يجدون عزاءهم في الصلحاء والأولياء ورجال التصوف، إذ ارتموا في أحضانهم ورأوا فيهم أمل الخلاص مما يرزحون تحت كابوسه، ولا غرو فإن هؤلاء هم أصلًا شريحة من شرائح العوام اتخذوا موقفاً مناوئاً للطبقات الأرستقراطية[94] وما تعرضهم للقمع والسجن سوى دليل على موقفهم المآزر للعامة حتى أن سجون مراكش أصبحت تغص بهم.

---

(91) البيان القسم الموحدي ص 207.

(92) المراكشي م.س ص 464 466.

(93) ابن صاحب الصلاة م.س ص 332.

(94) يذكر ابن الزيات في ترجمة أبي عبد الله محمد بن الأمان الجزولي ن أهل مراكش أن أحد الكبراء جاء إلى مكتبه يطلبه فتردد كثيراً إلى أن قصده بنفسه وأكرهه على زيارته فقال «وعدت فلاناً أن أتيه وأنا أكره إتيانه» راجع التشوف ص 209.

وقد تجسد الإرتباط بين الجانبين عملياً في مد المتصوفة يد المساعدة للفقراء والمعوزين ففي إحدى المجاعات التي حدثت في مراكش جمع أحد المتصوفة كل المساكين بجامع علي بن يوسف ووزع عليهم القمح والسمن حتى لم يبق له شيء، واعتاد المتصوف أبو العباس السبتي الطواف في أسواق مراكش لجمع التبرعات للمحاويج.[97].

وكثيراً ما لجأ العامة إلى المتصوفة والأولياء لحل مشاكلهم بما في ذلك العلاج الطبي، فقد ورد في إحدى الروايات أن امرأة من مراكش قصدت أبا العباس السبتي تشكو له مرض ابنها من الجذام، فاستطاع هذا الأخير ــ إن صحت الرواية ــ أن يبرئه بقدرة القادر[98] كما تمكن من إنقاذ حياة ابن خياط كان يعاني سكرات الموت.[99]

وتعكس ظاهرة استدرار العوام دعوات الأولياء والصلحاء[100] الترابط الحميم بين الجانبين واعتماد هؤلاء على أولئك بعد خيبة أملهم في صلاح السلطة السياسية، كما يظهر تعلقهم وشغفهم بهم في هذا الإحترام الكبير وآيات التعظيم والإجلال التي كانوا يكنونها لهم حتى أن أحد متولي الحسبة بمراكش غبط أبا عبد الله الصوفي لتعظيم وإكبار العامة له، وهي مكانة لم يحظ بها رغم توليه خطة من خطط الدولة ![101].

وبتجسيد هذا الإرتباط كذلك فيما كان يبديه العوام من حزن وألم عميق عند وفاة أحد الصلحاء يظهر ذلك من خلال ترجمة ابن العريف الذي «احتفل الناس بجنازته[102] بل إن المتصوف سيدي أبي إسحاق المتوفى سنة 616 هـ «كسر العامة نعشه واقتسموا أعواده تبركاً به[103]» وذهبوا أبعد من ذلك إلى حد مخالفة أمر السلطان الموحدي القاضي بمنع تشييع جنازة المتصوف ابن برجان في مراكش[104]، وكل هذه الدلائل تنهض حجة على أن العوام عندما فشلوا في تحقيق وإقرار حقوقهم على الطريقة «الدنيوية» التجأوا إلى الأولياء والمتصوفة كرمز ديني للخلاص والإنعتاق.

---

(95) التادلي المغزى ورقة 3 ظ حيث يذكر أن عبد المؤمن بن علي سجن المتصوف أبي يعزى سنة 541 في صومعة الجامع كما سجن كذلك علي بن حرزهم انظر. م ورقة 62 و

(96) ابن الزيات م.س ص 245 ــ 246

(97) مؤلف مجهول مناقب الشيخ ورقة 102 و

(98) نفسه ورقة 157 ظ.

(99) نفسه ورقة 102 و.

(100) ابن الزيات م.س ص 181.

(101) ابن القاضي، جذوة الاقتباس ج 1 طبعة الرباط 1973 ص 334.

(102) ابن المؤقت، السعادة الأبدية ج 1 طبعة فاس 1336 هـ ص 59 ابن الأبار المعجم 19.

(103) نفسه ص 58 ابن صعد م.س ص 9.

(104) ابن الزيات م.س ص 10 جذوة الاقتباس ج 2 ص 469.

ولا يفوتنا في نهاية هذا العرض أن نعطي لمحات عن بعض العادات الإجتماعية المتأصلة في عوام مراكش كما تبينها المصادر.

لعل من أهم الصفات التي تميزوا بها كرم الضيافة ففقرهم المدقع لم يثن عزيمتهم عن إكرام الضيف، وحبوه بكل ما ملكت أيديهم، وبهذا الخصوص تذكر رواية لابن الزيات[105] أن أحدهم باع سريراً من بيته لينفقه على أبي عمران الرجراجي الذي زاره في مراكش، وكان الإنفاق والتوسعة في أول ليلة من شهر رمضان سنة جارية لدى أهل المدينة، وفي هذه الليلة أيضاً تكثر الصدقات على المساكين والمحتاجين وتوقد القناديل بالزيت.[106]

ومن العادات المتبعة حسب ما تذكره المصادر كذلك عادة اتبعها النساء الحوامل في مراكش في حالة عسر الولادة إذ كن يأخذن سراويل يوسف بن تاشفين ويجعلنها في أرجلهم فيلدن من حينه[107].

كذلك عرف عامة مراكش بعادة التبرك بالقبور فابن الزيات[108] الذي عاش في عصر الموحدين يذكر أنهم كانوا يتبركون في زمنه بقبر أبي سهل القرشي الموجود برباط تسماطت من عمل مراكش. وفي نفس الوقت لم يسلموا من الإعتقاد في بعض الخرافات كاعتقادهم بأن التفاحات الذهبية الموجودة في جامع القصبة هي من الكواكب ولذلك يستحيل في نظرهم نزعها من مكانها لأن من وضعها قرأ عليها عزائم سحرية حتى تثبت[109] !! هذا فضلًا عن عادة الغناء في الأعراس[110] وهي عادة حاول يعقوب المنصور استئصال شأفتها بأن أمر صاحب الشرطة بالقبض على المغنين.[111]

أما عن الأطعمة فيذكر الإدريسي[112] أن عوام مراكش يأكلون الجراد ويبتاعونه بينما كان لباسهم يتمثل في عباءة صوف وعمامة، خاصة المتزهدين منهم.[113]

ومن كل ما سبق يتضح أنه كان لهؤلاء وضعهم المتميز اقتصاديا، اجتماعيا، وثقافيا وعلى طرف نقيض مع عالم «الخاصة».

(105) نفسه ص 237.
(106) مؤلف مجهول : مناقب الشيخ ص 103 و
(107) ابن الأحمر : بيوتات فاس الكبرى ص 30.
(108) التشوف ص 208.
(109) الوزان : م.س ص 104.
(110) التشوف : ص 401.
(111) ابن عذاري م.س ص 174.
(112) وصف إفريقيا الشمالية ص 70..
(113) التشوف ص 106.

والخلاصة العامة هي أن العوام في مراكش كان لهم دور طلائعي في تاريخ المدينة ابتداء من تأسيسها إلى بلورة الأحداث الجسام التي يصمت تاريخها السياسي والإقتصادي غير أنهم تعرضوا للإضطهاد والمحن الشيء الذي لم يسمح بتكتل جهودهم لإعطاء المدينة مزيداً من التألق الحضاري، وإذا كانت السطور السابقة قد أضاءت بعض الزوايا من تاريخهم، فإن تأسيس تاريخ علمي لمراكش المرابطية الموحدية لا يتم إلا عبر انتشالهم من ركام النسيان وبالتالي الكشف عن هويتهم التاريخية وهو ما نأمل أن تتجه إليه همة الباحثين.

إبراهيم القادري بوتشيش

(ملحق)

قاضي مراكش يستفتي أبا الوليد بن رشد في مشكلة عقود زوجية

وكتب إليه[114] رضي الله عنه القاضي بحضرة مراكش موسى بن حمادة[115] وفقه الله يسأله عن رجل شهد عليه أنه قال متى تزوج فلانة فهي طالق ثلاثاً ثم تزوجها ومكث في عصمته نحو الأربعة عشر عاماً ونص السؤال :

«جوابك رضي الله عنك في رجل تزوج امرأة في بلد وبنا[116] بها فيه ومكث معها مدة من عشرة أعوام وشهد جماعة من شهود هذه البلدة أن هذا الرجل منذ أن حل بها لم ير منه إلا الخير والعافية والثقة والأمانة والفضل والديانة، وثبت عن قاضي تلك البلدة من حاله ما أوجب قبول شهادته وكان يحكم بها في جميع الحقوق ويشهده على أحكامه واستمر حال الرجل المذكور على ما ثبت منه حسب ما تقدم ذكره مدة خمسة أعوام أو نحوها ولم يظهر منه خلاف ما ثبت من حاله الأول ولم يزل القاضي المذكور يتبع أموره ويستشكف أحواله مدة الأعوام المذكورة فما ظهر منه نقص في دين ولا عثر عليه في زلة ثم قيم عند القاضي المذكور على هذا الرجل المذكور بعقد تضمن شهادة فيه على نفسه أنه متى تزوج فلانة بنت فلان فهي طالق ثلاث لا تحل له بوجه من الوجوه إذ قد حرمها على نفسه فلانة هذه هي التي كان تزوجها ومكث معها نحو الأربعة عشر عاماً فوفقه الله على ما شهد به في العقد المذكور فأنكره وثبت على إنكاره له فشهد شهود بأن خط العقد المذكور لخط يده وأعذر إليه القاضي فيمن شهد عليه فادعى أن عنده من المدافع ما يسقط به عن نفسه — شهادتهم...»

نوازل ابن رشد ورقة 78 — 79 (مخطوط)

(114) المقصود ابن رشد قاضي الجماعة بقرطبة المتوفى سنة 520 هـ

(115) انظر ترجمته عن ابن الأبار في كتاب الصلة ص 614.

(116) هكذا وردت في المخطوطة والكلمة الصحيحة هي «بنى».

مصادر ومراجع البحث

أولا المخطوطات :

1 ــ ابن الزيات أبو يعقوب يوسف بن يحيى التادلي (ت 167 هـ)
أخبار أبي العباس السبتي خ.ع.
2 ــ ابن صعد، أبو الفضل سعيد الأنصاري (القرن 10 هـ)
النجم الثاقب فيما لأولياء الله من مفاخر المناقب خ. ح.
3 ــ التادلي أبو العباس أحمد بن أبي القاسم بن محمد بن سالم بن عبد العزيز الشعبي المهدي (كان حيا سنة 1000) المعزى في مناقب الشيخ أبي يعزى خ.ح
4 ــ الزياني، أبو القاسم (ت 1833م).
بغية الناظر والسامع والهيكل الجامع بما في التواريخ من الجوامع خ.ح
5 ــ مؤلف مجهول : مناقب الشيخ أبي العباس السبتي خ.ع.

ثانيا : المصادر المنشورة

6 ــ ابن الأبار، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي (ت 658 هـ)
المعجم في أصحاب القاضي أبي علي الصدفي : نشر كوديرا وزايدين طبعة مدريد 1885.
7 ــ المقتضب من كتاب تحفة القادم. تحقيق إبراهيم الابياري نشر دار الكتاب اللبناني ــ دار الكتب الإسلامية الدار الافريقية العربية ط 1402 هـ ــ 1983.
8 ــ ابن أبي زرع أبو الحسن علي بن عبد الله (توفي قبل عام 741 هـ).
الأنيس المطرب بروض القرطاس طبعة الرباط 1972 دار المنصور للطباعة.
9 الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية طبعة الرباط 1972 دار المنصور للطباعة.
10 ــ ابن الأحمر إسماعيل بن يوسف (عاش في العصر الغرناطي)
بيوتات فاس الكبرى طبعة الرباط 1972 دار المنصور للطباعة.
11 ــ ابن الخطيب لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد حقيق (ت. 776 هـ) أعمال الاعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام ج 3/ تحقيق أحمد مختار العبادي طبعة البيضاء 1964 دار الكتاب.
12 ــ ابن خلدون عبد الرحمان بن محمد (ت 808) : كتاب العبرج 6 طبعة بيروت 1979
13 ــ ابن الزيات : كتاب التشوف إلى رجال التصوف : تحقيق أحمد التوفيق طبعة البيضاء 1984.
14 ــ ابن عبد الملك أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك الأنصاري الأوسي المراكشي (ت 703 هـ) : الذيل والتكلمة على كتابي الموصل والصلة السفر الأول القسم الأول تحقيق إحسان عباس.
15 ــ ابن صاحب الصلاة محمذ بن أحمد بن إبراهيم الباجي أبو مروان (ت 494 هـ) : تاريخ المن بالأمامة. تحقيق عبد الهادي التازي طبعة بيروت 1987 دار الغرب الإسلامي.
16 ــ ابن عذاري أبو عبد الله محمد المراكشي (عاش بعد سنة 712 هـ) : البيان المغرب القسم الخاص بالموحدين : نشر إبراهيم الكتاني ومجموعة من المحققين طبعة البيضاء 1985.
17 ــ ابن القاضي أحمد بن محمد أحمد (1960 هـ ــ 1025 هـ)
جذوة الاقتباس ج1 طبعة الداط 1973 دار المنصور للطباعة.

18 ــ الإدريسي أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس (ت 560 هـ) : صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس قطعة مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق : نشر دوزي وكويخي ليدن 1894.
19 ــ ابن المؤقت محمد (عاش في القرن 14 هـ) : السعادة الأبدية في التعريف بمشاهير الحضرة المراكشية ج 1 طبعة فاس 1336 هـ.
20 ــ البيذق، أبو بكر بن علي الصنهاجي (عاش في النصف الأول من القرن السادس الهجري) أخبار المهدي بن تومرت وبداية الدولة الموحدية طبعة الرباط 1971 دار المنصور للطباعة.
21 ــ المراكشي عبد الواحد (ت 581 هـ) : المعجب في تلخيص أخبار المغرب. تحقيق : محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي طبعة البيضاء 1978.
22 ــ المقري، أحمد بن محمد التلمساني (ت 1040 هـ) : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ج 3. تحقيق إحسان عباس طبعة بيروت 1968.
23 ــ مؤلف مجهول (عاش في القرن السادس الهجري) : كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار نشر وتعليق سعد زغلول طبعة البيضاء 1985.
24 ــ الوزان الحسن بن محمد الفاسي المعروف بجان ليون الإفريقي (ت 1957 هـ ؟)
وصف إفريقيا ج ظ الترجمة العربية لمحمد حجي ومحمد الأخضر الرباط 1980
25 ــ الونشريسي، أبو العباس أحمد بن يحيى (ت 914 هـ) المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقية والأندلس والمغرب الجزء الثاني والعاشر طبعة بيروت 1981 دار الغرب الإسلامي.
26 ــ ياقوت الحموي، أبو عبد الله بن عبد الله الرومي (ت سنة 626 هـ) : معجم البلدان ج 5 نشر دار الكتاب العربي (دون تاريخ).

ثالثا : الدراسات العربية الحديثة

27 ــ إبراهيم حركات النظام السياسي والحربي في عهد المرابطين طبعة البيضاء (دون تاريخ).
28 ــ ابن سودة المري الفاسي : دليل مؤرخ المغرب العربي الأقصى ج 1 طبعة البيضاء 1960 ط 2.
29 ــ حسن جلاب : من تاريخ الماء وأساليب الري والتوزيع بمراكش. مجلة دعوة الحق العدد 265 يونيو يوليوز 1987.
30 ــ عبد العزيز بن عبد الله : معلمة المدن والقبائل طبعة فضالة المحمدية 1977
31 ــ الفكر الصوفي والانتحالية بالمغرب القسم الثاني مجلة البنية نوفمبر 1962.
32 ــ محمد المنوني : المصادر العربية لتاريخ المغرب ج 1 طبعة البيضاء 1983.

الدراسات الأجنبية :

مراجع استغلت في الهوامش.

الكتب والمكتبات في مراكش
على عهدي المرابطين والموحدين

أحمد شوقي بنبين
كلية الآداب ــ الرباط

تقديم :

مدينة مراكش من أطول المدن المغربية عمرا وأعرقها حضارة وأكثرها إنتاجاً للعلم والعلماء. وقد لعبت منذ تأسيسها إلى اليوم أدواراً بارزة في الحياة السياسية والثقافية والاجتماعية المغربية.

وقد كانت بحكم موقعها السياسي على عهدي المرابطين والموحدين مصدر إشعاع كبير ومركزاً ثقافيا مهما أنتج أكبر العقول وأهم المؤلفات وأغنى الخزانات ليس على مستوى المغرب فقط بل على مستوى الغرب الإسلامي بكامله.

كيف كانت الوضعية الثقافية بمراكش في تلكم الفترة وما هي أنواع المكتبات التي ظهرت فيها، وما هي إسهامات هذه المؤسسات العلمية في تطوير الثقافة العربية الاسلامية ؟

هذا ما سيحاول الإجابة عنه هذا العرض.

لا يمكن للباحث أن يتحدث عن الحياة الثقافية في مراكش على عهدي الدولتين المرابطية والموحدية بمعزل عن الحياة الثقافية في بلاد الأندلس فإذا كان الاتصال الحضاري بين البلدين قد تم منذ الفتح الاسلامي فإنه لم يعد في القرنين الخامس والسادس عبارة عن علاقة بين جارتين كما كان الشأن من قبل بل توثقت الصلات وتم التلاقح والتمازج وتوحدت الحضارة فأصبح التمييز صعباً بين الأندلسيين والمغاربة. لقد دخل هؤلاء بلاد الأندلس في زمن حلت فيه الآداب الرفيعة والأشعار الرقيقة والعلوم البارزة والحياة الهادئة محل الصراعات القبلية والحروب الأهلية حيث أصبح ملوك الطوائف يتنافسون في جلب الأدباء والعلماء وتأسيس المجالس العلمية وحضور المناظرات الأدبية والدينية. فإلى نزوح رجال الثقافة والعلم الأندلسيين بمحض إرادتهم إلى مراكش عاصمة السياسة والعلم تضاف زمرة أخرى من أعلام الفكر دعاهم أمراء وخلفاء الامبراطوريتين للعمل في دواوينهم وخزائنهم. وكان بعض هؤلاء الأعلام في خدمة ملوك الطوائف كأبي بكر بن القصيرة الذي كان كاتباً للمعتمد بن عباد. يقول صاحب المعجب : «فانقطع إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين من الجزيرة من أهل كل علم فحوله حتى أشبهت حضرته حضرة بني العباس في صدر دولتهم واجتمع له ولابنه من أعيان الكتاب وفرسان البلاغة ما لم يتفق اجتماعه في عصر من الأعصار — إلى أن قال «ولم يزل أمير المسلمين علي بن يوسف من أول إمارته يستدعي أعيان الكتاب من جزيرة الأندلس، وصرف عنايته إلى ذلك حتى اجتمع له منهم ما لم يجتمع لملك كأبي القاسم ابن الجد المعروف بأبي الأحدب وابن القبطرنة وأبي عبد الله بن أبي الخصال وأخيه أبي مروان وأبي محمد ابن عبدون، وكان من أنبههم عنده وأكبرهم مكانة لديه أبو عبد الله محمد بن أبي الخصال(1).

يقول صاحب المعجب(2)

(1) المراكشي : المعجب ص 104 — 256.

(2) ص 272.

رجل من أهل الأندلس كان جليساً لعلي بن يوسف بن تاشفين له كتاب سماه :.

«**قراضة الذهب في ذكر لئام العرب**» ضمنه لئام العرب في الجاهلية والإسلام وضم إلى ذلك ما يتعلق به من الآداب، فجاء الكتاب لا نظير له في فنه رأيته في خزانة بني عبد المومن».

وكانت هذه الحركة التأليفية وإقبال سكان مراكش من خلفاء ووجهاء وخواص على الكتب وحبهم لها وتقديرهم لمحتوياتها وبحثهم عنها في جميع الأصقاع سببا في تشييد المكتبات لجمع الكتب وحفظها وصيانتها. فبفضل هذه المؤسسات العلمية أمكن الحفاظ على عدد من المصادر الفقهية والعلمية والفلسفية[3] وبعد استقراء كتب التراث أمكننا تصنيفها أنواعاً ثلاثة :

1) المكتبات الملكية
2) المكتبات الخاصة
3) المكتبات العامة

ففيما يخص المكتبات الملكية في مراكش فإن أولها تلكم التي أقامها يوسف بن تاشفين على الرغم من قلة اهتمام المصادر بشأنها. وقد أشار إليها ابن خلدون إشارة غامضة أثناء حديثه عن المصحف العثماني الذي انتقل من الأندلس وآل إلى خزائن لمتونة كما يقول. والمرجح عندي أن ابن تاشفين أسسها بالفعل وأنه حمل معه مجموعة من الكتب أثناء رحلاته المختلفة إلى بلاد الأندلس والغالب على الظن أن هذه الكتب من بقايا خزانات ملوك الطوائف وخزانة الأمويين بقرطبة التي تشتت بعد دخول المرابطين إلى شبه الجزيرة الايبرية، ولا أدل على ذلك من دخول المصحف العثماني إلى المغرب وحفاظ بعض الخزانات المغربية على بعض المخطوطات التي تحمل تمليكات الخلفاء والأمراء الأمويين.

وتبلغ هذه الخزانة الملكية أو جها أيام علي بن يوسف الذي أثبتت المصادر أنه يأتي بالكتب لإغنائها من جميع الجهات. وقد نص على هذه الخزانة في خواتم أجزاء من مخطوط كتب برسم هذا السلطان بقيت بعض أجزاء وقطع موزعة بين مكتبة القرويين (605) والمكتبة العامة بالرباط (2947).

وسط هذا المناخ الثقافي تأسست جامعة علي بن يوسف بمراكش فدرس فيها عددٌ من هؤلاء الأعلام أمثال أبي الوليد بن رشد الجد والسلاجي وسواهما وتخرج فيها أمراء وعلماء نبغوا في الثقافة العربية الإسلامية بمؤلفاتهم العلمية الرصينة، ولم يكن الخلفاء الموحدون أقل اهتماماً من سابقيهم بجلب رجالات العلم إلى مراكش فأسماء مثل أبي الصقر الخزرجي وابن طفيل وابن رشد

(3) من يقرأ كتب التراث العربي لا يجد فيها أبوابا أو فصولا خاصة بالمكتبات ومحتوياتها وأنظمتها أخبار الخزانات قليلة والحديث عن تنظيمها أقل ان لم يكن منعدما.

وابن زهر (الذي بنى له المنصور داراً على غرار داره بقرطبة حتى لا يغادر مراكش) تكفي لإعطاء صورة عن الجو الثقافي الزاخر في مراكش على عهد الموحدين. يقول صاحب المعجب : «وكان ممن صحبه (يوسف) من العلماء المثقفين أبو بكر محمد بن طفيل أحد فلاسفة المسلمين، ولم يزل ابن طفيل يجلب إليه العلماء من جميع الأقطار وينبه عليهم ويحضه على إكرامهم والتنويه بهم وهو الذي نبهه على أبي الوليد ابن رشد»(4).

ومن الطبيعي أن يتمخض هذا المناخ الفكري عن تصانيف علمية وفقهية وفلسفية لا يزال كثير منها محفوظاً في الخزانات المغربية والأجنبية، ففي العصر المرابطي كانت معظم المصنفات فقهية تكاد تختص في علم فروع المذهب المالكي باعتبار انتشار هذا المذهب وسيطرة فقهائه واقتناع الخليفة بقواعده ومبادئه : رفض ما يعارضه إلى جانب الحث على عدم الاكثرات بكتب الفلسفة وعلم الكلام والتصوف وبعض العلوم الاخرى. يقول صاحب المعجب :

«ولم يكن يقرب من أمير المسلمين ويحظى عنده إلا من عَلِمَ عِلْمَ الفروع، أعني فروع مذهب مالك، فنفقت في ذلك الزمان كتب المذهب وعمل بمقتضاها ونبذ ما سواها وكثر ذلك حتى نسي النظر في كتاب الله وحديث رسول الله (ص) إلى أن قال : «ودان أهل ذلك الزمان بتكفير كل من ظهر منه الخوض في شيء من علوم الكلام»(5).

أما في العصر الموحدي فقد كانت الخزانة الملكية في مراكش أم الخزانات في العالم الإسلامي بكامله، ويرجع هذا إلى اهتمام خلفاء هذه الدولة بها وجلب الكتب إليها من جميع جهات العالم الإسلامي. فقد كانت في عهد يوسف بن عبد المومن تشبه بخزانة الحكم المستنصر بقرطبة في القرن الرابع الهجري. ويروي المقري في نفح الطيب أن عدد الكتب العلمية وحدها قد بلغ مائتي ألف كتاب(6). ويقول صاحب المعجب : «ثم تخطى ذلك إلى ما هو أشرف منه من أنواع الفلسفة وأمر بجمع كتبها فاجتمع له منها قريب مما اجتمع للحكم المستنصر بالله الأموي»(7)

ولم يدخر الخلفاء وسعاً في جلب الكتب التي هم بحاجة إليها لتوضع في خزاناتهم، ويطلبون من الكتاب والعلماء تأليف الكتب برسم هذه الخزانة فيما يخص خزانة المرابطين الملكية بمراكش تحتفظ خزانة القرويين والخزانة العامة بأجزاء من موطأ مالك نسخ على رق الغزال ويحمل رسم علي

---

(4) المراكشي : المعجب ص 349.

(5) المعجب ص 254 : (احراق كتب الغزالي في مراكش بزاوية الكتانيين).

(6) المقري : النفح ج 1 ص 184.

(7) المراكشي : المعجب ص 347.

ابن يوسف. وقد كتب على الجزء الحادي عشر : نسخ هذا الكتاب لابن يوسف في مراكش عام 502 هـ يحيى بن محمد بن عباد اللخمي[8].

وبالاضافة إلى تشجيع العلماء على تأليف الكتب برسم خزانتهم وتقبلهم المصنفات كهدية من طرف الأدباء والملوك من المغرب[9]، ومن خارج المغرب[10] ونسخهم واستنساخهم للكتب والمصاحف[11]، واقتنائهم لتوارد المخطوطات بالإضافة إلى هذا كله كانوا يصادرون المكتبات التي يعلمون أنها تحتوي على كتب تدخل في إطار تخصصاتهم واهتماماتهم العلمية : أشير هنا إلى مثال واحد عن هذه الظاهرة.

كان يوسف بن عبد المومن شغوفاً بكتب العلم والفلسفة باحثاً عنها في كل مكان جمع منها وحدها زهاء مائتي ألف كما ذكرنا سابقاً يقول صاحب المعجب : «ولم يزل (يوسف) يجمع الكتب من أقطار الأندلس والمغرب ويبحث عن العلماء وخاصة أهل علم النظر إلى أن اجتمع له منهم ما لم يجتمع قبله ممن ملك المغرب»[12].

اعتبارا لهذا الحب والاهتمام لم يكتف يوسف بالطرق المذكورة للحصول على الكتب بل لجأ إلى مصادرة وانتزاع الخزانات الخاصة التي يعلم أنها تضم نوادر في الفلسفة : يقول المراكشي : أخبرني عبد الملك الشذوني أحد المتحققين بعلمي الطب واحكام النجوم قال : كنت في شبيبتي أستعير كتب هذه الصناعة من أبي الحجاج يوسف المراني كانت عنده منها جملة كبيرة وقعت إلى أبيه في أيام الفتنة بالأندلس... أن خبرها أنهي إلى أمير المومنين فأرسل إلى داري وأنا في الديوان وكان الذي أرسل كافور الخصي وأمره ألا يروع أحداً من أهل الدار وألا يأخذ سوى الكتب... ودخل هو بنفسه إلى خزانة الكتب فأمر بإخراجها[13].

ويتضح من خلال الأخبار الواردة في شأن الخزانة الملكية في مراكش على العهدين المذكورين أن معظم محتويات هذه المؤسسة كان على عهد المرابطين عبارة عن كتب في مختلف العلوم في الخزانة الموحدية لإقبال السلاطين على جميع أنواع العلوم والفنون الرائجة في ذلك العهد. وإذا كانت المصادر قد افصحت عن محتويات هذه الخزانة فإنها قد سكتت عن كيفية تنظيمها وطرق تنسيقها

(8) وتحتفظ الرباط بأجزاء أخرى من هذا الكتاب وقد وقفها أبو عنان على خزانة القرويين.

(9) هذه الهدايا عبارة عن الايداع القانوني كما يقال.

(10) صلاح الدين الأيوبي اهدى مصحفين للخليفة يعقوب المنصور انظر الاستقصاء ج 2 ص 182.

(11) نسخ عمر المرتضي مصحفا من عشرة أجزاء وحبسه على مسجد السقاية : ج 1 بالرباط والجزء السابع بالمتحف البريطاني ولا يزال الى اليوم مصنفان انتسخا برسم خزانته : نظم الدرر والروضات البهية : وهما بالقرويين 291 و 296.

(12) المراكشي : المعجب ص 349.

(13) المراكشي المعجب ص 348 : طريقة مصادرة الكتب معروفة قديما وحديثا كان ريشليو Richelieu معروفا بمصادرة المكتبات الخاصة.

(14) يذكر هذا بخزانة الفواطم بالقاهرة جل محتوياتها كتب.

وترتيبها باستثناء الإشارة إلى خطة المحافظة التي كانت تسند إلى علية القوم. وإذا كنا لا نعلم شيئاً عمن تولى هذه المهمة على عهد المرابطين فإن الأخبار تحدثنا عن بعض من تولاها على عهد الموحدين أمثال أبي العباس بن الصقر الخزرجي يقول ابن فرحون في الديباج : ولما صار الأمر إلى أبي يعقوب عبد المومن ألزمه (أبي الصقر) خدمة الخزانة العالية وكانت عندهم من الخطط الجليلة التي لا يعين لها إلا علية أهل العلم وأكابرهم[15].

وإذا انتقلنا الى الصنف الثاني من المكتبات في ذلك العهد وهي المكتبات الخاصة نجد ان لكل عالم من العلماء الذين استوطنوا مراكش خزانة كتب خاصة. منها ما أشارت اليه كتب المصادر والتراجم ومنها ما أهملته. والخزانة الخاصة هي مجموعة من الكتب يجمعها عالم أو حاكم أو مهتم بالكتب أو هاو لها للاستفادة منها أو الاستمتاع بجمالها وخطوطها[16]. ومن بين الخزانات الخاصة التي عرفتها مراكش آنذاك مكتبة محمد بن أحمد المراكشي المعروف بابن الطراوة (659هـ). قال عنه صاحب الذيل والتكملة : «كان أنيق الوراقة متقن التقييد مشابه لخطوط الأشياخ، شديد المحافظة على كتبه مثابرا على الاعتناء بتصحيحها مهتما باقتناء الأصول التي بخطوط أكابر الشيوخ أو عنوا بضبطها وجمع منها جملة وافرة»[17].

ومنها خزانة ابن الصقر الذي كان محافظا لخزانة الملك، قال صاحب الديباج «ولم تكن همته مصروفة إلا الى العلم وأسبابه فاقتنى من الكتب جملة وافرة سوى ما نسخ بخطه الرائق وامتحن مرات بضروب من الحوائج كالغرق والنهب بغرناطة في الفتنة الكائنة بها وكذلك نهبت كتبه بمراكش حين دخلها عبد المومن وكان معه عند توجهه إلى مراكش خمسة احمال كتب وجمع منها بمراكش شيئا عظيما»[18] ومنها حزانة ابن غلندة الأموي الطبيب الخاص ليعقوب المنصور، يقول ابن أبي اصيبعة في طبقات الأطباء ولوكلير Lecler في تاريخ الطب العربي : وقد امتاز ابن غلندة في خطاطته بأنه كان يكتب بخطين أندلسيين»[19].

ومنها أخيرا خزانة محمد بن أحمد القيسي المسلهم الرندي 653 ه قال في الذيل والتكملة : «كان محدثا مكثرا متسع الرواية أديبا من أبرع الناس خطا عاقد للشروط جماعة للكتب وفوائد الشيوخ نسابة لخطوط العلماء ذاكرا للتواريخ...»[20]

---

(15) ابن فرحون : الديباج المذهب ص 49.
(16) القصة التي حكاها المقري في نفح الطيب عن المخطوط الذي كان يزيد فيه عالم وهاو للكتب.
(17) المراكشي : الاعلام ج 4 ص 239 — 240.
(18) ابن فرحون الديباج ص 49.
(19) طبقات الأطباء ج 2 ص 79 و.
(20) المراكشي : الاعلام ج 5 ص 365.

ولم نكن بحاجة الى الحديث عن خزانات العلماء والفقهاء والفلاسفة الذين عرفوا بمصنفاتهم وآثارهم الواسعة أمثال ابن طفيل ابن رشد والقاضي عياض وأمثالهم. ومن يقرأ في كتب التراجم يجد مزيدا من الأحاديث المتعلقة بالخزائن الخاصة لمن سكن مراكش على عهدي المرابطين والموحدين.

اما الخزانات العامة فإن الباحث ليجد حرجا لتحديد مفهوم «العمومية» في ذلك الوقت، فالخزانات المغربية بجميع أصنافها كان لها طابع عمومي فبالاضافة الى خزانات المساجد المفتوحة في وجه عامة الناس كانت الخزانات الملكية والمكتبات الخاصة تفتح للعلماء والكتاب والأصدقاء والخواص باستثناء غير المعروفين من الطبقات الشعبية. ومما يدل على عمومية الخزانات في تلك الفترة ظاهرة وقف الكتب عليها ليقرأها من شاء من الناس رجاء ثواب الله ومرضاته. ولهذا كان المغاربة على اختلاف طبقاتهم يسارعون إلى وقف المصاحف والكتب الدينية وسواها. فلا تزال المكتبات المغربية تحتفظ ببعض أجزاء المصحف وكتب أخرى مثل التمهيد[21] لابن عبد البر (463 ه) والانجاد في أبواب الجهاد لابن اصبغ[22] التي وقفها الخليفة الموحدي عمر المرتضى في أواسط القرن السابع الهجري.

ولهذا السبب كذلك روى صاحب **اختصار الأخبار** ان أول خزانة عمومية ظهرت في المغرب هي خزانة أبي الحسن الشاري 649 التي وقفها في المدرسة التي بناها بنفسه في سبتة[23].

والمرجح أن هذا الصنف من الخزانات كان موجودا بمراكش قبل عهد الشاري، ويعتقد الأستاذ المنوني أن الخزانة التي بناها يعقوب المنصور في مراكش كانت لها صبغة عمومية، وقد تحدث عنها العمري في **المسالك والممالك**[24] **والحسن الوزان الغرناطي الفاسي المعروف بليون الافريقي في كتابه وصف افريقيا**، يقول هذا الأخير بعد مضي أربعة قرون على بناء المنصور للمدرسة وخزانتها في القصبة : «والقصر الذي كانت فيه خزانة الكتب استعمل جناح منه للدجاج وآخر للحمام وأصبحت الخزانات التي كانت توضع فيها الكتب أقفاصا لهذه الطيور»[25].

هذه بعض أخبار هذه المؤسسات العلمية على عهدي المرابطين والموحدين، وعلى الرغم من ضآلتها وضحالتها فإنها قد مكنتنا من رصد الدور الفعال الذي لعبته في تطوير الثقافة العربية الاسلامية في ذلك العهد. فبالاضافة الى اقتناء النوادر من المخطوطات والنفائس من المؤلفات

---

(21) الخزانة الملكية رقم 927.

(22) خزانة ابن يوسف رقم 216.

(23) اختصار الأخبار للاسنارب تحقيق ليفي بروفنصال : في هسبيرس عام 1931.

(24) مسالك الأبصار : فضل الله العمري ج 1 ص 184.

(25) وصف افريقيا : ج 1 ص 133 من الترجمة العربية.

وتمكين العلماء والباحثين من قراءتها والاستفادة منها كان الخلفاء يشجعون الكتاب ويطالبون العلماء والمؤلفين بوضع الكتب في العلوم والفنون التي تفتقر اليها الثقافة العربية بوجه عام. وكانت النتيجة أن ألفت هذه الكتب ووضعت في خزاناتهم وكان لها الأثر الكبير على جهابذة الفكر منذ القرن السادس الى اليوم. قال المستشرق الفرنسي إ. رينان (E. Renan) لولا ابن رشد لما فهمت فلسفة أرسطو. ونقول نحن بدورنا لولا يوسف بن عبد المومن الموحدي لما عمل ابن رشد على شرح وتلخيص أعمال هذا المفكر اليوناني الذي عرف العديد من آثاره ودرس في الجامعات الأوربية من خلال شروح وتلخيصات ابن رشد لها(26).

هذه بإيجاز مخل بعض مساهمات الخزانات المراكشية في مسيرة الثقافة في ذلك العهد.

وختاما لهذا العرض أقول ما تفضلتم بسماعه هو عبارة عن الكتب والمكتبات الى مزيد من التعميق والتحليل. فالذي يجب أن يبحث فيه وهو لم يبحث حتى الآن هو انعكاسات هذه الحركة التأليفية على الجوانب الاقتصادية والاجتماعية بمعنى كيف كانت تتم نساخة الكتب ومن كان ينسخها وما هي الأعداد التي كانت تنسخ وما هو المردود المادي وانعكاسه الاقتصادي على المجتمع المراكشي، ولم استمر استعمال الرق مع ظهور الورق ؟ ولمن كانت الغلبة للكاغد أم للرق ؟

ان هذا النوع من البحث العلمي الاحصائي يمكننا من الوقوف على جوانب مهمة من الوضعية الاجتماعية والاقتصادية لمراكش والتي يهملها التاريخ أو ضاعت المصادر التي تنص عليها. والمجال الوحيد الذي يمكن أن نتمكن من خلاله الى الوصول الى بعض هذه النتائج هو دراسة ما بقي من النسخ الخطية التي تعود الى ذلك العهد أو الى العهود التالية دراسة علمية مخطوطية. فالبحث العلمي اليوم لم يعد فيه مجال للتأويل والحدس في غياب النصوص وعلى الأخص إذا كان الأمر يتعلق بمجتمع في العصر الوسيط كمجتمع مراكش على عهدي المرابطين والموحدين.

---

(26) أمر السلطان الفرنسي لويس الحادي عشر Louis XI بتدريس مذهب ابن رشد في كل جامعات فرنسا.

قضية الجانب الشرقي بمراكش

ذ. محمد رابطة الدين
كلية الآداب ــ مراكش

تسمح طبونيمية — Toponymie — مراكش باستخراج ثلاثة أنواع من أسماء الأماكن، يرجع اختلافها الى تباين تطورها التاريخي.

1 — أسماء حية : المقصود بها احتفاظ مكان ما من المدينة باسمه الأصلي الذي أطلق عليه مثل : اسم مراكش، وباب ايلان، وأسول.

2 — أسماء متجددة : يقصد بها اختفاء الاسم الأصلي لمكان ما لصالح اسم جديد حل محله مثل : باب الخميس مقابل باب فاس، وباب الرب مقابل باب القصر ودرب السقاية بدل درب نص ريال.

3 — أسماء ميتة : أساسها اختفاء اسم كان يطلق على مكان ما دون أن يتم تعويضه. وفي إطار هذا النوع يدخل الجانب الشرقي.

وأن اعتبار الجانب الشرقي كقضية بل اشكالية يرجع إلى ملاحظتين :

— ان هذا الجانب لم يعالج بعد مع العلم بأنه يشكل عنصرا أساسيا لفهم التاريخ الاجتماعي والديني للمدينة خلال فترة العصر الوسيط على الأقل.

— اعتبار هذا الجانب مفتاحا ضروريا من أجل فهم واضح وشامل لمجموعة من المعطيات التي قدمها كتاب «التشوق» لابن الزيات الذي تشكل مادته قاعدة هذه المساهمة.

وعليه فإن هذه المساهمة تستهدف أساسا اثارة المشكل وذلك بمناقشة بعض جوانبه.

الحيثيات والمكونات :

1 — أصل التسمية :

يرجع إطلاق اسم الجانب الشرقي فيما يبدو إلى النصف الثاني من القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي. ومن غير المستبعد أن هذه التسمية لم تكن شائعة بين السكان. وإنما كانت خاصة ومحدودة التداول بين أهل التصوف بشكل أساسي. وعليه فإنها لم ترد كمفهوم جغرافي متداول بين جغرافيي الفترة وأبرزهم الادريسي(1)، ولم تستعمله الوثائق الرسمية للمخزن الموحدي (2). وفي هذا السياق أيضا تغافلته الكتب الاخبارية المعاصرة «كنظم الجمان»(3)، و«المعجب»(4). وعكس ذلك يلاحظ أن هذا الاصطلاح قد ورد بشكل ملحوظ في إطار خطاب

(1) الشريف الادريسي : وصف افريقيا الشمالية والصحراوية — تصحيح : هنري بيرز — الجزائر — 1957 — ص 43 — 45.

(2) انظر مثلا : «مجموع رسائل موحدية ص انشاء كتاب الدولة الموحدية أصدرها ليفي دروفنسال — الرباط — 1941.

(3) ابن القطان : نظم الجمان. تحقيق محمود مكي. الرباط. انظر الصفحات الخاصة بمراكش.

(4) عبد الواحد المراكشي : المعجب في تلخيص أخبار المغرب. تحقيق محمد سعيد العريان، محمد العربي العلمي. القاهرة 1949. انظر صفحات مراكش.

صوفي ضمن مصادر ذات صبغة دينية خاصة بتراجم أهل التصوف، اقدمها كتاب «التشوق» لابن الزيات التادلي[5] الذي تشكل مادته قاعدة هذه المساهمة.

2 ــ طبيعة ورودها :

لم يرد الحديث عن الجانب الشرقي بشكل مباشر، وهو ما ينعكس في غياب التعريف به سواء من طرف ابن الزيات، أو من لدن من أتى بعده. وعليه يلاحظ أن الكلام عنه كان عرضيا الشيء الذي يتجلى في صيغ الاشارة التي صاحبت وجوده في مختلف النصوص التي احتوته، كل ذلك يتبين من خلال طبيعة وروده التي تجلت بشكل خاص في تكرارا استعمالات الاصطلاح أثناء تحديد علاقة بعض المترجم لهم بهذا المجال، بين الانتماء اليه، وذلك باستخدام جملة «من أهل الجانب الشرقي» وبين القدوم اليه لفترة غير دائمة. وذلك باستخدام تعبير «نزل ــ أو ــ نزيل الجانب الشرقي». كل ذلك أثناء الترجمة لأشخاص عرفوا بالورع والصلاح، قاسمهم المشترك الانتماء الصوفي والاحسان، وعدم ممارسة مهام مخزنية.

3 ــ بداية استعمالها :

اما فيما يتعلق بالتحديد الزمني، فإننا لا نتوفر على تاريخ مضبوط لبداية اطلاق هذا الاصطلاح على الجهة الخاصة به من المدينة. ورغم ذلك فيبدو أن أقدم تاريخ لورود الجانب الشرقي يعود إلى منتصف القرن السادس الهجري اعتبارا إلى أن أبعد شخص ذكر انتماؤه الى المجال توفي سنة 577 هجرية، بعد قدومه مراكش ونزوله بالجانب الشرقي منها[6]. على أن هذه الحالة غير تامة الوضوح من المعلومات الخاصة بهذه النقطة تدفع الى التساؤل : هل بداية استعمال المصطلح تعود فعلا إلى هذه الفترة ؟ هل كان متداولا خلال فترة حياة الأشخاص الذين ورد ضمن تراجمهم ؟ خاصة إذا علمنا أن ابن الزيات أورد تراجم لمتصوفة عاشوا بمراكش لفترة سابقة عن هذا التاريخ، وكان لهم فيما يبدو اتصال معين بهذا المجال[7]. ولم يستخدم المصطلح المذكور في الاشارة الى ذلك، في الوقت الذي عرف فيه بمتصوفة عاصرهم والتقى بهم[8] كأبي العباس السبتي[9]، وأورد كرامات لهم كان مجالها بعض جهات الجانب الشرقي[10] دون أن ينسبهم للمنطقة[11]. وفي الأخير

---

(5) ابن لزيات التادلي : التشوف الى رجال التصوف، تحقيق : أحمد التوفيق الرباط 1984. ص. 254.
(6) التشوف 240.
(7) التشوف 238.
(8) التشوف 453.
(9) التشوف 451 ــ 477.
(10) التشوف 473.
(11) المسألة مثيرة بشكل خاص في تعامل ابن الزيات مع أبي العباس السبتي حيث أشار إلى وقوع كراماته كلها باستثناء واحدة خارج الجانب الشرقي، كما أن أسلوبه يحمل تحفظا واضحا من المترجم له.

نتساءل : أليس المصطلح من وضع ابن الزيات نفسه في فترة التأليف ؟ ولهذه الامكانية هي الأخرى ما يبررها خاصة من جانب ظرفية التأليف على الأقل[12]. كيفما كان الحال، فالمصطلح فيما يبدو تنعكس أهميته أكثر في دلالته التاريخية التي تغطي النصف الثاني من القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي.

II ـــ المكـونـات :

1 ـــ التحديد الجغرافي :

يقع الجانب الشرقي من مراكش بين باب فاس شمالا وباب أغمات جنوبا والواجهة الشرقية من السور شرقاً، أما الحدود الغربية فتقع حسبما يبدو على خط طول موقع مسجد الصحراوي[13] وبذلك فإن هذا المجال : بهذا التحديد كان يمثل حوالي 30 % من مساحة المدينة آنذاك.

2 ـــ المكونات البشرية :

يلاحظ أن الجانب الشرقي كان مستقرا الجماعات ترجع أصولها القبلية أو الجغرافية الى خارج الحوز، نميز من بينها مجموعة من أهل سبتة[14]، وأخرى من أهل تدغة[15] وثالثة من سكان تادلة[16]، اضافة الى أفراد عديدين قدموا الى هذا المجال، وينتمون الى مناطق بعيدة كاشبيلية[17] في الأندلس، علما بأن المنطقة فيما يبدو كانت تعرف تحركا بشريا أساسه الوافدون اليها بأطراد، وهو ما تسمح به عبارة «نزل به ونزل الجانب الشرقي».

وإذا كانت الأسماء المترجم لها تعتبر كنماذج فقط باعتبار اشعاعها وحضور تأثيرها على المستوى الاجتماعي بشكل خاص، فإننا لا نستبعد امكانية وجود حركة داخلية من باقي أماكن المدينة إلى الجانب الشرقي، وان كانت محدودة الزمن[18] خاصة في إطار مفهوم وتقليد الزيارة[19].

ومن غير المستبعد كذلك ان المجال كان يعرف في نفس الفترة ديمغرافية ذات أهمية خاصة، تمركزت عبر محاور أربعة كانت تربط بين الأبواب التي يضمها الجانب الشرقي[20] من جهة، ووسط

(12) التشوف. مقدمة المحقق.

(13) التشوف 201، وخريطة مراكش الملحقة بالكتاب

(14)-(15) Gaston Dererdun Marrakech des origines à 1912, Tome II Rabat 1959, Carte de Marrakech pendant l'époque des Almohades.

(16) التشوف 21.

(17) التشوف 140.132.96.101.

(18) هذا التقليد كان معمولا به وبقي متواصلا ولدينا منه نماذج في القرن الخامس والسادس الهجري. انظر التشوف، 96. ويبدو أن المسألة أصولا صوفية شاهمت الزيارات المنتظمة لرباط شاكر في تكريسها.

(19) التشوف 96. 234.

(20) الأبواب هي : باب فاس، باب الدباغ، باب ايلان، باب اغمات.

المدينة من جهة ثانية(21). ومما يسهم في توضيح بعض جوانب هذه المسألة :

أ ــ ان أغلب المساجد والجوامع المذكورة بالمدينة في هذه الفترة تقع في هذا المجال، وهي انعكاس لحاجيات ضرورية يومية أكثر منها رغبة في تأسيس عمران كمالي(22).

ب ــ يلاحظ أن المنطقة كانت تمثل مكانا لتجمع معظم الحرف والحرفيين بالمدينة، وعليه كان المجال مركزا للانتاج، وموقعها للسكن كذلك، وهي حالة غير جديدة في مورفولوجيا المدينة المغربية آنذاك، حيث كانت تمثل احدى ركائز الوحدة المعمارية التي انتظمت داخلها والمتمثلة في الحومة(23). وإذا علمنا بأهمية منتوجات الحرف آنذاك سواء بالنسبة للمخزن أو السكان، محليا أو خارجيا، فإن الانتاج الحرفي الكبير الذي قدمته المدينة خلال هذه الفترة(24)، لا يمكن أن يفهم الا مع وجود طاقة بشرية منتجة كان الجانب الشرقي مركز تواجدها.

3 ــ المكونات الدينية :

يمكن تحديدها في خمسة مساجد هي : مسجد تورزكين(25)، مسجد أبي مروان،(26) مسجد بئر الجنة(27) مسجد الصحراوي(28) مسجد ابن الأبكم(29). تضاف الى ذلك رابطة أبي إسحاق البلفيقي(30) ورابطة الغار(31)، ثم مدفن القاضي عياض(28). وأشير هنا الى أن هذه الاحصائية لا تمثل بالضرورة ما كان وإنما ما سمحت به المصادر خاصة «التشوف». مع العلم أن عددا من المساجد قد ذكرت في نفس الفترة ولم يتم التوصل إلى الآن لتحديد مواقعها بالمدينة(33).

المبررات والدلالات :

يبدو أن التركيز على الجانب الشرقي يرمي من بعض الوجوه إلى «ابراز ظاهرة الصلاح»(34) بهذا المكان المحدد على وجه الخصوص. فهناك غياب المصطلح بالنسبة لباقي الجهات الثلاثة من

(21) Marrakech Op. cit. carte de la ville pendant l'époque des Almohades.

(22) التشوف ــ خريطة مراكش.

(23) هذا مظهر عرفته مدن الغرب الاسلامي بوجه عام انظر مثلا عن القيروان. أبن عذاري : البيان المغرب، الجزء الأول. تحقيق جورج كولان، ليفي بروفنسال. بيروت، دون تاريخ. ص 78.

(24) وصف افريقيا الشمالية ص 44 ــ 45.

(25) التشوف 238.

(26) التشوف 346.

(27) التشوف 306.

(28) التشوف 380.

(29) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة. السطر الثامن، القسم الأول، تحقيق محمد بنشريفة. الرباط 1984، ص. 249.

(30) التشوف 305.

(31) التشوف 132.

(32) التشوف.

(33) التشوف.

(34) التشوف 14.

المدينة : غرب، شمال، جنوب. ثم تزايد نسبة الاهتمام بأخبار رجالات التصوف الذين كانت لهم بالمنطقة صلة، بالمقارنة مع الجهات الأخرى. يتضح ذلك من خلال المعطيات التالية :

فقد بلغ عدد المرات التي ذكر فيها اسم مراكش بما في ذلك مرافقها من أحياء ومساجد ورباطات... الخ أكثر من 150 مرة، الثلثين منها جاء الاستعمال فيها عاما بإطلاق اسم مراكش. بينما الثلث المتبقى ورد بشكل متخصص وذلك بتحديد أماكن بالمدينة لها علاقة ببعض أخبار النصوص، وفي هذا القسم الأخير يلاحظ أن الجانب الشرقي احتلت أخباره موقع الصدارة.

ومما يلاحظ أن ظاهرة الصلاح السابقة الذكر كانت لها علاقة عضوية بعنصرين بارزين ساهما في خلقها والاهتمام بها : أساس الأول : التحولات التي عرفها التصوف بالجنوب المغربي في نفس الفترة. بينما يقوم الثاني على وضعية التصوف والمتصوفة في إطار مجال حضري يتميز بالاتساع واستفحال العمران[35]، والعنصران معا يمثلان انعكاسا لحالة غير عادية كان نشاط المتصوفة يمر بها في هذه الجهة من المغرب آنذاك. وهو ما يتجلى في رد فعل ابن الزيات ضد التحول، ودعوته إلى ما يخالف ذلك.

1 ــ انتقال التصوف إلى إطار الطائفة :

نعتقد أن قضية الجانب الشرقي لها من بعض الوجوه علاقة بظرفية تحول عرفها التصوف جنوب المغرب في نفس الفترة، وتتجلى في ظهور بوادر تشكيل التنظيمات الجماعية لأهل التصوف والمتمثلة في تأسيس الطوائف كمؤسسات مؤطرة للعمل الصوفي. فمن المعلوم أن الجنوب المغربي بدأ يعرف منذ منتصف القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي. ظهور الطوائف الصوفية الأولى[36] وهي طائفة الشعبيين والصنهاجيين،[38] والماكريين والحجاج[37].

يلاحظ كذلك أن هذه الطوائف بدأت من شمال هذا المجال أي من جنوب وادي أم الربيع، متصلة أكثر بالشريط الساحلي بين أزمور وأسفي، في نفس الوقت بقي الحوز وما وراءه جنوبا ــ فيما يبدو ــ بعيدا عن هذه التحولات، ضمن ذلك بقيت مراكش هي الأخرى محافظة على تقاليدها الصوفية غير المرتبطة بالطائفة، الأمر الذي ساهم فيما بعد في اعطاء الفرصة لأغمات كي

---

(35) التشوف 14.

(36) ابو عبد الله تكلات.
إثمد العينين. ونزهة الناظرين في مناقب الأخوين.
تحقيق ودراسة : محمد رابطة الدين. رسالة دبلوم الدراسات العليا في التاريخ ــ الرباط 1986. الجزء الاول، ص. 72.

(37) التشوف 187 ــ ابن قنفد القسنطيني. أنس الفقير وعز الحقير، نشره وصححه : محمد الفاسي وأدولف فور، الرباط 1965، ص. 64.

(38) انس الفقير 64

(39) انس الفقير 64.

تظهر بها طائفة الغماتيين كأول طائفة صوفية تأسست بمنطقة الحوز والدير الشمالي للأطلس الكبير الغربي خلال منتصف القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي(40).

ومن غير المستبعد إذن أن مراكش كانت في الفترة المدروسة تعرف نوعا من عدم الرضى على هذا الشكل التنظيمي الجديد لأهل التصوف، ويستشم ذلك من خلال مجموعة إشارات أوردها ابن الزيات أهمها :

ــ «عنوان كتابه «التشوف الى رجال التصوف» الذي يعطي أفضلية الماضي على الحاضر في تصوف المغاربة»(41).

ــ عدم الارتياح لمتصوفة الوقت، الشيء الذى تجلى في إغفال التعريف بهم. وضمن هؤلاء نجد أبا محمد صالح الذي كانت الطائفة المنتسبة إليه قد تأسست بأسفي(42).

ــ «الطعن بشكل غير مباشر في متصوفة وقته»(43) وبالجملة فقد قل الصالحون المخلصون في هذا الأوان»(44).

ــ غياب مصطلح الطائفة في أماكن كان الخطاب يقتضيها(45).

في هذا الاطار الذي يبدو فيه أن متصوفة مراكش كانوا متحفظين من الطائفة، يمكن القول أن الجانب الشرقي بمكوناته الصوفية شكل محاولة للتنظيم مخالفة للطائفة، تتجاوز هذه الأخيرة لتتفتح على كل الاختيارات الصوفية : كالملامتية(46) والمدرسة البومدينية(47) خاصة وأن هناك سبقا في هذا بالجنوب مثله على الأقل رباط شاكر(48).

على أن هذا الاختيار الذي حاول معاكسة إطار الطائفة يجعل الحوز منطقة خارجة عن مراكز نفوذها، إذا بدا نجاحه واضحا مع النصف الثاني من القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي، فإن أفوله تجلى مع القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي. حيث سيغزو التنظيم الطائفي الحوز عن طريق تأسيس طائفة الغماتيين بأغمات التي سرعان ما امتد اشعاعها الى مراكش وكان لها حضور في الجانب الشرقي من المدينة(49).

(40) اثمد العينين. 75/1.
(41) اثمد العينين 73/1.
(42) التشوف 41.
(43) التشوف 41.
(44) التشوف 41.
(45) التشوف 187 كمثال.
(46) التشوف ترجمة أبي العباس السبتي، 451ــ477.
(47) التشوف ترجمة أبي مدين الغوث. 319.
(48) التشوف 51 ــ 52.
(49) إثمد العينين. الجزء الأول 103.

2 ـــ التصوف ومجال المدينة :

إن اعتبار قضية الجانب الشرقي كإطار لتنظيم التصوف الحضري، تبدو مسألة وجيهة. فما هو معروف أن الحوز شهد نشاط التصوف أساسا عند الدير خاصة في المجال القروي[50]، وفي نفس الوقت عرفت اغمات كمركز حضري نشاطاً ملحوظاً[51]، إذاً هناك تجربة سابقة لممارسة أهل التصوف نشاطهم بالمجال. على أن انتقال هذا النشاط إلى مراكش طرح فيما يبدو مشكل تكييفه واندماجه بحجم وكثافة متزايدة مع مركز حضري ضخم على مستوى العمران. كثيف على مستوى السكان، قوي على المستوى السياسي حديث على مستوى تاريخ التأسيس[52].

ومن غير المستبعد أن هذا العنصر الأخير ترتب عنه انطباع بمحدودية وضعية التصوف وأهله بالمدينة، مع عدم توفر تقاليد متميزة لها في هذا الباب. وهذا التصور يمكن إدراكه من خلال كتاب «التشوف» انطلاقا من مقارنة تتعلق بهذا الجانب بين مراكش وفاس[53]. وبين مراكش وأسفي[54].

ومما تقدمه المقارنة على مستوى الزمن أن هذه الوضعية المحدودة كانت قبل فترة أبي مدين وبقيت مستمرة إلى بداية القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي. على مستوى المكان المقارنة قائمة بين مجالات حضرية لا بين المدينة والبادية، ولهذا أهميته.

أما النتيجة فهي التشكيك بل الطعن في مكانة مراكش في نطاق التصوف وعدم مسايرتها لمدن مثل فاس وأسفي. وهنا يجب التساؤل عن مدى صحة النتيجة ؟

فالذي يبدو أن النشاط الصوفي بالمدينة لم يكن له حضور متميز منذ تأسيسها إلى منتصف القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي. بدليل أن ابن الزيات وهو أقرب مصدر معروف عن الموضوع في هذه الفترة، لم يشر طوال هذه المدة ـــ قرنا كاملا ـــ سوى الى تواجد صوفيين من الأندلس استقرا بمراكش : الأول عن اختيار وتوفي سنة 520 هجرية[55]. والثاني بالضرورة وتوفي سنة 537 هجرية[56]. ومما يسهم في توضيح ذلك اختيار أبي مدين فاس على مراكش للتفرغ للعبادة. وهذا يساير أيضا طبيعة العلاقات المتوترة التي كانت قائمة بين المرابطين وأهل التصوف والتي من شأنها أن تبعد المتصوفة عن عاصمة هذا المخزن[57].

---

(50) التشوف، الخرائط الملحقة.

(51) التشوف، 83 / 92 كأمثلة فقط.

(52) ابن عذاري المراكشي : البيان المغرب ـــ قسم الموحدين ـــ تحقيق محمد ابراهيم الكتاني ـــ محمد زنيبر ـــ محمد بن تاويت ـــ عبد القادر زمامة. البيضاء 1985. ص. 153.

(53) التشوف 320.

(54) التشوف 439.

(55) التشوف 107.

(56) التشوف 118.

(57) التشوف 96.

أ كثر من ذلك فقد بلغ عدد أعلام التصوف الذين لهم صلة بمراكش اما بالانتماء الجغرافي أو بالزيارة لها أو بالاستقرار فيها. والذين ترجم لهم ابن الزيات في «التشوف» حوالي سبعين علما من أصل 277. ويتبين من خلال تواريخ الوفيات أن 68 من أصل سبعين تعود وفياتها الى النصف الثاني من القرن السادس الهجري / الثالث عشر الميلادي. مع العلم أن المدينة ستعرف وفيات متزايدة بين المتصوفة الذين لهم علاقة ما بمراكش بين سنتي 590 — 616 هجرية حوالي 45 على الأقل.

ويبدو كذلك أن هذه الوضعية عرفت نوعا من الاستمرار مع بداية النصف الثاني من القرن السادس الهجري مما يسهم في توضيح ذلك.

1 — من منتصف القرن إلى سنة 586 هجرية بلغ عدد المتصوفة الذين لهم صلة بالمدينة حوالي العشرين، تسعة منهم استقروا نهائيا بالمدينة، والباقون قدموا إليها فقط دون استقرار دائم بها.

2 — أن عدد المنتسبين الى الجانب الشرقي في نفس المدة لم يتجاوز ثلاثة أفراد.

بناء على هذه الملاحظات يمكن تسجيل ان الحركة الصوفية بمراكش كان نموها يعرف خطا تصاعديا وصل مداه مع نهاية القرن السادس وبداية السابع الهجريين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين.

كل هذا يجعل الحكم السابق محل شك على الأقل، خاصة فترة النصف الثاني من القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي، وذلك بعد ما تبينت أهمية حال القوم بالمدينة رغم حداثتها وذلك من خلال التأكيد على وجود أماكن خاصة بالتصوف داخل المدينة من رباطات ورابطات. وتميز جهة كاملة من المدينة بالنشاط الصوفي متمثلة في الجانب الشرقي، واعتبارها مقصدا للمتصوفة وأهل الصلاح، واحتضانها لاعلام في التصوف لهم من التقدير والاعتبار ما اعترف به أقطاب تصوف الوقت كأبي محمد صالح(58) وعكسته فيما بعد مصادر مختلفة خاصة كتب التراجم(59) والمناقب(60) واحتفظت به ذاكرة أهل المدينة خاصة من خلال أدب الملحون. إذ تعتبر قصيدة الشيخ الجيلالي امتيرد حول سبعة رجال من أكثر القطع دلالة في هذا الباب تقول لازمتها :

اللي خفاه الصلاح يجي لبلدنا
اقصد ناس مدينت لحضر
مراكش بلد لقطاب والتنوير
يزر ناسها، اتزها فقبوب سلطنا
ويسلم لرجالها سبع
وغد ترابها كل قدم بفقير

(58) التشوف 439.
(59) الذيل والتكملة مصدر سابق 249/II.
(60) اثمد العينين.

المساجد ووظائفها بمراكش زمن المرابطين والموحدين

ذ. حامد التريكي
نيابة وزارة التربية الوطنية — مراكش

إن تنقيب في مختلف المصادر التاريخية المعاصرة للدولتين المرابطية والموحدية أو القريبة من عهدهما ليُمَكِّن من إحصاء ما يقرب من 24 مسجدا وجامعاً شيدت بالعاصمة، مراكش. وليس هذا يعني أن المدينة لم تكن تتوفر الا على هذه المساجد في الفترة المحددة، وما من شك أن عدد المساجد آنذاك كان يفوق ما توصلنا اليه وإن كنا قد حاولنا قدر الامكان أن يكون الجرد جردا تاما، على الأقل من المصادر المتوفرة حاليا، كما سنبين ذلك في الكشف اللاحق، متتبعين أسماء تلك المساجد ومواضعها ووظائفها وكذلك الأحداث الخاصة المقترنة بذكر أسمائها.

اعتمادا على الكشف المذكور، يمكن تصنيف هذه المساجد في مرحلة أولى تصنيفا زمنيا من جهة وتصنيفا جغرافيا حضريا من جهة ثانية.

أ ــ **المساجد المرابطية** : يصعب إحصاؤها ما دام الموحدون قد أمروا، كما هو معروف، بتخريبها بعد دخولهم عنوة لمراكش سنة 1146 م[1] ولم يسفر البحث إلا على إحصاء 4 مساجد نسبتها لمرابطين ثابتة وإن كنا نرجح أن عددا من المساجد الصغيرة المذكورة، على الخصوص في كتاب : التشوف الى رجال التصوف[2]، والتي كانت موجودة في الجانب الشرقي من المدينة، قد يرجع عهد بناءها الى زمن المرابطين أيضا، علما بأن هذه المساجد كانت مقرا للعباد والزهاد وأرباب المهن الذين عاشوا في الفترة الانتقالية بين الدولتين المرابطية والموحدية. أما المساجد الأربع الثابتة نسبتها للفترة المرابطية فهي : مسجد الطوب الذي شارك في بنائه يوسف بن تاشفين نفسه ومسجد صومعة الطوب، ولا نحسم بأن الأسمان علما لمسجد واحد. والملاحظة التي تجلب الانتباه هنا تتعلق باستعمال الطوب في هذه الفترة لتشييد بناء عال مثل الصومعة، ويذكرنا هذا النمط في البناء بالهندسة الترابية التي تتميز بها قصبات الواحات في المناطق شبه الصحراوية جنوب المغرب، وبالتالي فإن هذا الخبر أهمية بالغة لأنه يجعلنا نتصور استقراءا، صنفا من أصناف الهندسة المعمارية الشعبية بمراكش. وهناك ذكر لمسجد مرابطي ثالث هو مسجد عرفة انفرد البيذق بذكره مقرونا باستقرار المهدي ابن تومرت به وكأن المهدي قد اعتصم بهذا المسجد بعد المقابلة الصاخبة مع فقهاء المرابطين[3] اما جامع علي بن يوسف ويطلق عليه اسم جامع السقاية، فهو المسجد المرابطي الوحيد الذي كانت تقام به الجمعة، حسب المصادر المعتمدة، وقد أسفرت التنقيبات الأثرية بمنطقته على اكتشاف السقاية المذكورة ومجاريها المائية[4]. وهذا الجامع من ضمن المساجد المرابطية

(1) البيذق : أخبار المهدي، ص 66. طبعة دار المنصور ــ الرباط 1971.

(2) الطبعة الثانية، تحقيق الأستاذ أحمد التوفيق، منشورات كلية الآداب ــ الرباط. 1984.

وقد استفدنا كثيراً من تحقيقاته الدقيقة في هذا المجال. ويرجع في هذا الباب للفهارس تحت كلمات : جامع، مسجد، مراكش...

(3) البيذق، نفس المصدر، ص 27.

(4) J. Meunie Nouvelles recherches Archèologiques à Marrakech Paris 1957

التي أمر عبد المومن بن علي بتحطيمها. والظاهر أنه لم يهدم بأكمله، ونجد له ذكرا متكررا زمن الموحدين، سنة 548 هـ (1154 م) في غمار ثورة اخوتي المهدي ابن تومرت على عبد المومن بن علي حيث كان من المقرر أن يجتمع المتآمرون داخله[5]، كما يذكر أيضا كمقر لاجتماع «الفقراء» (الصوفية) أثناء احدى المجاعات قبل سنة 576 هـ وذلك لتوزيع المواد الغذائية على المعوزين[6]. ويستدل من الخبرين على أن المسجد ربما يكون أصبح قفرا بسبب تخريبه الجزئي، وبالتالي مقرّا لتجمعات سرية أو عمومية شعبية، حسب الحالات.

ب ــ **المساجد الموحدية** : توصلنا بعد الجرد المذكور الى احصاء 18 مسجد من بينها ثلاثة تقام بها صلاة الجمعة وهي : جامع الكتبيين بشقيه الأول والثاني، جامع القصبة وجامع ابن يوسف آخر العهد الموحدي بعد ما أعاد بناءه الخليفة المرتضى سنة 654 هـ (1256 م).

وأول مسجد موحدي بمنطقة مراكش هو المسجد الذي بناه عبد المومن بن علي في قمة جبل جيليز أثناء حصاره لمراكش سنة 1146 م[7]. ويبدو أن وظيفته الى جانب الوظيفة الدينية، كانت استراتيجية كما يستدل على الأمر من عبارة صاحب الحلل الموشية : «وهو (جيليز) جبل صغير بنى عليه مدينة وبنى فيها مسجدا **وصومعة طويلة** يشرف منها على مراكش»[8].

وإذا كانت المساجد الموحدية الكبرى مثل مسجد الكتبيين ومسجد القصبة قد استأثرت باهتمام المنقبين الأثريين والباحثين المهتمين بتاريخ الهندسة المعمارية وفنونها[9] من العشرينات إلى الخمسينات، من هذا القرن، فإن معظم المساجد الموحدية الموجودة على الخصوص بالأحياء السكنية الشعبية ما زالت بحاجة الى البحث في تاريخها وموقعها وهيئتها الهندسية، علما بأن في أطروحة الأستاذ كاسطون دوفردان[10] إشارات لبعضها وان تعاليق الأستاذ أحمد التوفيق على كتاب

(5) ابن عذاري : البيان. الجزء الموحدي ص 50. تطوان 1960

(6) التشوف.. رقم 99.

(7) الحلل الموشية، طبعة علوش، ص 113، الرباط 1936. وهناك ذكر لمسجد موحدي آخر يحمل نفس الإسم إلا أنه بمنطقة جيليز التي في قبيلة هرغة بالسوس، نشير إليه لرفع الإلتباس الممكن بينه وبين مسجد جليز بمراكش. وقد زاره عبد المومن بن علي أثناء رحلة لسوس سنة 552 هـ. كما في الرسالة الموحدية رقم 17، ص 86، نشر ليفي بروفنسال، الرباط 1941 «مجموع رسائل موحدية من إنشاء كتاب الدولة المؤمنية».

(8) نفس المرجع والصفحة.

(9) أهم المراجع في هذا المجال هي :

- H.Basset et H.terrasse Sanctuaires et forteresses Almohades, collection Hesperis No V 1932 Paris

- J. Meunié : recherghes archèologiques à Marrakech. Paris 1952.

- H. Terrasse : L'art Hispano - mauresque des origines au XII^{e} siècle Paris 1932 Tome II

(10) Gaton Deverdun : Marrakech des origines A. 1912 Tome I. P. 276. Rabat 1959

التشوف الآنف الذكر تقدم حلولا تاريخية وشروحا لغوية في غاية الافادة فيما يتعلق بأسماء المساجد المذكورة في هذا الكتاب وبمواضعها.

التصنيف الجغرافي والوظيفي :

بغض النظر عن التصنيف بحسب الأهمية وارتباط ذلك بوظيفة أساسية هي إقامة صلاة الجماعة يمكن أن نصنف هذه المساجد :

— حسب التوزيع الجغرافي داخل المدينة باعتبار الأحياء والأزقة والنشاط الاقتصادي والصناعي السائد بها... وهذا تصنيف من شأنه أن يلقي أضواء مفيدة على المدينة من حيث النمو العمراني كما يفيد أيضا في البحث عن محاور المدينة، ان كانت متعددة، وعن الروابط بين المسجد، الحومة، الهيئة الاجتماعية والنشاط الاقتصادي أو المهني أو الثقافي.

— حسب الوظائف السائدة في مسجد ما : وعظ، إقراء، ذكر، الخ... دون إغفال الوظائف الاقتصادية داخل المسجد[11] وكذا الأنشطة ذات الصبغة السياسية، كما سنقف على ذلك فيما بعد.

ا — التصنيف الجغرافي :

بناء على الجرد المقدم أعلاه، وتسهيلا لعملية توطين المساجد توطينا عاما داخل الحومة أو الجهة، قسمنا المدينة الى خمس مناطق توجد داخلها مجموعة من المساجد، وهي :

1 — منطقة الكتبيين :

سبقت الاشارة الى ان مسجد الطوب — وهو أول مسجد بمراكش — قد يوجد بهذه المنطقة باعتبارها النواة الأولى للمدينة وأن يوسف ابن تاشفين — بعد أبي بكر بن عمر — اهتم بهذه المنطقة كما يدل على ذلك إتمامه لقصر الحجر. ومعلوم أن المساجد في نطاق الحكم الاسلامي، كانت تشيد قرب مقر الحكم. وقد أقيمت في نفس المنطقة ثلاث مساجد أو على الأقل مسجدان أولهما، حسب الحلل الموشية، بناه عبد المومن بن علي قبل بناءه للكتبيين، والثاني هو مسجد الكتبيين من إنشاء عبد المومن أيضا، والثالث هو المعروف «بالكتبية الثانية» شرع في بناءه عبد المومن وأتمه ابنه يوسف كما في الاستبصار، «ثم زاد (عبد المومن) فيه مثله أو أكثر في قبلته، كان قصرا ورفع بينهما المنار العظيم الذي لم يشيد في الاسلام مثله، وأكمله ابنه وخليفته أبو

(11) فضلًا عن كتب النوازل الفقهية وعلى رأسها : المعيار للونشريسي الذي يثبت ضمنياً حالات عديدة تهم الأنشطة الإقتصادية، يرجع أيضاً لكتاب : ذكر ما تقتضيه المصلحة الدينية والإيالة الشرعية من رتبة شعائر الإسلام في مسجد الجماعات، لعلي بن محمد شكيهان الأندلسي (منتصف القرن 13 ميلادي) نشر الأستاذة، حليمة فرحات مجلة : هسبيرس سنة 1986. ويهم الأمر هنا بصفة خاصة المسجد الجامع بسبتة.

يعقوب»(12). والملاحظ أن هذا التوسيع الهائل لجامع الكتبيين يعكس لا محالة التوسع العمراني لمراكش في هذه الفترة التي استقبلت أثناءها العاصمة عددا كبيرا من قبائل المصامدة المنضوية تحت شعار العقيدة الموحدية(13).

2 ــ **المنطقة الشرقية** : أو «الجانب الشرقي» على حد تعبير كتاب التشوف وكتب المناقب عموما. وتنص المصادر المختلفة على وجود 5 مساجد على الأقل بهذه المنطقة. ولها ذكر متكرر في التشوف على الخصوص. وهذه المساجد تبدو من خلال النصوص صغيرة المساحة غير أن روادها عديدون من الفقراء والزهاد والصوفية. والمنطقة كانت ــ كما هو شأنها اليوم أيضا ــ مجالا لأرباب المهن مثل الدباغة والخزف والمختصين في الآبار والخطارات ومواد البناء الخ... ويشكلون وسطا اجتماعيا خصبا للتوعية الدينية التي كان يقوم بها الصوفية في مثل هذه البيئة، بل إن عددا من هؤلاء كانوا يمتهنون الحرف كما تدل على ذلك ألقاب بعضهم ونذكر على سبيل المثال أن الطلبة من المصامدة كانوا يقرأون القرآن وعلم التجويد على إمام مسجد بئر الجنة وهو من الصلحاء المترجم عنهم في التشوف(14) كما تجدر الاشارة إلى ان للنساء دورا ملحوظا داخل هذه المساجد بحيث سمي إحداها بمسجد العابدات(15).

3 ــ منطقة وسط المدينة :

محورها الرئيسي، مسجد علي بن يوسف وهو أكبر مسجد بناه المرابطون إطلاقا، بالمقارنة مع مسجد تلمسان والقرويين بعد توسيعه من طرفهم وقد اجريت تنقيبات أثرية جزئية أسفرت على إبراز قاعدة صومته(16)وسمحت بالادلاء باحتمالات حول المساحة ومواد البناء والتصميم. فأدى الكل إلى اعتبار مساحة المسجد المرابطي أكبر بكثير من مساحة المسجد الحالي الذي حل مكانه. وهناك مساجد نصنفها تجاوزا ضمن هذه المنطقة الوسطى وإن كان بعضها يوجد بين حومتي الموقف والسبنيين، وذلك ريثما تسمح المصادر ــ إن وجدت ــ بتوطينها بدقة أكبر. من بين هذه المساجد : مسجد سعدون ولعله بحومة المواسين، مسجد الوصيف ويحتمل وجوده بحومة الموقف

(12) الإستبصار في عجائب الأمصار، لمؤلف مجهول الإسم ص 209. تحقيق سعد زغلول عبد الحميد ــ طبعة الدار البيضاء 1985.

(13) نحيل هنا على أطروحة G. Deverdun : Marrakech des origines à 1912 Chapitre. La métropole almohade

أما بالنسبة لتصميم الكتبية الثانية ومساحتها وماكشفت عنه التقنيات الأثرية، فالمرجع الأساسي يبقى : J. Meunie : recherches archèologiques à Marrakech Fouilles aux abords de la koutoubia P. 33 - 61

(14) التشوف رقم 151 ورقم 228.

(15) التشوف ص 238 والتعليق رقم 578.

(16) G. Deverdun : op. cit., Tome I P.98 et du même auteur en colaboration avec Ch. Allain, in HESPERIS, 1959; (Rèsultats des prospections autour d'ibn Youssef

ومسجد حمام الحرة (ولعلها عزونة المرينية التي ينسب لها درب للا غزوانة ؟)، وأخيرا مسجد الصحراوي ولعله بحومة القصور أو بقاعة بن ناهض ؟

4 ـــ منطقة غرب المدينة :

ورد في كتاب الذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشي[17] ذكر لمسجد بباب دكالة زمن يعقوب المنصور كان الفقيه النحوي الشهير أبو موسى عيسى يللبخت (وهو من ضمن صلحاء التشوف) يدرس به، والظاهر أن المسجد لم يكن واسعا لأن الأستاذ قد اضطر الى نقل حلقة دروسه لمسجد أكبر هو مسجد ابن الأبكم بحومة باب أغمات، وذلك نظرا لتزايد عدد الطلبة، غير أننا لا نستبعد أن يكون الفقيه الصوفي يللبخت قد أوحى اليه من طرف الجهاز الحاكم بنقل حلقة دروسه وذلك لاشارات وردت في سياق رواية صاحب الذيل لهذا الحدث. ومهما يكن الأمر، فيستنتج من الحكاية أن الحومتان ـــ باب دكالة وباب أغمات ـــ كانتا آهلتين بالسكان وأن حومة باب أغمات تبدو أكثر تأهلا من باب دكالة في هذا الوقت.

5 ـــ منطقة القصبة وما حولها :

محورها الرئيسي بالطبع هو جامع القصبة من بناء يوسف بن عبد المومن وإتمام ابنه يعقوب ويسمى أيضا جامع القصر وجامع المنصور الخ... وكان مقرا للخطاب الرسمي الموحدي وبه كانت تعقد البيعة للخلفاء وتقام مجالس للوعظ أيام الاثنين والخميس والجمعة[18]. ولعل من بين هذه المجالس ما كان بمثابة الوظيفة الرسمية، بينما يستشف من وراء مجالس أخرى للوعظ نفس آخر، خاص، قد يكون رد فعل للوعظ الرسمي، كما يبدو ذلك من خلال ترجمة أبي عبد الله الواعظ (المتوفى سنة 614) الذي «كان سكناه مراكش باستدعاء المنصور من بني عبد المومن اياه لذلك.. ولم يكن يدخر من عطاياهم (المنصور والناصر والمستنصر) قليلاً ولا كثيراً..»[19]. وكان له مجلس وعظ بمسجد القصبة.

أما المساجد الأخرى المندرجة في نطاق القصبة فإنها تبدو لنا، تخمينا وكأنها في حومة سيدي ميمون وما جاورها في اتجاه جامع الفناء ومن بين هذه المساجد، مسجد التواركة، هرغة والقشاشين وإن كنا على شبه يقين من أن هذا المسجد الأخير لا يبعد كثيرا عن منطقة «قصيبة النحاس» لارتباطه المباشر بالقصبة بواسطة أحد أبوابها الشمالية .

(17) الذيل، الجزء 8 ص 249.

(18) التشوف رقم 268 والذيل... الجزء 8 ص 266 ـــ 268.

(19) الذيل... نفس الجزء والصفحة.

جدول المساجد المرابطية والموحدية بمراكش

ملحوظة : لا تذكر في هذا الجدول إلا المصادر التي تنفرد بخبر نوعي.

الرقم المسلسل	المسجد أو الجامع	الدولة أو الأمير	الحومة	ملاحظات ومصادر تاريخية
1	مسجد الطوب	يوسف بن تاشفين	غير محددة ولعله كان قرب النواة الأولى بمراكش بحومة قصر الحجر.	أول مسجد بني بمراكش هدم بأمر من عبد المؤمن بن علي (البيذق، ابن الأثير والزركشي)
2	مسجد صومعة الطوب	مرابطي	غير محددة	نزل به المهدي ابن تومرت أول قدومه لمراكش. (البيذق) لعله مسجد الطوب أعلاه ؟
3	مسجد عرفة	مرابطي	غير محددة	استقر به ابن تومرت بعد المقابلة مع علماء البلاط المرابطي. (البيذق).
4	جامع السقاية أو جامع علي بن يوسف أو جامع السلطان	علي بن يوسف	قلب المدينة في موقع جامع بن يوسف الحالي.	شرع في بنائه ابتداء من سنة 524 هـ (1130 م) وتم تشييد صومعته سنة 527 هـ (نظم الجمان لابن القطان)، هدم جزئياً بأمر من عبد المومن بن علي. أعاد بناءه الخليفة الموحدي المرتضى سنة 654 هـ (البيان لابن عذاري).
5	مسجد جبل كَليز	عبد المومن بن علي	بجبل كَليز خارج السور.	بني أثناء حصار عبد المومن بن علي لمراكش سنة 541 هـ (1146 م) وبه صومعة : «يشرف منها على مراكش» (الحلل).

6	جامع الكتبيين أو المسجد الجامع	عبد المومن بن علي وأبو يعقوب يوسف	بمنطقة قصر الحجر	بني على أنقاض جزء من القصبة المرابطية وهو مسجدان لا زالت آثار الثاني منهما موجودة وكانت الصومعة زمن الموحدين بينهما (الحلل والإستبصار).
7	مسجد القصبة أو جامع القصر الجامع الكبير جامع المنصور الجامع الاعظم الأعلى.	أبو يعقوب يوسف وابنه يعقوب المنصور	داخل القصبة ويعرف اليوم أيضاً بجامع مولاي اليزيد	أقدم خبر في كتاب الإستبصار وهناك أخبار تتعلق بالوعظ الرسمي به وبالخطب والإعلانات الرسمية وردت في البيان والذيل والتكلمة وفي كتاب (التشوف).
8	مسجد تورزكين	مرابطي أو موحدي مذكور قبل سنة 571 هـ (1175م.)	باب فاس (باب الخميس حالياً) أو حومة التوارك (أنظر التشوف ص 245، تعليق رقم 594).	لعل الاسم يعني : العابدات، المسعودات (ذ.أ. التوفيق، التشوف) أشجار اللوز المر (خبر شفوي عن ذ. محمد أوجامع) وقد ذكر المسجد في التشوف ص 238 ويلاحظ أن أول دار بنيت بمراكش المرابطية كانت تحمل اسم «دار تورزجين بن الحسن الكائنة بموضع أسدال...» البيان / ج 4).
9	مسجد بباب دكالة	مذكور في عهد يعقوب المنصور الموحدي	باب دكالة داخل السور	كان مقر حلقة دروس أبي موسى يللبخت الجزولي في النحو (الذيل والتكلمة جزء 8).
10	مسجد ابن الأبكم	عهد يعقوب الموحدي	باب أغمات داخل السور بالجانب الشرقي	حدد موقعه ابن عبد الملك في الذيل والتكلمة (جزء 8) : «شمالي محلة الشرقيين أسفل ممر باب أغمات الأعظم...». نقل إليه أبو موسى يللبخت حلقة الدروس التي كان يقيمها بباب دكالة، والمسجد مذكور مرة ثانية في الذيل، السفر 1 رقم 269 ص 216 مما يثبت وجوده إلى حدود 620 هـ.

11	مسجد ببحيرة أبي مروان	موحدي قبل سنة 195 هـ	حومة تابحيرت ؟	ذكر في التشوف ص 317، و التعليق رقم 842 والمنطقة كانت مقراً للعباد والنساك وأصحاب المهن. وهناك روضة الفقيه مروان (التشوف ص 245)
12	مسجد بحارة أبي يعبيدن	موحدي قبل سنة 595 هـ	درب عبيد الله ؟	التشوف رقم 160 والتعليق رقم 841.
13	مسجد الصحراوي	موحدي قبل سنة 601 هـ	حومة القصور أو حومة قاعة بن ناهض	كان مقراً للزاهد الأندلسي محمد بن مفرج الأنصاري «الذي بنى خيمة بمسجد الصحراوي...» (التشوف ص 380 — والتعليق رقم 182).
14	مسجد بئر الجنة أو مسجد سيدي أبي يعقوب الحكيم	موحدي قبل سنة 592 هـ	باب الدباغ داخل السور	ذكر في التشوف مرتين، ص 306 و ص 407 والتعليق رقم 807 على أنه منسوب لأبي يعقوب الحكيم صاحب أبي العباس السبتي وأن البئر متصل بزمزم.
15	مسجد الجزارين أو جامع الجزارين	موحدي قبل سنة 586 هـ	حومة القصابيين ؟	التشوف ص 283 والتعليق رقم 722 مع الاحالة على الاعلام جزء 1 ص 96 وهناك ذكر لجامع الجزارين بمراكش في كتاب الاتمد ص 72 في المخطوط.
16	مسجد هرغة	موحدي قبل سنة 625 هـ	محلة هرغة	ينفرد الحميري في الروض المعطار ص 175 بذكر هذا المسجد وذلك في سياق أحداث الفتنة الموحدية زمن أبي العلا. بمراكش والتي انتهت بمقتل الوزير ابن يوجان داخل المسجد.

17	مسجد القشاشين	موحدي زمن الرشيد	بالقصبة الموحدية أو في حومة قريبة منها	ورد ذكره في البيان /4/ ص 303 ضمن أحداث سنة 632 وفتنة الخلط بمراكش زمن الرشيد والمسجد المذكور كان مقراً للقراءة.
18	مسجد الوصيف نسبته لوصيف أبي العباس السبتي	موحدي باعتبار	حومة الموقف	ذكره ابن الموقت في السعادة الأبدية وحدد موقعه بالموقف ونسبته لمسعود الحاج وصيف أبي العباس السبتي — وورد في دلائل القبلة لأبي علي صالح بن أبي صالح (مخطوط خ.ع. رقم ف 985) ذكر لمسجد الوصيف أو بن صيفة (قراءة صعبة) لعله هذا المسجد خاصة وأن موقعه حسب دلائل القبلة شمال حومة الموقف قرب باب فاس بحومة الرذعيين.
19	مسجد صغير بباب فاس	موحدي قبل 571 هـ أو مرابطي ؟	باب فاس (باب الخميس حاليا)	التشوف ص 238، وقد دفن بصحنه الزاهد أبو عبد الملك مروان اللمتوني.
20	جامع ابن يوسف	أعاد بناءه المرتضي 654 هـ	وسط المدينة	البيان ج 4، 409 ومجلة هسبريس ج 3 — 4 سنة 1954.
21	مسجد سعدون	موحدي أو مريني	حومة الأرجوانيين	ينفرد ابن عبد الملك في الذيل والتكلمة ج 4 ص 21 بذكره مقروناً باسم العالم الأندلسي سعدون الذي يظهر من السياق أنه بناه، والظاهر أيضاً أن هذا المسجد كان مقراً لحلقات سعدون الخاصة بعلم القراءات والحديث.
22	مسجد حمام الحرارة أو	موحدي أو مريني ؟	بين حي السبتيين	مذكور في ترجمة أبي العباس السبتي (الاعلام) وفي الأئمد، (مخطوط) الباب الثاني عشر وتحديد الموقع عن ذ.محمد رابطة الدين.

تنوع الوظائف والأنشطة داخل المساجد :

لقد كانت المساجد منذ بداية الاسلام مقرا لوظائف وأنشطة عديدة ومتنوعة، وذلك بناء على ما تقره الشريعة وعلى ما سنه اجتهاد الفقهاء عبر التاريخ، تلاؤما مع ظروف العصر[20] فبالمسجد كانت تعقد مجالس الشورى بين المسلمين وتعلن بيعة الامام، ويخزن بيت المال وتقام حلقات الدروس والقصص والأندية الأدبية بحيث خصصت قبة للشعراء بجامع المدينة وجامع المنصور ببغداد[21]. وهناك أنشطة خاصة، ذات صبغة اجتماعية أو اقتصادية، هي بعيدة كل البعد عن الوظائف الدينية والثقافية المتوقع إقامتها داخل المساجد. ونجد لتلك أصداء عديدة في كتب النوازل ومعيار الونشريسي على الخصوص[22]. من ضمن تلك الأنشطة : المبيت بالمساجد، الفصد والحجامة، سؤال المسكين الصدقة، اتخاذ المسجد طريقاً، حلب الأنعام بفناء المسجد، الدفن، إلى غير ذلك من المسائل التي كان على الفقيه أن يجد لها حلّا يأخذ بعين الإعتبار في آن واحد النص الشرعي والمصلحة العامة.

فوظيفة المسجد لم تنحصر إذا في إقامة الصلاة كما ينص على ذلك حديث شريف[23] وإنما استغل مجال المسجد استغلال مذهبيا وسياسياً واجتماعياً ويهمنا أن نستعرض هنا بعض الأحداث التي كانت مساجد مراكش مسرحاً لها زمن المرابطين والموحدين وذلك من خلال الوقائع المسجلة في المصادر التاريخية كما يهمنا أن نتعرف ما أمكن على انعكسات تلك الأحداث وردود الفعل التي أثارتها سواء بالنسبة للرأي الخاص أو الرأي العام من جهة، أو بالنسبة للبنية الهندسية للمسجد وللتجهيزات التي أضيفت إليه على ضوء تلك الأحداث، من جهة أخرى. ولا بأس بالتذكير في البداية بأن كتاب الأحياء للغزالي «أحرق في صحن جامع السلطان»[24] وأن المجابهة بين ابن تومرت والفقهاء قد تمت بأمر من علي بن يوسف في أحد مساجد مراكش كما سبقت الإشارة إلى أن المهدي ابن تومرت التجأ إلى مسجد عرفة وكأنه اعتصم به بعد المجابهة المذكورة.

أما بالنسبة للأندلس، وفي نفس الحقبة الزمنية، فيخبرنا مؤلف البيان[25] أن قاضي قرطبة اغتيل بجامع المدينة سنة 529 بمحضر الأمير تاشفين. وفيما يتعلق بهذا الأمير نفسه فقد تم فرضه

---

(20) بالنسبة لهذه الوظائف، يرجع أساسا لـ : Encyclopedie de L'ISLAM, article Masjid

(21) علي هاشم محمد : الأندية الأدبية في العصر العباسي في العراق، ص 187 و196 — بيروت 1982.

(22) المعيار المعرب لأبي العباس أحمد الونشريسي، نشر وزارة الأوقاف، الرباط 1981، الجزء الثالث خصوصاً.

(23) «إنما بنيت المساجد لما بنيت له...» وقد ورد هذا الحديث في كتاب «ذكر ما تقتضيه المصلحة الدينية...» المحال عليه أعلاه في التعليق رقم 11

(24) التشوف، رقم 33.

(25) البيان، الجزء 4 طبعة بيروت 1980 ص 93.

على أبيه كولي للعهد بجامع بن يوسف : «فلما اجتمع الناس في المسجد الجامع الكبير بالسا بمراكش... خاصة وعامة وتشاوروا في من يختارون ومن عليه يجتمعون فقالوا كلهم بصوت واحد تاشفين ! تاشفين !»(26) وفي المسجد ذاته كان من المقرر أن يجتمع أخـوي المهدي ا تومرت(27) مع أصحابهم لتدبير المؤامرة ضد عبد المؤمن بن علي سنة 548. إضافة إلى هـ الأحداث فإن مساجد مراكش زمن الموحدين أصبحت عبارة عن منصة رسمية يلقن فيها المذهـ التومرتي وتشرح مؤلفات المهدي ويقتل تارك قراءتها مع «لزوم حضور الحزب بعد صلا الصبح...»(28) وفي موضوع المهدي والمهدوية الموحدية، يظهـر أن الإعتقاد في ظهور المسيـ بمسجد من المساجد كان مقبولًا. وقد أنشدت القصيدة التالية بين يدي عبد المومن بن علي

... وينـزل عيسـى فيهم وأميرهـم
إمـام فيدعوهـم لمحـراب مسجـد
يصـلي بهـم ذاك الأمـيـر صلاتهـم
بتقـديـم عيسـى المصطـفـى عن تعمـد...(29)

وكما استعملت المساجد لنشر الدعوة الموحدية. فإنها استعملت أيضاً لنقضها وذلك من طرف المامون وللتراجع في الأمر من قبل خليفته الرشيد.

ونسجل أخيراً بأن المساجد كانت المجال الأقرب لعامة الناس للإتصال المباشر بالأمير وإبداء الشكوى لرفع المظالم بطريقة تشبه أحياناً الإحتجاج الجماعي(30) بينما كان الصوفية وأتباعهم يتخذون المساجد مكاناً لتوزيع المؤونة على المعوزين أيام المجاعات(31).

ولم يكن لأصحاب الحل والعقد وأهل الرأي ـــ والحالة هذه ـــ أن يتركوا المساجد مفتوحة لكل هذه الأنشطة، محمودة كانت أو مذمومة، دون السهر على مراقبة ما يجري بها، إما للحفاظ على حرمة المسجد، أو للدفاع عن المصلحة العامة أو للمحافظة على كيان الدولة. فجزئت المسائل إلى ما يجوز عمله ومالا يجوز عمله داخل المسجد(32). فالفصادة والحجامة مثلًا جائزان بشرط

(26) نفس المصدر، ص 98.

(27) نفس المصدر، ص 50.

(28) الشاطبي : الاعتصام، جزء 2، ص 91، نشر رشيد رضا. بدون تاريخ. والرسالة الموحدية رقم 23 المعروفة برسالة الفصول والمؤرخة سنة 556 التي تقنن العقوبات في المجال المذكور.

(29) عبد الواحد المراكشي، المعجب، ص 280.

(30) ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة... ص 420 الطبعة الأولى، تحقيق عبد الهادي التازي، بيروت 1964 : «وبعد فراغ الفريضة، صاح الناس بالجامع بظلاماتهم... فانصرف (يوسف الموحدي) بعد الدعاء وقد أمر بكتب مسائلهم... وأمر القاضي بتطلع أحوال المسجونين وإنصاف المظلومين».

(31) التشوف رقم 99 وذلك بمسجد ابن يوسف.

(32) المعيار... الجزء الثالث ص 23 ـــ 24.

التحرز من تلويث المسجد، وسؤال المسكين الصدقة جائز على «أن يسأل للمساكين لا أن يسألوا بأنفسهم»(33) والمبيت بالمسجد جائز للشيخ الضعيف والمريض ألخ...، بينما يمنع «حلب الأنعام بفناء المسجد لتزبيلها وضرر غبارها...»(34) وأجاز ابن عرفة اتخاذ المساجد طريقاً(35) فاحتفظ للمسجد بوظيفته البنيوية الحضرية، كما سهر الفقهاء أيضاً على المحافظة على الوظيفتين القضائية والعلمية فكانت أبواب المسجد تسد في النهار ويترك مفتوحاً «الباب الذي يدرس عنده العلم والباب الذي يقضى القاضي عنده»(36) وإذا كان مبدأ الإقرار بالجامع مقبول ومرغوب فيه، فإن لذلك شروط منها اجتناب رفع الأصوات لأنه «ناشيء عن بدعة الجدال في الدين»(37) كما أن هناك قراءات جائزة وأخرى ممنوعة. فمن الجائز الحساب وإعراب الأشعار الستة كافي المعيار، ومن الممنوع المقامات «لما فيها من الكذب» (الشاطبي) بينما يسمح للقصاصين رواية قصص الأنبياء والسيرة الخ... ويزيد موقف الفقهاء تحفظاً ورقابة بالنسبة للوعاظ والمتكلمين فلا يؤذن لهم «إلا لمن يرضا عمله ودينه بعد أن يؤذن له... وتقطع منه مجالس اللغو والحديث في أمور الدنيا»(38) وقد رأينا فيما سبق تنظيم مجالس الوعظ الرسمي بجامع القصبة الموحدية وكيف تم إشخاص أحدهم لهذا الغرض موقفه من الأمر.

ونظراً لخطورة الوقائع التي كانت تحدث في المساجد والمجابهات العنيفة التي أدت أحياناً إلى سفك الدماء داخله، فإن أولياء الأمر لم يقفوا عند حد المراقبة المستمرة ومنع كل ما من شأنه أن يثير هيجان العامة. بل تعدوا ذلك إلى اتخاذ تدابير وقائية مادية ظهرت على الخصوص زمن الموحدين وانعكست أحياناً على تصميم المسجد وأحياناً أخرى على التجهيزات الأساسية به. فمن ذلك تعدد الأروقة والصحون في جامع القصبة بمراكش، وجدير بالذكر أن هذا الجامع ينفرد بذلك. أما جامع الكتبيين فقد اتخذ فيه عبد المؤمن بن علي جملة من الإحتياطات الأمنية ترمي — على ما يظهر — إلى حماية شخص الخليفة. من بين هذه التجهيزات، بناء الساباط الذي «يدخل من القصر إليه ومنه إلى الجامع، لا يطلع عليه أحد»(39) وقد عثر على ساباط آخر يربط مسجد القصبة بالقصر الموحدي.(40).

---

(33) نفس المرجع، الجزء الأول، ص 147.

(34) نفس المرجع، الجزء الثالث، ص 23 — 24.

(35) نفس المرجع.

(36) كتاب «ذكر ما تقتضيه المصلحة الدينية ...» الانف الذكر.

(37) الشاطبي، الاعتصام، جزء 2 ص، 92.

(38) «ذكر ما تقتضيه المصلحة الدينية ...»، المتكرر الذكر.

(39) الحلل الموشية، ص 119

(40) G. Deverdun : Marrakech... P 237.

ومن ذلك أيضاً إنشاء المقصورات. ومعلوم أن المقصورة ظهرت بالشرق، بالمدينة، بعد مقتل عثمان، وقد اتخذها الموحدون بمراكش في كل من جامعي القصبة والكتبية. ولا ندري أمن قبيل الوهم الشعري أم التلميح الأدبي تلك الأبيات التي صدرت عن الشاعر في وصف المقصورة المومنية

طوراً تكون بمن حوته محيطه
فكأنها سور من الأسوار !

أما هذه المقصورة، فإنها قد أصبحت حقيقة لا غبار عليها بعد ما كشفت التنقيبات الأثرية بمنطقة الكتبية(41) الستار عن الغرفة التي كانت بها الأجهزة المحركة لها، فلم تبق كما قال نفس الشاعر سراً من الأسرار.

وينتهي بنا المطاف بالرجوع إلى انعكاسات أخرى، عمرانية، لها صلة بالتوزيع الجغرافي للمساجد.

فنستخلص من ذلك التوزيع داخل المدينة أن مراكش قد عرفت نمواً عمرانياً أكيداً بين عهدي المرابطين والموحدين، وأن هذا النمو يهم هوامش المدينة بقدر ما يهم قلبها. فإلى جانب الأحياء المتمحورة حول جامع ابن يوسف ومن بينها قاعة بن ناهض وزاوية لحضر والموقف والسبتيين، نجد الأحياء الموجودة قرب أبواب المدينة في نمو مطرد كذلك، يعكسه ظهور مساجد متعددة وإن كانت متفاوتة الأهمية. من بين هذه الأحياء، باب الدباغ، باب ايلان، باب فاس (باب الخميس حالياً)، باب أغمات، باب دكالة وتظهر لنا الحركة العمرانية جد كثيفة في الجانب الشرقي من المدينة بين باب فاس شمالاً وباب أغمات جنوباً. وهذه الحركة تهم مجالات وأنشطة متنوعة دينية، ثقافية، تجارية وصناعية، كما تستقطب نفس المنطقة الشرقية عناصر من الصوفية من مختلف جهات الغرب الإسلامي، من المغرب الأوسط وإفريقية والأندلس، فيستقرون بها، في غالب الأحيان، استقراراً نهائياً. ويكفي إلقاء نظرة على مادة الجانب الشرقي من فهرست التشوف للمس حقيقة تواجد هذه المنطقة تواجداً كثيفاً على الصعيد العمراني.

ونخرج بنفس الإرتسام بالنسبة للمناطق المجاورة للقصبة الموحدية، بغض النظر عن القصبة نفسها وقد أصبحت عبارة عن مدينة مستقلة وقائمة بذاتها بجامعها وأسواقها وقيساريتها ومدارسها وقصورها الخ... فتبدو لنا مناطق سيدي ميمون وباب أكناو وموقع الملاح الحالي في اتجاه رياض الزيتون الخ... وكأنها الأحياء السكنية الغنية بسواقيها وحماماتها وفنادقها ومنازل أرباب الدولة وأعوانها. كما أن هذه الأحياء لا تخلو من تحركات ذات صبغة سياسية تكون المساجد بها أحياناً مقراً

---

(41) J. Meunie-Recherches archeologiques à Marrakech, PP 33 - 61.

للمناورات واصطدام بين الأحزاب والكتل القبلية المتصارعة فيما بينها على الحكم، خاصة في العقود الاولى من القرن 13 م أثناء ضعف الحكم الموحدي.

وفي البيان المغرب لابن عذاري والذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشي والروض المعطار للحميري تفاصيل أحداث ترتقي بنا من الإرتسام العام إلى ما يشبه الحقيقة التاريخية.

وعلى العكس من هذا فإن حومة الكتبيين تظهر لنا وكأنها جامدة بعد أن تقرر نقل «دار المخزن» منها إلى القصبة أيام أبي يعقوب، وكأن المنطقة لم ترق إلى درجة الحي الآهل بالسكان على الرغم من اهتمام الخليفة الموحدي المرتضي الذي رصف ممراتها ومن وجود عدد كبير من دكاكين الكتبيين والنساخين والوراقين بجوارها. فتبدو لنا الكتبية منعزلة في سموها وكأنها تنبذ التكاثر حولها، ولا عجب، ما دام الموحدون قد قرروا تطهير العاصمة المرابطية بدءاً بمنطقة الكتبية حيث شيدوا جامعهم الأول. فنبذ الجامع السكان بدوره، وللتاريخ منطقه.

ابن العريف، صوفي أندلسي بمراكش

ذ. عبد السلام الغرميني
كلية الآداب ــ فاس

بسم الله الرحمن الرحيم

تتسم الفترة الانتقالية من الحكم المرابطي الى الحكم الموحدي في المغرب والأندلس بسمات الاضطراب في الشؤون السياسية، وفي الشؤون الدينية أيضا، خصوصا منها الجانب العقائدي. حيث ان الفكر الديني المصطبغ على عهد المرابطين بدراسة فروض الدين وقواعد السلوك والبعد عن التأويل بدأ ينتقل على عهد الموحدين الى فكر يهتم بالعقائد ويجرأ على التأويل ويكثر من رصد الرقائق. ولكن الدعوة الموحدية لن تكون دعوة سنية خالصة. إذ استطاع ابن تومرت والقائمون عليها من بعده أن يوجدوا فكرا دينيا يتأرجح بين الأشعرية والاعتزال والتشيع.

من حاضرة مراكش على عهد المرابطين كان التصور الرسمي للدين ينقل الى باقي الحواضر التي كانت تخضع لمراكش آنذاك(*). وكان الطابع الغالب على ذلك المنحى هو الاتجاه الفقهي المحض والذي يهتم بالأساس بتقنين الأحكام وضبط عمل الجوارح في اطار الوجوب والحرمة والاباحة والكراهة والاستحباب دون الاهتمام بتربية النفوس وتمحيص النيات وترقية الهمم.

وقد أدى هذا الاتجاه الى مناهضة كل تجديد وتحرر لا يسير مع التيار فيما بين الفكر الفقهي وغيره من المشارب فحسب، بل حتى في داخل الفكر الفقهي نفسه. حيث لم يبق هناك متسع لقبول اجتهادات فقهية غير مالكية. شافعية كانت أو حنفية أو غير ذلك.

وقد تظافرت الحواضر العلمية المغربية والأندلسية على ارساء هذه الوضعية. وساعد على تحقيق هذه الوحدة في الفكر ما كانت تتمتع به العدوتان من وحدة في السلطة تحت ظلال المرابطين الأوائل، رغم ما كان يبدو من جرأة ونشوز بعض الأفراد الذين يؤول أمرهم في النهاية الى التعزير والتأديب بسبب تشدد الفقهاء المالكية وعنادهم وضيق أفقهم. وذلك بعد مسطرة المحاكمة والمناظرة.

وفعلا عقدت المناظرات المتعددة في مراكش آنذاك بين ممثلي الاتجاهات الفكرية المختلفة. من أشهرها مناظرة ابن تومرت مع فقهاء البلاط المرابطي بمحضر الخليفة علي بن يوسف(1).

وهكذا كان فقهاء المغرب والأندلس السائرين في هذا الاتجاه ينظرون الى كل تفكير عقلي في مسائل الدين على أنه زندقة أو هرطقة واتهموا حتى من يشتغل باكتساب المقدمات العقلية أو يدرس المنطق بأن لا دين له. كما عملوا على مصادرة كتب الفلسفة والمعارف والرقائق وكتب أهل الاعتزال.

(1) المناظرة مثبتة في روض القرطاس لابن أبي زرع ص 174.
(نقلا عن بالنثيا في تاريخ الفكر الأندلسي ص 363.)

فقد ثارت المشاعر قبل هذا الوقت ضد كتب ابن مسرة واحرقت كتب الفقيه خليل بن عبد الملك(2)، ولم تجد كتب أبي حامد الغزالي مكانا لها كما هو مشهور. يذكر يوسف بن طلموس (559 ــ 620) في كتابه المدخل الى صناعة المنطق : لما وصلت كتب أبي حامد الغزالي متفتنة فقرعت أسماع الفقهاء بأشياء لم يألفوها ولا عرفوها. وكلام خرج به عن معتادهم من مسائل الصوفية وغيرهم... فبعدت عن قبوله أذهانهم ونفرت عنه نفوسهم. وقالوا ان كان في الدنيا كفر وزندقة فهذا الذي في كتب الغزالي هو الكفر والزندقة. واجمعوا على ذلك واجتمعوا للأمير إذ ذاك وحملوه على أن يأمر بحرق هذه الكتب المنسوبة الى الضلال بزعمهم. وعزموا عليه في ذلك حتى أجابهم الى ما سألوه منه فأحرقت كتب الغزالي وهم لا يعرفون ما فيها. وخاطب الأمير إذ ذاك جميع أهل مملكته يأمرهم بحرقها ويعلمهم أنه هو الذي أدى اليه نظر العلماء».

ولكن هل انفرد الفقهاء حقيقة بالزعامة في هذه الأزمان واستقطبوا كل الاهتمامات ؟.

انه يبدو لمن ينظر بإمعان في الغرب الاسلامي وفي الأندلس بالخصوص على أنه يزخر برجالات التصوف والتألق الروحي. وهي مفارقة عجيبة لو درست على حقيقتها ورصدت أخبارها في كل مظانها لقلبت البديهيات في نظر الدارسين والباحثين وأبانت أن ما سقناه سابقا ليس إلا وصفا مغلوطا للواقع.

ولقد تعايش أقطاب التصوف مع أعلام الفقه في تلك الأزمنة ولم يستطع أحدهم أن ينفك على الآخر. فمن جهة لا يمكن لمتصوف أن يدعي ذوق المعارف والشفوف على الرقائق ان لم يهتد بهدي الفقه ويقف عند حدوده. فالشريعة باب الحقيقة كما يقولون ومن جهة أخرى لا يمكن لمتفقه أن يدعي الوقوف بأمور الدين عند حد التزام الجوارح بالموافقات والوقوف عند المنهيات إن لم يرتق ذلك الى حصول اليقين والرسوخ في مقامات الايمان والاحسان رسوخا ينعكس آثاره على شكل فضائل الأخلاق وسامي المعالي من مسامحة ومسالمة ومناصحة ومساعدة ومكارمة.

وفعلا لا يمكن لباحث أن يدعي آنذاك من تلك الأزمنة لا نصيب له من الرقة الصوفية، ولا ان ذاك الصوفي لا مشاركة له في العلوم الشرعية.

وعندما نستعرض من عرفهم، محي الدين ابن عربي من شيوخ روحيين أو رفقاء في المدارس الصوفية، وجلهم يرجع الى الفترة التي نحن بصددها، يرى بجلاء الأوج الذي بلغه التصوف في الأندلس المسلمة. ولم تكن العدوة المغربية أقل حظا من جارتها في ذلك.

ففي هذا الوقت كان بالأندلس ابراهيم بن طريق، وابن المرأة وأبو إسحاق البلفيقي وأبو العباس الاقليشي وابن قسي، وجعفر بن سيد بونه. وابن رزقون وأبو الحكم ابن برجان وأبو عبد الله ابن المجاهد. وأبو العباس بن العريف. وفي هذه الأزمنة كان يقطن المغرب أبو الحسن بن غالب،

شخصية القصر الكبير الشهيرة وعلى بن حرزهم (ت 559) وأبو شعيب السارية (ت 561) وأبو يعزى الهزميري (ت 572) وأبو عبد الله التاودي (ت 580).

وقد اقتصرت في هؤلاء وأولئك على أشهرهم.

وقد تمكنت المدرسة الصوفية والمدرسة الفقهية من التفاهم والتعايش والتجاذب وان اقتضى الحال من حين لآخر ظهور امارات التنافر والتباعد.

وفي هذا المناخ الديني والمعرفي تطرق أسماع الخليفة علي بن يوسف أنباء تتحدث عن قيام شخصية تنتسب للتصوف تتمركز في مدينة المرية، وتشكل آراءها خروجا عن الاجماع الفقهي، وشذوذا عن المنهج الدراسي السائد، بل تشكل أيضا خطرا على النظام السياسي في مراكش إنها شخصية أبي العباس احمد بن محمد بن العريف الصنهاجي فلا يسع الخليفة أمام هذا التصوير المهول إلا أن يأمر بإحضاره الى عاصمة الملك مراكش ليتحقق بنفسه من الأمر ويعقد له المناظرات إن اقتضى الحال ويحكم في شأنه بما يناسب الحال..

وهكذا تشاء الأقدار أن يؤتي بعلم من الأعلام الذين ملأت شخصيتهم اقليم الأندلس وهم على قيد الحياة من مدينة المرية الى مراكش ليحتل المكان اللائق بأمثاله في عاصمة الغرب الاسلامي ويصير رجلا من رجالاتها ولو بعد الوفاة.

فمن هو أبو العباس ابن العريف ؟

يجمع المترجمون لابن العريف على أنه ولد بالمرية، حيث كان أبوه محمد بن عطاء الله الصنهاجي ذا مكانة في شرطة المدينة قيما على الحراسة بها ضمن رجال المعتصم بن صمادح، قدم اليها من طنجة. وكانت الولادة حوالي سنة 458 هـ، بالاستناد الى الحافظ الذهبي الذي انفرد فيما أعلم في كتابه العبر بذكر عمر المترجم[3].

وكان الوالد قد أراد بدءا أن يوجه الابن نحو العمل اليدوي واكتساب الحرفة فأبى هذا إلا أن يشتغل بالدراسة ويتعمق في المعارف يقول ابن الأبّار : فرفعه أبوه في صغره الى حائك يعلمه، فأبى هو الا تعلم القرآن وتعلق الكتب فكان ينهاه ويخوفه، ودار له معه ما كاد يتلفه الى أن تركه لقصده.

وقد اضطر الأب الى أن يعترف بعد أن نبغ الابن في العلوم والفنون وقال : «رأي ابني كان أرشد من رأيي»[4].

---

(3) الذهبي العبر 2 — 450.

(4 و 5)العباس بن إبراهيم : الاعلام 2 — 6.

وقد حصل ابن العريف أولا الأصلين : القرآن والحديث. وذكر المترجمون له شيوخه في كل علم. ولا يسع المجال لاستعراضهم. ولكن تنبغي الاشارة فقط الى أنه اعتبر من الأصحاب الآخذين عن المحدث الشهير أبي علي الصدفي. واعتبر كذلك من أقران الراوية المؤرخ ابن بشكوال والقاضي عياض اللذين تبادلا معه المراسلات والاجازات.

وقد استحكم ابن العريف في الصناعة الفقهية ونبغ في معرفة الأحكام ولكن يبدو أنه تخصص في علم القراءات. وكانت له عناية كبيرة بجمع رواياتها وطرقها وحملتها. وفي هذا المضمار استحق الأستاذية والتبريز بمسقط رأسه المرية : وبها تصدر للاقراء. ثم اقرأ في أماكن أخرى من البلاد الايبرية من بينها اقراءه بسرقسطة(5).

ولم يكن الرجل من أولئك العلماء ذوي الأفق المحدود. الذين لا يستطيعون التمييز بذكاء بين الصواب والخطأ في معترك النظريات والأفكار والمناهج بل أهلته أستاذيته ومشاركته العلمية الى إدراك نسبية الآراء وتباين مآخذها وآمادها ووجوب التريث في اصدار الأحكام عليها.

وإليه تنسب هذه الأبيات :

من لم يسابه عالما بأصوله ... فيقينه في المشكلات ظنون
من أنكر الأشياء دون تيقن ... وتثبت فمعاند مفتون
الكتب تذكرة لمن هو عالم ... وصوابها بمحالها معجون
والفكر غواص عليها مخرج ... والحق فيها لؤلؤ مكنون(6)

ومن تصور اقليم الأندلس في تلك العهود حيث سوق الآداب نافقة ومظاهر التذوق والشاعرية طافحة لا يسعه إلا أن يتساءل عن موقع ابن العريف في هذه الساحة الأدبية. فيجد الرجل من مرهفي الحس ذوي الشفوف الرقيق والأدب البليغ والتصور المبدع. ومن بديع شعره.

تعاتبني في الجود والجود شيمتي ... ومالي بتبديل الطباع زعيم
ولم أر مثل الجود، أما حديثه ... فحلو، وأما حبه فقديم
ولا خير فيمن لا يعايش بعيشه ... ولو أنه فوق السماك مقيم
ذريني فإن البخل عار بأهله ... وما ضر مثلي أن يقال عديم
أرى كلّ طلق كلّ خلق حميمه ... وليس لمقبوض اليدين حميم
وكيف يخاف الفقر أو يحرم الغنى ... كريم ورب العالمين كريم(7)

---

(6) محمد بن المبارك الفتحي : السعادة الأبدية ص 58 ط 2.
(7) العباس بن إبراهيم : الاعلام 2 — 12.

ومن نظمه الفائق أيضاً :

فاح الندي بمنطقي فتنازعوا أبإسحل استاك ا (بأراك
هيهات عهي بالسواك وانما شفة الحبيب جعلتها مسواكي
ويظن من سمع الحديث بأنه حق بلى ومدبر الأفلاك(8)

رؤيا رأيت وإن من أبصرته لمنزه عن مهنة الإدراك

ولم يكن أدب ابن العريف أدبا مجردا. بل كان أيضا فنا مجسدا لقد انتقلت آثار عقله النير ونفسه المهذبة الى أعمال يده. وهكذا الانسان اللطيف جميل في تعلمه وتعليمه. وجميل في تعبده، وجميل أيضا في أعماله. بل قد يصبح الوسط المحيط به، جميلاً به.

لقد كان ابن العريف أستاذا منشغلا بالدراسة والكتابة. فظهرت آثار نبوغه على طريقة كتابته وتدوينه. وهكذا أكد أكثر من ترجم له على أنه كان ينوع الخطوط ويتفنن في رسمها وقد قال عنه صاحب «بغية الملتمس : انه كان يكتب سبعة خطوط لا يشبه بعضها بعضا»(9).

ولكن العلوم والفنون مهما دقت ورقت لا طائل منها في نظر صنف من الناس إذا لم تقرب من مفيض العلوم، والعبادة تتحول الى طقوس جوفاء إذا لم توصل إلى المعبود. ورحم الله العلامة ابن خلدون الذي وفى هذه الحقيقة واهتدى الى الصياغة المناسبة لها عند الكلام عن النفوس البشرية فقال بعد ان استثنى الأنبياء : الناس صنفان : صنف عاجز بالطبع عن الوصول الى الادراك الروحاني فينقطع بالحركة الى الجهة السفلى نحو المدارك الحسية والخيالية وتركيب المعاني من الحافظة والواهمة على قوانين محصورة وترتيب خاص يستفيدون به العلوم التصورية والتصديقية التي للذكر في البدن وكلها خيالي منحصر نطاقه إذ هو من جهة مبدئه ينتهي الى الأوليات ولا يتجاوزها وإن فسد ما بعدها. وهذا هو في الأغلب نطاق الادراك البشري الجسماني واليه تنتهي مدارك العلماء وفيه ترسخ أقدامهم.

وصنف متوجه بتلك الحركة الفكرية نحو العقل الروحاني والادراك الذي لا يفتقر الى الآلات البدنية بما جعل فيه من الاستعداد لذلك فيتسع نطاق ادراكه عن الأوليات ويسرح في فضاء المشاهدات الباطنية. وهي وجدان كلها، لا نطاق لها من مبدئها ولا من منتهاها. وهذه مدارك العلماء والأولياء أهل العلوم الدينية والمعارف الربانية»(10).

وقد نظم هذا التقسيم المفكر الصوفي المغربي أبو بكر بن طفيل في أبيات فقال :

ما كل من شم نال رائحة للناس في ذا تباين عجب

(8) ابن الأبار : الحلة السيراء 2 — 313 ط 1.
(9) العباس ابن إبراهيم : الاعلام 2 — 6.
(10) ابن خلدون، المقدمة، ص 78.

قوم لهم فكـــــرة تجول بهم بين المعـاني اولـئك النــجب
وفرقـة في الـقشور قد وقفـوا ولـــيس يدرون ما طلبــــوا
لا غايـــة تنــجلي لناظرهــــم منـــه ولا ينـقضي لهـــم أرب
لا يتعـــدى امــــرؤ جبلتـــه قد قسمت في الطبيعة الرتب(11)

وقد كان أبو العباس ابن العريف فعلا من الصنف الثاني من اولئك العلماء الذين يحرصون على ان لا يتحول الفقه والعلم الى قضايا جافة أو مجرد ترف ذهني. بل لا بد من أن يظل قائما بوظيفته في هداية السلوك وصقل الروح. لم يكن العلم عنده ذلك الحبك الذهني الذي يتخذه صاحبه وسيلة يكسب به صلف الجاه أو كثرة المال أو منصب الحياة إنما هو الذي يبتغي به صاحبه صلاح نفسه وصلاح بني جنسه. يدل الانسان على الله، ويرشده الى طريقة التقوى. ويصاحبه في رحلة الكمال الروحي حتى يلقى الله. فإذا كان العلم هو ذا فمن المتواضع عليه أن ننعته بالتصوف أو نترجم عنه تتبعا للهدي النبوي بالاحسان، ومن حقنا أيضا أن نسميه فقط بالعلم.

وقد شاءت الأقدار الالهية أن ينشأ ابن العريف في المرية، والمرية لمن يعرف التاريخ مركز هام للتصوف في الأندلس وقد تكون من أهم المراكز الصوفية في عصر المرابطين في العدوتين على السواء.

ولم يكن بدا من أن تتصوف نفس كنفس ابن العريف تنحو منحى الكمال، وتتطلع الى المعالي. وتتغذى بالمعارف السائدة في المرية. وصحب الرجل مجموعة من أهل الطريق منهم أبو محمد الطرابلسي(12) وأبو القاسم بن رويبل(13) وأبو بكر عبد الباقي بن محمد الحجاري.(14). وأبو الحكم ابن برجان وأصبح ابن العريف متناهيا في الفضل والدين، منقطعا الى أعمال الخير. راسخا في الزهد والورع خرق عوائد الخمول والتقاعس والجشع المركوز في النفس فخرقت له عوائد الطبيعة وأثرت عنه الكرامات، وطارت شهرته في الآفاق بأنه من أهل الجد والاجتهاد، وملازمة الاذكار ومن العارفين المحققين. وغدا ابن العريف مقصودا من قبل الكثير من الناس يألفه العباد والزهاد ويتودد اليه المتصوفة.

وتتلمذ على يديه «الأعلام بالاندلس»، وبعدوة المغرب، وبالشرق أيضا. منهم بفاس أحمد بن عمر الخزرجي القرطبي، وبالقصر الكبير أبو الصبر أيوب بن عبد الله الفهري. وأبو عبد الله بن المدرة. وامتدت تعاليمه بالمغرب بالخصوص عبر أبي الحسن علي بن غالب الذي كون مدرسة فكرية

(11) عبد الواحد المراكشي، المعجب ص 352.
(13.12)عبد الله بن أسعد اليافعي : روض الرياحين ص 286 ط 1.
(14) العباس بن إبراهيم : الاعلام 2 ــ 19.

روحية بالقصر الكبير أشعَّت عبر عقود من السنين. وكان لطريقته أثر واضح في ابن عباد الرندي ممثل الطريقة الشاذلية بالأندلس والمغرب. واليه ينتسب كذلك القطب سالم أبو النجا[15] ومن أشهر الصوفية الذين أخذوا عنه مباشرة أبو عبد الله الغزال، وأبو العباس الاقليشي. وقد كان هؤلاء وأمثالهم واسطة بين ابن العريف، والشيخ الأكبر محي الدين ابن عربي الذي تشبه كثيرا بمذهبه وعكس البعض من أفكاره في كتبه.

وفي هذه الفترة الوضاءة من حياة ابن العريف تصطبغ كل معارف الرجل بتألق التصوف وتدق عطاءاته تبعا لشفوف روحه، تغدو قصائده الأدبية مشحونة بالايمان والجمال والتعلق بحب الله وحب رسوله صلى الله عليه وسلم. وينتج الرجل في النثر تأليفا نعتبره من أحسن عطاءات المغاربة في هذا المضمار ذلك هو كتابه «محاسن المجالس»[16] الذي ضمنه أصول طريقته وعرض فيه لمنازل الصوفية وأحوالهم عرضا قرآنيا صائبا قائلا :

فزهدهم جمع الهمة من تفرقات الكون لأن الحق عافاهم بنور الكشف من التعلق بالأحوال. قال الله تعالى «إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار» وتوكلهم رضاهم بتدبير الحق. وتخلصهم من تدبيرهم وفراغ هممهم من احالتها في اصلاح شأنهم، لوقوفهم على فراغ المدبر منها. وممرها على علمه بمصالحهم فيما قال الله تعالى «ارجعي الى ربك راضية مرضية» وصبرهم صونهم قلوبهم عن خواطر السوء لأن ليس لله تعالى قضاء عاريا عن الرأفة خارجا عن الرحمة. قال الله تعالى : «وليبلي المومنين منهم بلاء حسنا». وحزنهم باسهم عن أنفسهم الامارة بالسوء. قال الله «إن الانسان لربه لكنود». وخوفهم هيبة الجلال لا خوف العذاب. لأن خوف العذاب مناضلة في النفس. وهيبته سبحانه تعظيم للحق، ونسيان للنفس، قال الله تعالى «يخافون ربهم من فوقهم». وقال الله تعالى في حق العوام «يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار». ورجاؤهم ظمؤهم الى الشراب الذي هم فيه غرق وبه سكارى. قال تعالى : «ألم تر إلى ربك كيف مد الظل» وقال في ذلك الواسطة قبل ذكره له على الأفراد. «وما تلك بيمينك ياموسى» الآية. وشكرهم سرورهم بوجودهم ورؤيتهم النعمة لموجدهم ومن رضي فله الرضى، وعين الرضى عن كل عيب كليلة ولكن عين السخط تبدي المساويا. رضي الله عنهم ورضوا عنه. قال الله تعالى : «فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به» الآية. ومحبتهم فناؤهم في محبة الحق واحبابه فإن المحاب كلها ضلت في محبة الحق. وتصاغرت واضمحلت. قال الله تعالى : «فماذا بعد الحق إلا الضلال، وشوقهم هربهم من رسمهم وسماتهم». قال الله تعالى «وعجلت اليك رب لترضى» الآية.

ولنستمع الى نظمه الصادر عن روح محبة زكية راضية :

سلوا عن الشوق من أهوى فانهم	أدنى الى النفس من وهمي ومن نفسي
ما زلت مذ سكنوا قلبي أصون لهم	لحظي وسمعي ونطقي اذ هم أنسي

(15) العباس بن إبراهيم، الأعلام 2 — 12.

(16) نشر بإسبانيا سنة 1936.

فمن رسولي الى قلبي فيسألهم ... عن مشكل من سؤال الصب ملتمس
حَلّوا الفؤاد فما يندى ولو وطئوا ... حجرا الجاد بماء منه منبجس
وفي الحشا نزلوا والوهم يجرحهم ... فكيف باتوا على أذكى من القبس
لأنهضن في الدنيا بحبهم ... لا بارك الله فيمن خانهم فنسي(17)

وقال ابن العريف في الشوق إلى رسول الله :

شدوا الرحال وقد نالوا المنى بمنى ... وكلهم بأليم الشوق قد باحا
راحت ركائبهم تندى روائحها ... طيبا بما قد طاب ذاك الوفد أشباحا
نسيم قبر النبي المصطفى لهم ... راح إذا سكروا من أجله فاحا
يا راحلين الى المختار من مضر ... زرتم جسوما وزرنا نحن أرواحا
انا قمنا على شوق وعن قدر ... ومن أقام على عذر كمن راحا(18).

ولم يكن مناص من أن يحدث شهرة ابن العريف واقبال الناس عليه غيرة الفقهاء فأوعزوا للخليفة حسدا من عند أنفسهم أن يحضره الى العاصمة مراكش للتحقق من أمره.

والعادة كما أسلفت أن ينشأ الخلاف بين الطائفة الصوفية وبين الفقهاء نظرا لتباين وجهات النظر عندهم. وهو أمر انبثق منذ فجر الاسلام، وتجدد في حقب كثيرة من تاريخ الأمة الاسلامية.

ومن المؤشرات الأولى التي يمكن أن يستشهد بها هنا ما نقل من أن قوماً أتوا عمر بن الخطاب فقالوا يا أمير المؤمنين إن لنا إماماً إذا فرغ من صلاته تغنى فقال عمر : قوموا بنا إليه فقام عمر مع جماعة من أصحاب النبي ﷺ حتى أتوا الرجل وهو في المسجد. فلما نظر إلى عمر قام فاستقبله فقال يا أمير المؤمنين ما حاجتك وما جاء بك إن كانت الحاجة لنا كنا أحق بذلك منك أن نأتيك. وإن كانت الحاجة لك فأحق من عظمناه خليفة رسول الله ﷺ فقال عمر ويحك بلغني أنك تتمجن في عبادتك ؟ قال : لا يا أمير المؤمنين لكنها عظة أعظ بها نفسي. فقال عمر : قلها فإن كان كلاماً حسناً قلته معك وإن كان قبيحاً نهيتك عنه فقال شعراً من أبياته :

وفؤاد كلما عاتبته ... في مدى الهجر أن يبغي تعبي
لا أراه الدهر إلا لاهياً ... في تماديه فقد برح بي
يا قرين السوء ما هذا الصبا ... فنى العمر كذا في اللعب
ويح نفسي لا أراها أبدا ... في جميل لا ولا في أدب
نفس لا كنت ولا كان الهوى ... راقبي المولى وخافي وارهبي

(17) ابن سعيد، المغرب في حلي المغرب 2 — 211.
(18) المقري، نفح الطيب 4 — 331.

فقال عمر : نفس لا كنت ولا كان الهوى راقبي المولى وخافي وارهبي. ثم قال : على هذا فليغن من غنى[19] !

ووجهت الدعوة إلى ابن العريف للحضور إلى مراكش وفي نفس الوقت يطلب القدوم من رجلين آخرين هما أبو الحكم عبد الرحمن بن برجان وأبو بكر محمد بن الحسين الميورقي ينحيان معاً منحى ابن العريف ويتهمان بنفس التهمة.

ولم يكن بد من أن تتشكك السلطة المركزية في مراكش في كل صاحب دعوة بعد أن اختلت أمور الدولة المرابطية عموماً وأصبح الخناق يضيق على العاصمة بسقوط الحواضر الواحدة تلو الأخرى في قبضة الموحدين.

ورغم كيد القاضي ابن الأسود الذي تظافر عداءه لبلديه ابن العريف مع موقف الطاقم الفقهي في البلاط المرابطي على النيل من ابن العريف فإنه ما كاد هذا الأخير يصل إلى سبتة حتى وافاه رسول الخليفة ببشائر الأمان ولوائح التبجيل والتكريم[20]. فقدم في كل رعاية وعناية حاضرة مراكش[21] وقرر علي بن يوسف فضله وصلاحه وأكرمه غاية الإكرام.

وهكذا لم تعقد المناظرة بين ابن العريف وخصومه. بالرغم من أن كل الدلائل تشير إلى وجوب انعقادها. وبالرغم من كون المنابر العلمية المفتوحة كانت تغذي حديث أهل مراكش آنذاك. إن هذا الصوفي الأندلسي لم يكن في نهاية الأمر مبتدعاً في عقيدته، ولا خارجياً في تمذهبه وأثبتت الظروف أنه متمسك ببيعته لأمير المسلمين. فبالرغم من وصول الأمر بتسريحه وهو لا يزال في السفر نحو مراكش، يحرص ابن العريف على أن يتم الرحلة وأن يحظى بمقابلة علي بن يوسف المرابطي[22] ولم يكن لمثل هذا الأخير أن يخطىء في تقييم ابن العريف. فهو الموصوف عند المؤرخين بأنه معدود في الزهاد والمتبتلين[23].

إن مناظرة الفقهاء لابن العريف كانت ستتحول لو وقعت إلى فرجة ثقافية لا يرجى منها جسم موضوع ولا القطع برأي. فالرجل لن تعوزه الدلائل لنصرة ما يذهب إليه إضافة إلى أنه المبدأ السائد آنذاك عند المتكلمين وهو أن بطلان الدليل يؤذن ببطلان المدلول دب إليه الضعف تحت تأثير ما دشنه الغزالي واهتدى إليه من مبدأ معاكس لذلك. إن الملاحظة والإستقراء والمقابلة والإستنباط وسائل تستخدم في المحسوسات الطبيعية. والدين عقلي محض ومجرد من عوارض الحس ولن تجيب التقنيات الحسية — وإن استخدمها الفقهاء — عن شيء يخرج عن طبيعتها.

(19) الشاطبي، الإعتصام I — 272.

(20) أحمد بابا التنبكتي : نيل الابتهاج ص 58.

(21) تذهب قلة من المصادر، منها العبر في خبر من غبر للذهبي، إلا أن ابن العريف توفي قبل وصوله مراكش.

(22) التنبكتي أحمد بابا : نيل الإبتهاج ص 58.

(23) المراكشي، المعجب ص 252 ط 7.

ويبدو أن ابن العريف استطاب المقام بمراكش حيث مكث بها بعض الوقت، ثم أدركته الوفاة بها يوم الجمعة 23 صفر من سنة 536 هـ واحتفل الناس بجنازته احتفالاً عظيماً، وكان يوماً مشهوداً في مراكش مما يدل على أنه ربط المعارف بالعاصمة، وشهد له بالفضل والصلاح في الأوساط الشعبية. ولا شك أنه عقد في هذا الوقت القصير جلسات صوفية وسلك على يديه الطريق رجال.

وتنبغي الإشارة هنا إلى اضطراب المصادر التاريخية في سبب وفاة ابن العريف إذ ذهب ابن الأبار وأحمد بابا التنبكتي وصاحب كتاب النجم الثاقب إلا أنه مات مسموماً بايعاز من قاضي ألمرية ابن الأسود. ويسكت باقي المؤرخين عن هذا التفصيل وعلى أي فإن ابن العريف أصبح قطباً من أقطاب حاضرة مراكش. اعتنى بمدفنه وأقيم عليه مشهد يتبرك بزيارته. ولعل مراكش ـــ مع مدينة فاس ـــ أعرق مدينة مغربية في فضيلة الاعتراف والتقدير لذوي النبوغ، خصوصاً منهم رجال التصوف. ولا زالت هذه السمة ظاهرة إلى اليوم يقرها عليها الأجيال المتعاقبة حكاماً ومحكومين. وقد استطاع أهل مراكش ومعهم أهل فاس منذ القديم رغم الإشكالية المطروحة فقهيا حول زيارة المآثر والضرائح أن يوجدوا ذلك التوازن العملي الذي يسمح بالزيارة ويبيح التبرك بالأفذاذ دون الوقوع في المحظور الشرعي الذي يحتمل أن يلابس ذلك.

إن الحديث عن أبي العباس ابن العريف لا يتم بدون الحديث عن آثاره الكاملة. فإذا كان كتابه «محاسن المجالس» قد صار على وجازته مصدراً من مصادر التصوف الإسلامي، حفظه التاريخ لحسن الحظ، حيث حرض الناس على اقتنائه وروايته بالسند الموصل إلى المؤلف، كما انعكس ذلك في كتب البرامج والفهارس(24) فإن المؤمل الآن أن يعاد طبعه ليعم نفعه ولترى من خلاله شخصية رجل فذ يرقد بين ظهراني هذه المدينة.

ونصوص ابن العريف تحسن الإشارة أخيراً إلى أن المقري يذكر له كتاباً آخر يبدو أنه مجموع في المديح تحت اسم مطالع الأنوار ومنابع الأسرار. كما أنه من المؤلفات التي كانت تروج في المغرب أيام الموحدين حسب المؤرخ ابن عبد الملك كتاب كلام الشيخ أبي العباس ابن العريف نظماً ونثراً جمعه أبو بكر عتيق بن عيسى الأنصاري.

وقد أصاب التراث الصوفي المغربي إهمال حان الوقت لتداركه فما سلم منه من يد الزمان لم تنهض الهمم لإحيائه. أين هي كتب ابن البناء المراكشي : عوارف المعارف في حقيقة النظر للعارف. ومراسم الطريقة في علم الحقيقة. وكتاب أبي الحسن بن غالب : كتاب اليقين وكتب محمد ابن قاسم بن عبد الحكم التميمي الفاسي : اللمعة : الايضاح عن طريق عن طريق أهل الصلاح. وغيرها كثير.

---

(24) انظر مثلا برامج الوادي آشي ابن جابر ص 282 ط 1401 تحقيق محمد الحبيب الهيلة.

الحركة الصوفية في مراكش الموحدية

د. حسن جلاب
كلية الآداب — مراكش

ــ عوامل ومؤثرات :

هنالك عوامل ومؤثرات داخلية وخارجية وجهت التيارات والمذاهب الصوفية التي عرفتها مراكش في هذا العصر :

1 ــ تأثير المشرق: عن طريق الرحلة في الاتجاهين (للحج أو طلب العلم) وخاصة بعد توحيد العدوتين. وفي كتب التراجم كالنفح، والتشوف... اشارات الى اسماء كثير من العلماء والصوفية. وعن طريق الرحلة دخلت المصنفات المشرقية، بواسطة أسلوب الاجازة العامة تصدّر بعض العلماء لتدريسها بعدما اخذوها عن مؤلفيها. وبذلك دخلت الطرق الصوفية والآراء والمذاهب، الا أن الاهتمام كان مركزا على الخصوص حول الجنيد والغزالي :

ــ فالجنيد أصبح مَعْلما من معالم التصوف بالمغرب، وبه ترتبط مدارسه وطرقه الشاذلية، ثم الجزولية وتفريعاتها.

ــ ولا يخفى دور الغزالي في التصوف المغربي، فقد كان حلقة وصل بين الطريقتين : الجنيدية والشاذلية بواسطة علماء مغاربة اشهرهم صالح بن حرزهم الذي أخذ عليه بالمشرق، ونشر مذهبه بفاس ثم بالمغرب عموما على يد ابن اخيه علي بن حرزهم، ودرس على هذا الاخير ابو الحسن الشاذلي.

ومن الذين نشروا مذهب الغزالي كذلك أبو بكر بن العربي الذي اخذ عنه بالمشرق اثناء رحلته العلمية الطويلة، وقد أقام بمراكش مدة.

2 ــ كان لإفريقية والاندلس : تأثير في التصوف بالمغرب عموما وبمراكش خاصة فقد حل بعض الصوفية بأغمات قادمين من القيروان وصفاقس وتونس عبر بجاية فسجلماسة وامتد نفوذهم وتأثير مذاهبهم فيما بعد الى مراكش التي ورثت ثقافة أغمات ومكانتها التجارية والاقتصادية.

وطبيعي ان يتأثر المغرب بما يجرى في الاندلس خاصة بعد تحقيق الوحدة بين المغرب والاندلس من طرف المرابطين، فكانت الكتب والآراء تنتقل بينهما بكامل الحرية والسهولة. وفي كتابي التشوف والسعادة اسماء الصوفية الذين عبروا من الاندلس واليها. وعدد منهم اقبروا في الجانب الشرقي للمدينة.

الا أن دخول ابن العريف وابن برجان الى مراكش كان له صدى خاص في مؤلفات التراجم والتاريخ. واستمر تأثيرهما في التصوف بالمدينة الى ما بعد وفاتهما بكثير. ولعل هذا راجع الى موقف المرابطين منهما، وعلاقتهما بثورة ابن قسي والمريدين.

ويبدو ان لعلاقتهما بالفكر الغزالي اثرا في امتحان المرابطين لهما. هذا الذي لم يحظ بالقبول والتوافق مع الاتجاهات الفقهية المرابطية :

ابن العريف :

ــ فابن العريف ينتمي الى مدينة المرية التي انتهى اليها مذهب ابن مسرة والتي حملت لواء معارضة المرابطين[1].

ابن برجان :

ــ وكان يدعى هو وأصحابه «أتباع الطريقة الغزالية»[2]، واشتهر ابن برجان «بغزالي المغرب»[3].

ــ وطريقة ابن العريف الصوفية تنتهي الى الجنيد كطريقة الغزالي مع اختلاف في السند[4].
ــ ويلتقي ابن العريف مع الغزالي في «احيائه» في كثير مما جاء في كتاب «محاسن المجالس» مناقضا للاتجاه الفقهي المرابطي : كالتمييز بين الشريعة والحقيقة، او الظاهر والباطن، والدعوة الى تجاوز الظاهر الى الباطن، وترك علم الدنيا (الفقه) الى علم الآخرة (التصوف)... الى غير ذلك مما جعل العلماء يقربون بين الشخصيتين[5].

3 ــ قرب مراكش من مراكز صوفية كبيرة مثل رباط نفيس، ورباط شاكر، ورباط اغمات، مما جعلها على صلة وثيقة بصوفيتهم منذ تأسيسها. ومع نمو المدينة اصبحت الانظار متجهة اليها واخذت بالتدرج مكانة اغمات.

ولا يخفى الدور الصوفي لأغمات وريكة، فلقد تلقت تصوف إفريقية على يد بعض الصوفية النازحين اليها من القيروان وتونس، وكانت تعقد بها مجالس للعلم وتجمعات للصوفية، وينعكس ذلك كله على مراكش التي تلقت بعض هؤلاء احياء، ودفنوا بها امواتا[6].

---

(1) ــ الفكر الصوفي واللاانتحالية بالمغرب، عبد العزيز بنعبد الله. البينة 99/7 والتعريف بابن العريف، نهاد خياطة، المعرفة 217، مارس 1980.

(2) ــ الثقافة المغربية الاسلامية بين المرابطين والموحدين. مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، مجلد 44 ج 14 اكتوبر 1969 ص 743.

(3) ــ الفكر الصوفي واللاانتحالية بالمغرب. البينة 61/6 اكتوبر 1962.

(4) ــ اخذ ابن العريف عن ابي بكر بن عبد الباقي الانصاري عن أبي محمد احمد المعافري، عن أبي عمر أحمد بن عبد الله، عن ابي سعيد أحمد بن الاعرابي عن ابي القاسم الجنيد.

(5) ــ انظر للمقارنة كتاب «العلم» من ربع العبادات في «احياء علوم الدين» و «محاسن المجالس» لابن العريف، نشره اسين بلاسيوس باريس 1933.

(6) ــ انظر التشوف 260 ط اولى.

4 ــ **انتقاد التيار** : الذي يمثله بعض امراء الدولة المرابطية وفقهائها وخاصة في آخر حكم علي. فقد كانوا على قدر من الغنى مكنهم من ان يحيوا حياة الدعة والمجون. وشاع شرب الخمر (واستولت النساء على الاحوال، واسندت اليهن الامور... وامير المسلمين في ذلك كله يتزيد تغافله، ويقوى ضعفه... وعكف على العبادة والتبتل، فكان يقوم الليل ويصوم النهار... واهمل امور الرعية غاية الاهمال)(7). اخذ هذا الانتقاد منحيين :

ــ منحى سياسي : فقد استغله المهدي بن تومرت للتشنيع بالمرابطين والامر بالمعروف والنهي عن المنكر داخل المدينة وخارجها، وفي نفس الوقت نشر مبادىء الدعوة الجديدة التي يهيئها.

ــ **منحى اخلاقي**

5 ــ واذا كان المغرب ــ منذ انتشار الاسلام به ــ قد عرف المذاهب والعقائد التي وجدت بالمشرق من خوارج وشيعة... فإن حركة ابن تومرت بمنحاها الفكري العقلي قد عمقت معارف المغاربة في هذا المجال، وسمحت لهم بدراسة الفلسفة وعلم الكلام، خلافا لما كان عليه الامر في العصر المرابطي، فنتج عن هذا تعرف اوسع الى مؤلفت الغزالي وآرئه... وحرية اكبر في مناقشتها وتدارسها. وكان التصوف من العلوم التي حظيت بعناية مماثلة.

واستفادت مراكش من هذا كله لأن اغلب هذه المناقشات والدراسات كانت تجرى بمساجدها. فلا نعجب اذن اذا وجدنا اعلاما من الصوفية يتميزون في هذا العصر، ويكفي تتبع تراجم التشوف للوقوف على ذلك.

ولعل هذه الظاهرة شبيهة الى حد ما بما وقع في الشرق اذ ان الحركة الفكرية والعلمية التي ظهرت به ابتداء من آخر القرن الثاني الهجري، والتي تمثلت في نشاط الدراسات الكلامية وترجمة الفلسفات الاجنبية كان لها اثر واضح في التحول من الزهد ذي الاتجاه العملي الى التصوف النظري الفلسفي.

والى هذا يشير بعض الباحثين الاجانب في دراسته للفرق الاسلامية بالمغرب عند ما قال : (وكنا نستغرب لو لم يظهر التصوف في المغرب، ذلك ان كل الحركات التي ظهرت في المشرق كان لها صدى في المغرب... مذاهب الخوارج والشيعة... والنزعة العقلية التي اتجه اليها الموحدون)(10)

6 ــ ومع استفادة التصوف من حرية الرأي والتعبير والاتجاه العقلي الفكري للمذهب الموحدي، فإن الجانب الآخر من هذا المذهب لم يصادف استحسان العلماء والصوفية، وهو

(7) ــ المعجب 177 ط. القاهرة 1949.

(8) — Le soufisme en occident musulman au XII°s A. Bel A. I. E. O 1934-1935 p. 145 - 147 p. 36.

(9) — Esquisse. G. Drague —.

(10) ــ الفرق الاسلامية لالفرد بيل 379.

المتصل بالمهدوية والتشيع والعصمة(11) كما أنهم لم يلقوا العناية المتوقعة من طرف عبد المومن الذي لم يكن يومن إلا بولي واحد هو المهدي بن تومرت (موقفه من أبي يعزى وامتحانه له)، هذه العناية التي ستظهر مع ابنه يوسف، وتبلغ أوجها مع يعقوب المنصور(12) في الرجوع إلى الكتاب والسنة، وطرح مبالغات المهدي... وآنذاك يكون التفكير في التخلي عن المذهب الموحدي عاملاً من عوامل ازدهار التصوف بمراكش(13)، وإن كنا لا نغفل ملاحظة لها أهميتها، وهي التي ترد عناية المنصور بالصوفية إلى عامل نفسي، والمتمثل في شعوره بالذنب بعد فتكه ببعض أفراد أسرته الخارجين عليه(14).

صوفية ورباطات :

عرف العصر الموحدي أعلاماً كباراً لهم مكانة بارزة في التصوف المغربي الاسلامي :

ــ أبو يعزى ينور المتوفى سنة 572 هـ.

ــ ومحمد بن علي بن حرزهم، فاليهما إضافة إلى عبد القادر الجيلاني تنتهي سلسلات السند الجنيدي.

ــ أبو مدين شعيب الأنصاري الأندلسي المعروف بالغوث، عنده تتجمع هذه السلسلات لأخذه عن هؤلاء جميعاً، وعنه تتفرع الطريقة الجنيدية لتلتقي بالشاذلي، وبذلك فهو رأس ما يسمى «بسلسلة الذهب» فهو شيخ عبد الرحمن المدني الزيات.

ــ شيخ عبد السلام ابن مشيش (المتوفى بين 622 هـ و625 هـ)

ــ شيخ كل من أبي محمد صالح الماجري (ت 631 هـ)

ــ وأبي الحسن علي بن عبد الله بن عبد الجبار الشاذلي (656 هـ)(15)

وقد عرفت مراكش خلال هذا العصر عدداً من الصوفية والرباطات أهمها :

1 ــ عُباد جبل جيليز :

يقع جبل جيليز في الشمال الغربي للمدينة ويبلغ ارتفاعه سبعة وعشرين وخمسمائة متر. ولأشرافه على المدينة كان الثوار والغزاة. يبادرون إلى احتلاله للتحكم فيها.

ولوقوعه خارج الأسوار، وفي مكان خال وهادىء، كان ملجأ للعباد والزهاد كذلك، وقد حدثنا ابن الزيات في ترجمته **لأبي عبد الله محمد بن تميم الزناتي** عن وجود زهاد بهذا الجبل من

(11) انظر تفاصيل المذهب الموحدي في كتابنا «الدولة الموحدية» ط 2 / 1985.

(12) - Marrakech des origines... Deverdun p. 271.

(13) الفرق الاسلامية لالفريد بيل 324 ــ 325. ترجمة ع. بدوي.

(14) معطيات الحضارة المغربية لعبد العزيز بنعبد الله 1 / 132.

(15) انظر ترجمة أبي مدين في انس الفقير لابن قنفذ، والتشوف لابن الزيات، وعنوان الدراية للغبريني، وأما السلسلات فواردة عند جورج دراك (الملحق).

بينهم صاحب الترجمة قال : (سمعت أبا العباس أحمد بن إبراهيم بن محمد الأزدي يقول : أخبرني المريسي عن ثقات من المريدين قالوا : كنا مع ابن تميم (صاحب الترجمة) بجبل جيليز فأردنا أن نتوضأ من ساقية قريبة منا فلم نقدر أن نتوضأ من الساقية لعمقها إلا بالنزول فيها، فذهبنا إلى موضع منها يمكن أن يتوضأ منه، فلما رجعنا وجدنا أبا عبد الله محمد بن تميم قد توضأ من أعلى الساقية، وآثار الماء حوالي الساقية فنظرنا فيها فرأينا آثار ماء الساقية قد ارتفع حيث يمكن القاعد أعلاه أن يتوضأ منها)[16]

يمكن أن نستنتج من هذا النص ما يلي :

ــ حلول العباد والزهاد بجبل جيليز وأداؤهم الصلوات به.

ــ إخلاص ابن الزيات للمنهج الذي التزم به في بداية الكتاب القاضي بالتحري في النقل والأخذ من أهل الثقة والأمانة والصلاح... مع ضبط الأسانيد[17].

ــ المستوى الذي كان عليه العباد الوافدون على مراكش على وجه العموم، فابن تميم (موضوع الكرامة) أصله من داي، سكن المدينة وبها توفي سنة سبع وستمائة للهجرة ودفن خارج باب الدباغ.

وسيشتهر جبل جيليز بحلول أبي العباس السبتي به، إذ قضى في خلوته زهاء أربعين سنة.

رابطة أبي إسحاق بباب أيلان :

ذكر ابن الزيات هذه الرابطة في ترجمة رجل مجهول، فقال : (سمعت محمد بن يحيى بن علي يقول : سلمتُ أبا علي عمر بن عبد العزيز يقول : صليت المغرب في **رابطة أبي إسحاق التي داخل باب ايلان**. فلما سلمت وقع بصري على رجل توهمت فيه أنه ولي. فاحرم للنافلة فقلت : أتنفل قدر ما يسلم، واكلمه، فسلم قبلي، وخرج من المسجد فسلمت وتبعته، فصعد في درج سطح المسجد فقلت قد يسر الله لي في الحديث معه على السطح في خلوة، فصعدت في الدرج، فلما علوت على السطح نظرت فلم أجد له أثراً ولا علمت أين ذهب)[18].

ويصح أن نقول عن هذا النص ما قلناه عن النص السابق :

ــ التزام ابن الزيات بمنهجه في الرواية.

ــ مستوى صوفية مراكش، وهو مستوى صوفية التشوف عموماً، وتركيز المؤلف على ذكر الكرامات.

(16) التشوف 405 ط 1.
(17) التشوف 4 ط 1.
(18) التشوف 300.

أما الرابطة المذكورة فلا نعرف شيئاً عنها إذ لم يرد ذكرها في السعادة الأبدية ولا في أعلام عباس بن إبراهيم، ولا نعرف شخصية أبي إسحاق المنسوبة إليه ؟ فهل هو أبو إسحاق إبراهيم بن محمد السلمي البلفيقي أحد مشاهير صوفية ألمرية : استقدمه يوسف بن عبد المومن إلى مراكش بعد ذيوع صيته، وبها توفي ودفن في رحبة الزرع[19].

وإليه ينسب حي سيدي إسحاق بمراكش، إلا أنه بعيد عن باب ايلان موقع الرابطة، وباب ايلان من الأحياء الموحدية التي أسست لتوسيع المدينة من جهة الشرق[20].

وقريباً من باب ايلان أي بحي سيدي أيوب يقع ضريح أقدم أولياء مراكش حسب ابن المؤقت المراكشي وهو أبو يعقوب أيوب بن الحسن.[21]

والراجح أن رابطة أبي إسحاق هاته من مساجد الأحياء التي كانت تؤدى بها الأوقات (كما هو واضح من النص) والتي تميز بعضها بتوافد شخصيات صوفية مشهورة ـــ أحياناً ـــ كما هو الحال في هذا النص ـــ إلا أن وقوعها في باب ايلان ميزها عن غيرها.

أ ـــ باب ايلان تستقبل القادم من هيلانة وأغمات (مركز صوفي).

ب ـــ تقع في الجانب الشرقي من مراكش المعروف بنشاطه الصوفي، ودفن الأولياء والعلماء بمقبرته.

ج ـــ رسوخ الظاهرة في الحي لقربه من سيدي أيوب، ورباط الغار.

3 رابطة الغار، ويوسف بن علي الصنهاجي :

تقع خارج باب أغمات شرقي مراكش، وهي عبارة عن غار كان يعيش فيه يوسف بن علي بعد إصابته بالجذام. ودفن فيه بعد وفاته سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة، إلى جانب شيخه أبي عصفور. وأصبح المكان حارة خاصة بالجذمى إلى دولة الأشراف حيث تمَّ نقلها خارج باب دكالة[22].

وارتبط اسم الرابطة باسم دفينها أبي يعقوب يوسف، وهو ـــ بالرغم من شهرته باعتباره أحد سبعة رجال مراكش ـــ لا نعرف الكثير عن حياته ويمكن تلخيص ما نعرفه عنه فيما يلي :

ـأصله الصنهاجي اليمني.

ـــ مولده بمراكش (تاريخ مجهول) وقضاؤه أغلب فترات حياته بها.

---

(19) السعادة الأبدية 1 / 107.

(20) انظر الفصل الأول من رسالتنا الحركة الصوفية بمراكش وأثرها في الأدب.

(21) السعادة الأبدية 1 / 97.

(22) دلار الحجال مخطوطة خاصة 59.

ــ أخذه عن أبي عصفور يعلى بن وين الذي قال عنه ابن الزيات (من أجل مشايخ مراكش وسادات العارفين في وقته... أخذ عن الشيخ أبي يعزى رضي الله عنه وعلى يديه تربى وتهذب، وتخلق وتأدب، وأخذ عنه خلق كثير منهم الولي الصالح المتقدم الذكر سيدي يوسف بن علي)[23] وكانت وناته بمراكش سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ودفن إلى جانبه بالغار، وضجيعهما هو أبو عمران الهسكوري الأسود المتوفى حوالي سنة تسعين وخمسمائة[24].

ــ ونجهل كل شيء عن دراسة يوسف ونشاطه العلمي والتربوي، وطبيعة ما يعلم وما يدرس بالرباط، ونوعية نشاطه، فقد كان اهتمام المصادر خاصة بإصابته بالجذام وصبره عليه حتى لقب بالمبتلى فقال ابن الزيات (وكان كبير الشأن فاضلًا، زرته مرات ورزقني الله منه محبة ومودة. وكان صابراً راضياً سقط بعض جسده في بعض الأوقات فصنع طعاماً كثيراً للفقراء شكرا لله تعالى على ذلك).[25]

وفي «درر الحجال» أنه كان يخرج من الغار إذا طلعت الشمس ويعرض رجليه لأشعتها، فيجتمع عليها ذباب كثير.[26]

وينتقد اليفرني قول ابن الزيات (وكان صابرً راضياً) قائلًا بأن أشياخ الطريقة يفرقون ــ كما قال اليافعي ــ بين الصبر والرضى بوجهين : إحداهما : الصابر يتألم بالبلاء ويصبر غير فرح به، والراضي يتألم به ويصبر عليه مع الفرح به.

ثانيهما : أن الصابر وإن صبر على البلاء، فإنه يحب زواله، والراضي لا يحب زواله. ومقتضى هذا أن الصبر والرضى متغايران تغاير الضدين. ومما يدل على تغايرهما ما ورد في الخبر : إلا أحب الله عبداً ابتلاه، فإن صبر اجتباه، وإن رضي اصطفاه. ذكره ابن عباد في شرح الحكم. وحال أبي يعقوب ظاهر في أنه كان راضيا لا صابراً... وفرحه وسروره لمصيبته دليل على علو طبقته[27].

ويعتبر الصوفية التلذذ بالبلوى أعلى مقامات الصبر، فعند ابن العريف أن الصبر ثلاثة مقامات :

* الأول التصبر : وهو تحمل مشقة وتجرع غصة في التثبت على ما يجري من الحكم. وهذا هو الصبر لله وهو صبر العوام.

---

(23) التشوف 115.

(24) التشوف 344 ــ السعادة الأبدية 1 / 38 ثم بناء الضريح على عهد العلويين من طرف والي المدينة وباشارة من اليفرني، درر الحجال 65.

(25) التشوف 24 ــ 25.

(26) التشوف 63.

(27) درر الحجال 59.

* الثاني : الصبر، سهولة تخفف على المبتلي بعض الثقل. وهذا هو الصبر بالله وهو صبر المريدين.

* الثالث : الاصطبار، وهو التلذذ بالبلوى والاستبشار باختيار المولى، وهذا هو الصبر على الله، وهو صبر العارفين(28).

ويضرب المثل في الصبر بنبي الله أيوب. وموقف يوسف بن علي من مصابه رفع قدره عند العامة والخاصة، فاعتبر (من أركان الطريقة، واحد أوتاد المغرب في وقته على حالة تامة من الورع والزهد كبير الشأن)(29).

وتنتهي طريقته عند أبي يعزى :
- فقد أخذ عن شيخه أبي عصفور يعلى.
- وأخذ هذا الأخير عن أبي يعزى.

وطريقة أبي يعزى جنيدية كان بتاغيا واشتهر بكلامه باللسان الأمازيغي، وبكراماته، وتخوف السلطة من شعبيته، لهذا تحدثت المصادر عن زيارة عبد المومن له في زاويته ووقوفه على كراماته، ثم استدعاؤه إلى مراكش حوالي سنة واحد وأربعين وخمسمائة(30) وقد جمع هذه الكرامات كل من العزفي في (دعامة اليقين وزعامة المتقين)(13) والصومعي في (المعزى في مناقب أبي يعزى)(32).

4) أبو العباس السبتي ومذهبه في الاحسان :

أبو العباس أحمد بن جعفر الخزرجي السبتي، أكبر أولياء المدينة وأشهر رجالاتها السبعة. عربي الأصل، ولد بمدينة سبتة سنة أربع وعشرين وخمسمائة، وتوفي بمراكش في اليوم الثالث ومن جمادي الأخيرة سنة واحد وستمائة(33).

وينتسب إلى أسرة فقيرة إذ بوفاة والده اضطرت أمة إلى دفعة لحائك لتعلم الحرفة مقابل أجر، إلا أنه كان يفضل التردد على الشيخ أبي عبد الله محمد الفخار (دفين تطوان) لاخذ العلم.

ولعل رغبته في التعلم، والرعاية الخاصة التي كان يلقاها من شيخه بسبب ذلك، كانت وراء سرعة تعلمه. فلم تكد تمضي ست سنوات حتى حفظ القرآن والرسالة وفنوناً من العربية وآدابها

(28) محاسن المجالس 80 — 81.
(29) دور الحجال 59.
(30) التشوف 195 — 205.
(31) مخطوط الخزانة الحسنية 9447.
(32) توجد منه عدة نسخ، خزانة عامة بالرباط 625 د.
(33) تعطير الأنفاس 6.

وتسجل له الروايات مواقف وأخباراً مع شيخه (كثرة سؤاله عن معنى آيات كقوله تعالى : «إن الله يأمر بالعدل والإحسان»...(34).

وأبدى أبو العباس الرغبة في السفر برسم طلب العلم ولقاء المشايخ، ووقع اختياره على مراكش، لأنها كما قال لشيخه (مدينة العلم والخير والصلاح)(35).

ولأنها كذلك، عاصمة الدولة الجديدة، فقد كان خروج أبي العباس من سبتة سنة أربعين وخمسمائة (وعمره ست عشرة سنة) وهي السنة التي تأكد فيه انتصار الموحدين على المرابطين، خصوصاً بعد مقتل تاشفين سنة تسع وثلاثين وخمسمائة.

وفي طريقه من سبتة إلى مراكش بمعية وصيفة مسعود الحاج (دفين حومة الموقف)(36) صدرت عنه كرامات(37)، تبرز مشاغل المجتمعات القروية التي مر بها وهمومها، وتعطي صورة عن المتاعب التي لقياها في رحلتهما(38).

وجد أبو العباس مدينة مراكش في حالة حصار (استمر من محرم إلى شوال سنة واحد وأربعين وخمسمائة)، فصعد إلى جبل جيليز مع وصيفه. وفي تعطير الأنفاس (إن الله أنبع عيناً من ماء وجعل يتعبد في ذلك الجبل والفقير معه يخدمه)(39).

وتكتنف سيرته ثغرات ونقط استفهام، ابتداء من تاريخ حلوله بمراكش. فبدل أن تقدم المصادرتفاصيل عن حياته، تكتفي بسرد مجموعة من الكرامات المنسوبة إليه. فغلبت بذلك جانب الأسطورة على جانب الواقع، فلا يبقى إلا استخلاص ما يمكن استخلاصه مما يلقي بعض الأضواء على سيرة الشيخ أبي العباس، مع العلم أنها ــ سواء صحت نسبتها إليه أو لا ــ تعبر عن هموم البيئة التي عاش فيها وتطلعاتها وآمالها.

لقد بقي بخلوته أربعين سنة (من سنة أربعين إلى ثمانين وخمسمائة) وهي السنة التي تولى فيها يعقوب المنصور الحكم. ونعرف ميل هذا الأخير إلى مجالسة الصلحاء واستدعائه لهم بخلاف جده عبد المومن.

ومع تسليمها بوجود بعض الزهاد في جبل جيليز، فإننا لانعرف نوعية الحياة التي كانوا يحيونها على ظهره. ولم تصلنا أسماء الشيوخ والعلماء الذين أخذ عنهم أبو العباس بالجبل، ذلك لأن

(34) أخبار أبي العباس 1 واظهار الكمال 158.
(35) اخبار أبي العباس 6، اظهار الكمال 160.
(36) السعادة الأبدية 1 / 116.
(37) وردت في أخبار أبي العباس لابن الزيات وفي تعطير الأنفاس...
(38) تعطير الأنفاس 12، 30، 31.
(39) تعطير الأنفاس 32.

حضوره إلى مراكش كان بقصد طلب العلم كما أسلفنا. ونفهم من بعض الكرامات أنه كان ينزل وحده إليها لأداء صلاة الجمعة[40].

وإلى هذه الفترة من حياته تنسب الكرامة التي ذكرها الزموري نقلًا عن صاحب «أنس العارفين» وكان يزور فيها الشيخ أبا يعقوب بن أمغار بتيط، يتحدثان في فنون العلم، وتقول الرواية أن الخادمة التي أحضرت لهما الطعام تعجب من حسن الشاب وجماله (أبي العباس) وأساءت الظن بالشيخ، فجعلا يأكلان وهي جالسة، فلما استوفيا من الأكل، سأل الشاب الشيخ في الدعاء فدعا له وودعه. فجعل الشاب يمشي على ماء االبحر والخدم تنظر إليه.. فالتفت إليها الشيخ قائلا : لا تسيئي الظن بأولياء الله تعالى ياخبيثة النفس، واعلمي أن ذلك الشاب هو الولي المتبرك به شرقاً وغرباً، براً وبحراً، أبو العباس السبتي أتى اليوم لزيارتنا... على عادته[41].

يمكننا هذا الخبر من اعتبار الشيخ أبي يعقوب بن أمغار من شيوخ السبتي إذ كان يجالسه ويتحدث معه في فنون العلم، ويطلب دعاءه متحملًا في سبيل ذلك قطع خلوته بجليز.

وظروف دخول أبي العباس لمراكش، وقطع خلوته الطويلة بكتنفها الغموض. فإذا كنا متأكدين من تمام ذلك على عهد المنصور، فإن الإختلاف واقع في التاريخ والسبب :

ــ فعند البعض أن وصول أخبار كرامات أبي العباس بعد حلوله بجبل جليز جعل المنصور وأعيان المدينة يطلعون إليه للتبرك، ودعاه الخليفة إلى الإقامة بالمدينة، وحبس عليه مدرسة للعلم والتدريس ودارا للسكنى[42]. ولعل ذلك قد تم في بداية حكم المنصور، فيكون السبتي قد قضى ــ كما في المصادر ــ أربعين سنة في الخلوة (من أربعين إلى ثمانين وخمسمائة).

ــ إلا أن الشائع والمعروف أن المنصور كان يعاني من عذاب نفسي بعد قتله لأخيه عمر، وعمه سليمان، فاقترح عليه مريد (أو مريدة) أن يتصل بأبي مدين، فأرسل في طلبه من بجاية. إلا أن الشيخ عاجلته منيته عند حلوله بتلمسان، فأوصى رسل الخليفة بإخباره أن دواءه عند أبي العباس السبتي، وعند ذلك استدعى المنصور الشيخ إلى قصره[43]. وهذا الرأي الأخير لا يتفق وتواريخ الأحداث :

أ فالثابت أن أبا مدين توفي سنة أربع وتسعين وخمسمائة.

ب ــ تاريخ مقتل عمر وسليمان هو سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة، وبالفعل شعر المنصور

(40) تعطير الأنفاس 23 ــ 24.

(41) بهجة الناظرين للزموري 119 مخطوطة خاصة، وتعطير الأنفاس 7 ــ 8.

(42) أخبار أبي العباس 3. اظهار الكمال 142 ــ 143.

(43) اظهار الكمال 155 ــ 156 ــ رواها عن روض الرياحين في حكاية الصالحين.

إثره بعذاب نفس عبر عنه صاحب العجب بقوله : (واظهر بعد ذلك زهداً وتقشفاً وخشونة ملبس ومأكل)(44) فلا يعقل أن ينتظر المنصور كل هذه السنوات بحثاً عن وسيلة لمعالجة ما يعانيه.

ثم إن تاريخ أربع وتسعين وخمسمائة غير مقبول إذ أنه سيجعل من مدة خلوة أبي العباس أربعاً وخمسين سنة بدل أربعين سنة المتفق عليها في كل المصادر، ولن يبقى إلا سبع سنوات لسنة واحد وستمائة تاريخ وفاته، في حين أن الروايات والمصادر تتحدث عن بناته اللائي تزوجن وهو بقيد الحياة. وبالطبع فإنه لم يتزوج وينجب إلا بعد انتهاء الخلوة واتصاله بالمنصور.

وبهذا فتاريخ ثمانين وخمسمائة أكثر ملاءمة الأحداث توافقا مع الوقائع، وقد يكون ما روي على لسان أبي مدين مجرد وضع أراد به أصحابه الرفع من شأن أبي العباس عندما يجعله أبو مدين (قطب المغرب، وشيخ مشايخ الإسلام، وسيد الطائفة في زمانه) — كما تقول الرواية — في مستواه ويقوم مقامه.

وأبو مدين كما بيننا هو الذي انتهت إليه مدارس الغزالي والجيلاني وأبي يعزى أي أقطاب الشرق والغرب.

وهذه المرحلة من أخصب مراحل حياة أبي العباس، ففيها تم نشر مذهبه على نطاق واسع، إذ كان يطوف بنفسه في الأسواق ويحث الناس على الصدقة وعلى المتاجرة مع الله (درهم يساوي عشرة) كما كان يقول :

ويبدو من خلال الكرامات المنسوبة له أنه كان كثير الحركة والعمل يساعد المحتاج، ويطعم الجائع، وينصر المظلوم، ويستسقي به الناس أثناء القحط والجفاف. وكان ذلك حلما من الشيخ، إذ أن الروايات تجعل أهل مراكش (الأولياء الفقهاء على السواء) يسيئون إليه، ويعتبرونه ملامتيا، أو كافراً، أو ساحرا، وقليلون هم الذين أحسنوا الظن به(45).

وفي هذه الفترة كذلك كون الشيخ أسرته، فقد أعطاه المنصور داراً بأحواز جامع الكتبيين (فندق مقبل بحي أكدير) فتزوج وأنجب عدة أولاد ذكوراً وإناثا(46) ورد ذكرهم في عدد من كراماته(47).

وكان السبتي يدرس اللغة والحساب بالمدرسة التي حبسها عليه النصور بحي أكدير، إلا أننا لا نعرف شيئا عن الكتب المدروسة وطريقة التدريس، ولا أسماء تلامذته. كل ما وصلنا هو

(44) المعجب 278.

(45) اظهار الكمال 158.

(46) تعطير الأنفاس 26 و 36.

(47) تعطير الأنفاس 35، 36، 45، 46، 73 والاعلام 330/4، ذكرت له الأخبار حفيدا هو أبو زكريا كان حاضرا يوم احتضار الشيخ : اخبار أبي العباس. ص. 8.

اجتماعهم في الليل وارتفاع أصواتهم بالمذاكرة، الشيء الذي يجر عليهم أحياناً غضب حراس الليل(48). وتوزيع أجرته على المحتاجين من الطلبة، وتحضير الطعام لهم.

من أشهر تلامذته :

ــ أبو يعقوب يوسف بن الحسن الأنصاري المعروف بابن الحكيم **(ت 605 هـ) قيل أنه** كان كثير التأسف والتلهف على شيخه حتى مات بحبه(49).

ــ أبو بكر بن مساعد بن محمد اللمطي : لازم أبا العباس مدة طويلة، وقد لقيه ابن الزيات وأخذ عنه كثيراً من أخبار السبتي وكراماته.(50).

صفاته : حدثنا الزموري بتفصيل عن صفاته الخلقية (بفتح الخاء) في خبر اتصاله بأبي يعقوب بن أمغار (.. جميل الصورة، بديع الجمال، أبيض اللون...)(51).

وتطنب المصادر في الحديث عن صفاته الخلقية (بضم الخاء) أهمها :

بسطة اللسان والقدرة على المجادلة والكلام، لا يناظره أحد إلا غلبه. وكان سريع الجواب كأن القرآن ومواقع الحجج على طرف لسانه...

يأتيه من يأتيه للانكار عليه فما ينصرف إلا وقد سلم له وانقاد لقوله، وهي صفة يحتاج إليها صاحب مذهب كأبي العباس.

مذهبه : يرتفع سند أبي العباس في الطريقة إلى الأقطاب الثلاثة :

الغزالي، وأبي يعزى والجيلاني، وذلك حسب الأسانيد التالية :

1 ــ عن ابي عبد الله الفخار شيخه بسبتة.
عن القاضي عياض
عن أبي بكر بن العربي
عن الغزالي
2 ــ عن أبي عبد الله الفخار
عن القاضي عياض

(48) اخبار أبي العباس 3، وتعطير الأنفاس 26.
(49) التشوف 417، السعادة الأبدية 1/118 ــ 119.
(50) الأعلام 1/406.
(51) بهجة الناظرين للزموري 119، وتعطير 6 ــ 7.
(52) بادرة الاستعجال مخطوطة خاصة 39، واظهار الكمال 167.

عن أبي بكر بن العربي

عن أبي يعزى

3 ــ السند الثالث : عن أبي عبد الله الفخار

عن القاضي عياض

عن أبي علي الصدفي

عن عبد القادر الجيلاني(53).

ومع أخذه عن هؤلاء الشيوخ يبقى مذهبه القائم على الصدقة متميزاً :

فأبو يعزى وإن اشتهر بتوزيع تسعة أعشار من زرعه والإكتفاء بالعشر(54)، فإن الأمر لم يصبح عنده مذهباً ينظر له، وينذر حياته لتطبيقه.

وترجع الروايات جذور هذا المذهب إلى طفولة أبي العباس عندما سأل شيخه الفخار عن معنى قوله تعالى (إن الله يامر بالعدل والإحسان) واكتملت معالمه أثناء خلوته الطويلة في جبل جيليز حيث كان كثير التدبر في القرآن الكريم والعبادات. وهكذا فإنه يرد أصول الشرع إلى الصدقة :

فالتكبير للصلاة معناه التخلي عن كل شيء وعدم الضن على الله بشيء. والركوع معناه المشاطرة.

ــ والمعنى الحقيقي للصوم الشعور بالجوع للتصدق والعطاء.

ــ والزكاة فرضت كل سنة لتعويد الناس على البذل والعطاء في كافة أيام السنة.

ــ والحج معناه التجرد من كل شيء والبذل لله وإظهار العبودية.

ــ وسر الجهاد بذل النفس في مرضات الله، وترك التعلق بأسباب الدنيا(55).

ولاحظ أن كثيرا من الآيات والاحاديث(56) تحض على الصدقة وتدعوا إليها، ومن أكثرها وروداً على لسانه وقلبه ــ كما قال ــ والتي يفسر بها مذهبه هي قوله تعالى (إن الله يأمر بالعدل والإحسان) :

ــ **فالعدل** عنده **المشاطرة** وقد علم الرسول المسلمين مفهومها عندما آخى بين المهاجرين والأنصار، وشاطر الأنصار المهاجرين. فعقد السبتي مع الله ألا ياتيه شيء إلا شاطره إخوانه

(53) تعطير الأنفاس 13، اظهار الكمال 157، 173.

(54) اظهار الكمال، عن المعزي 172 ــ 173.

(55) اخبار العباس 2 ــ 7 تعطير الأنفاس 12 ــ 13 ــ 18...

(56) منها (فاما من اعطى واتقى وصدق بالحسنى...) لما أراد الله اهلاك آل فرعون دعا عليهم بالبخل. ومن الأحاديث قوله ص (اتقوا النار ولو بشق تمرة...).

المومنين من الفقراء، فسار على ذلك عشرين سنة، يتصدق بنصف ما يملك (من سنة أربعين إلى ستين خمسمائة).

ــ بعد ذلك عاد للتدبر في الآية، فوجد أن العدل هو الشطر وأن **الاحسان** ما زاد عليه، إذن فالاحسان هو **المشاطرة والايثار** أي إعطاء النصف مع ايثار المحتاج ومساعدته من النصف الثاني. فعقد مع الله عقداً آخر يمسك بمقتضاه الثلث، ويتصدق بالثلثين. فعمل بذلك مدة عشرين سنة أخرى (من ستين إلى ثمانين وخمسمائة).

وقد أدرك أبو العباس مكانة بسبب ذلك، وإليها أشار أبو بكر بن العربي عندما قال في الفتوحات المكية (دخلت مراكش فوجدت أبا العباس السبتي يولي ويعزل، ويخفض ويرفع، ويعطي ويمنع، فتمنيت هذا المقام)[57].

ــ ولم يقف أبو العباس عند هذا القدر فأراد تجاوز مقام الإحسان **بشكر النعمة** ، فقسم ما يأتيه إلى سبعة أقسام : قسم هو حق النفس، وقسم حق الزوجة والأولاد ومن تجب نفقته (كان عددهم 32 شخصاً) ويصرف الباقي لمستحقيه، فأقام على ذلك أربع عشرة سنة فصار بمقتضاه مجاب الدعاء[58].

وبلغت درجة الاستجابة حداً جعل القدماء يقولون لا يمكن لأي مخلوق أن يساوي عبادة الحسن البصري، وزهد داوود الطائي، ومعارف أبي مدين، **وهمة أبي العباس السبتي**، أي أنه كانت له همة عالية تنفعل لها الأشياء على مقتضى مراده بقدرة الله تعالى[59] كما أخبر بذلك عن نفسه في مثل قوله (أحكم بالخاطر وكل ما أردته كان[60] وفي حديث مروي عن أبي الحسن علي بن زكرياء أنه قال : سمعت أبا العباس يقول : أنا هو القطب).[61]

وقد سمع ابن رشد بمذهب أبي العباس فأرسل أبا القاسم عبد الرحمن ابن ابراهيم الخزرجي من قرطبة ليأتيه بخبره. ولما أعلمه بما رآه وسمعه أثناء مقامه مع السبتي قال ابن رشد (هذا رجل مذهبه أن الوجود ينفعل بالجود)[62] أي أن الصدقة تعاقد بين الخالق والمخلوق نتائجه مضمونة.

---

(57) آخر الباب 360 من الفتوحات ج 386/3.

(58) أخبار أبي العباس 2 ــ 7 ــ 17. تفاسير المذهب في إظهار الكمال 125 ــ 127 ــ 136 ــ 137 ــ وتطهير الأنفاس 16 ــ 18.

(59) تعطير الأنفاس 23.

(60) اظهار الكمال 166.

(61) تعطير الأنفاس 22.

(62) أخبار أبي العباس 2، تعطير الأنفاس 18.

لهذا كان يدعو الناس إلى المتاجرة مع الله : الدرهم بعشرة، إشارة إلى قوله تعالى (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها)(63) ويحثهم في الأسواق والمحلات العامة على تحقيق مطالبهم عن طريق الصدقة والاحسان.

خاتمة : تسمح لنا دراسة الحركة الصوفية بمراكش بإبداء الملاحظات التالية :

1 ــ البيئة التي ظهر فيها هؤلاء الاعلام (مراكش) كانت تعرف ازدهاراً اقتصاديا ورخاء تجاريا (نشاط فلاحي، مصانع ومعامل، مراكش أخذت مكانة أغمات التجارية والموقعية)، وازدهاراً علميا (تدريس الطب والكيمياء بجامع ابن يوسف) ظهور مؤلفات في علوم متنوعة، وكذا الانتاج الأدبي الغزير : الجراوي أبو الربيع، ابن حبوس، عبد الواحد المراكشي وغيرهم. حتى ان المدينة أصبحت تشبه ببغداد (بغداد المغرب).

2 ــ في مجال التصوف : وصلت إلى مراكش أصداء مذهب ابن مسرة وطريقة الغزالي من خلال بعض الأتباع، إلا أنه لم يجد الصدى والإقبال اللازمين على عهد المرابطين.

ومع الموحدين وما عرفوا به من تشجيع للدراسات العقلية والكلامية فتح الباب على مصراعيه.. فكان هذا العصر عصر انطلاق التصوف وظهور أعلامه الكبار. وهم ينتمون لفروع الطريقة الجنيدية وسيمهدون للطفرة الكبرى فيما بعد.

3 ــ وبما أننا في مرحلة الانطلاقة لم نجد مؤلفات تنظيرية لهذه الطرق ولا أحاديث مفصلة فقد كان أبو العباس السبتي ــ كما رأينا ــ يدرس القرآن واللغة والحساب، ويربي تلامذته بحزبه (اللهم أفضلت فعم أفضالك، وأنعمت فتم نوالك).

فلا بد لكي يحدث ذلك من انتظار فترة ازدهار التصوف بالمغرب (وبالمدينة) من خلال مؤلفات أعلام آخرين كابن تجيلات المراكشي (أثمد العينين) وأبي محمد صالح الماجري (الطريقة الماجرية) وابن قنفذ (أنس الفقير) ومحمد بنسليمان الجزولي (كتاب التوحيد، العقيدة، الزهد...) وعبد الله الغزواني (النقطة) وغيرهم.

4 ــ وكان عمل يوسف بن علي وأبي العباس السبتي مركزاً على الجانبين :

ــ الاجتماعي، الاطعام والصدقة وهما من أهم أسس المذهب الصوفي لقولهم (راس التوفيق والعبادة إطعام الطعام).

(63) سورة الانعام آية 160.

ـ التربوي : التعليم وتلقين الطريقة.

وهو الامر الذي سيصبح متجاوزاً فيما بعد إلى آفاق أخرى أهم :

ـ الجانب السياسي : الذي سيمكن الصوفية من احتلال مراكز مهمة في الدولة تقاس أهميتها بعدد الأتباع والمريدين.

ولعل حضور ايديولوجية متميزة عند الموحدين، وقوتهم وظروف الانطلاق أسباب كانت وراء تأخر ذلك إلى ما بعد، أي إلى العصر المريني /الوطاسي.

د. حسن جلاب

معالم من الفكر الموحدي بمراكش

ذ. عبد الواحد العسري
كلية الآداب ــ تطوان

مراكش، هذا الفضاء المترامي الأطراف، لا تحده من بعيد غير جبال شاهقة تتحدث بإصرار عن المغرب المتعدد والواحد في إسلامه وعروبته وأمازغيته وإفريقيته، لا أملك إلا أن أنصت إلى حاضرك، ملتفتاً إلى ماضيك. أن أسيخ السمع الى جلبة الخيل والعربات، وهي تطرق اسفلت شوارعك الفسيحة، الى نداء العرفات، يلوك أسرار النبوءة العجيبة، وكذلك الى قرقعة سيوف المرابطين والموحدين، وغيرهم على أبوابك، وبين أزقاتك المثقلة بهموم الماضي وآهات المستقبل. وعن ثقل تراثك العالم، لا أملك الا أن ألتفت للآفاق التاريخية الكبرى، التي وضعك على طريقها الموحدون لأتساءل في هذا الصدد عن الفكر الفكري الموحدي، عن الفكر التومرتي المؤسس، وبالضبط لأتساءل هذا اليوم، ولأحاول أن أقدم بعض الملاحظات حول الأصول المغربية — التي — افترضها — لهذا الفكر.

سأعمد إذاً، الى تحقيق وتأويل مدى علاقة القول التومرتي بالقول المغربي الأندلسي. مختلفاً بذلك مع كل من رد القول الأول الى أصول مشرقية، معتزلية، أشاعرية، وشيعية، والبحث عن الأصول التي ننشدها، لن يهتم بمحاولة إثبات التأثير والتأثر في معناهما التعاقبي الخطي. بل سيحاول التأكيد على وحدة المشروع التومرتي ليأبى تفجيره وتجزيئه إلى أجزاء متناثرة متناقضة. وسيتم ذلك بالنظر في الرغبة السياسية التي أطرت الأسس الايديولوجية — المعرفية لهذا المشروع المغربي.

لقد انخرط المغاربة — ابن تومرت وغيره — قبيل نهاية الموحدين — ضمن رغبة سياسية محددة : الاختلاف عن دولة بني العباس بالمشرق وحول الفاطميين بمصر. وخاصة هذه الأخيرة التي هددت باستمرار الغرب الاسلامي في آماله السياسية، ومشاريه الدينية والفكرية. ولقد أطرت هذه الرغبة السياسية موقفاً إيديولوجياً، وهاجساً ثقافياً عالماً، تميز في أساسه المعرفي، بالرغبة في التميز عن أسس ثقافة بني العباس الموسومة في الغالب باستخدام منهج قياس الغائب على الشاهد، في مختلف الميادين الثقافية. وكذا التميز عن الأسس العرفانية — الغنوصية للدولة الفاطمية الإسماعيلية(1).

لذلك اتسم المشروع المعني بالأمر في هذا المقام بمحاولة بناء الدين على القطع وبدعمه بالعقل، وإقصاء كل أشكال العرفان الشيعية والصوفية. هذا هو ما نجده مشتركاً بصفة عامة بين مجموع المفكرين المغاربة كابن حزم وابن تومرت وابن رشد وغيرهم. كما نجده مشتركاً وبصفة نسبية

(1) — حول كل هذا وذاك انظر : أ — الجابري محمد عابد، تكوين العقل العربي : ط 2 1985 ص 235 — 331.
ب — وكذلك سالم يفوت، ابن حزم والفكر الفلسفي بالمغرب والاندلس. الدار البيضاء 1986. ص 187 — 229 وأيضا ص. 317 — 329.

بين هؤلاء وبعض مفكري الأباضية. وهذا هو ما نعنيه بالأصول المشتركة. أي إشتراك الجميع في الرغبة السياسية والثقافية الواحدة والمذكورة سابقاً.

1 ــ حول ابن تومرت والاباضية : لم يحظ إبن تومرت بأبحاث متعددة كمفكر، والقليل الذي عني به رده الى أصول مشرقية مجزءا بذلك وحدة مشروعه. فالمستشرقون أمام انعدام إمكانية تفسير تراث ما، يرده الى أصول هيلينية أوروبية يعمدون كعموم الباحثين العرب المشارقة الى رده الى هذه الأصول المشرقية(2). وبذلك لم يختلف هؤلاء جميعاً عن القدماء في البحث عن التأثير والتأثر بالمشرق(3). ولا عن القولة المشرقية المشهورة بخصوص الثقافة المغربية الوسطوية : «إنها بضاعتنا ردت إلينـا»(4).

ا ــ لذلك اقترح دومينيك إيرفوا ــ باعتماده للمقاربات الإجتماعية لتُراث الغرب الإسلامي ــ ضرورة التساؤل عن مدى علاقة الفكر التومرتي بوسطه البربري الموسوم بالأثر الخارجي الأباضي. هكذا تناول إيرفوا مجموع نصوص المهدي العقائدية ليبحث فيها عن أثر مغربي أباضي. وذلك بمقابلتها بفصلين من كتاب الدليل لأهل العقول، لأبي يعقوب الورجلاني الأباضي. ولقد حقق بذلك في نظرنا بعض النتائج الإيجابية في هذا الصدد.

لقد انطلق ارفوا من فرضية إمكانية إطلاع المهدي بن تومرت على الكتابات الاباضية قبل قيامه برحلته المشهورة إلى الشرق(5)، ليستنتج بعد ذلك الأثر الاباضي في أجزاء من عقيدة المهدي. ولقد نبه الى أن هذا الأخير قد تمثل العقائد الخارجية، بطريقته الخاصة وفقاً لمشروعه العقدي العام. لذلك جاهد في تسجيل وتحليل المواقف العقائدية المشتركة والمختلفة بين إبن تومرت وأبي يعقوب(6). هكذا حاول أرفوا أن يتعامل مع تُرَاثِ المهدي كمشروع واحد ومتكامل. غير أن محاولته هذه، لم تسلم هي الأخرى من تعقب التأثير والتأثر. غير أنه بدلاً من رد أجزاء هذا المشروع الى أصول متعددة في ميدان العقيدة. تم ردها إلى أصل واحد وأصل مغربي هذه المرة، مما ضفى طابع الجدة والأصالة على هذه الدراسة.

(2) ــ انظر جردا ينتقد ذلك ب عبد الواحد العسري ــ مدخل لدراسة كتاب اعز ما يطلب لابن تومرت «مجلة كلية الآداب بتطوان نوفمبر 1986 ص ــ ص 69 ــ 76.

(3) ــ انظر ذلك بترجمات المهدي المنشورة ضمن طبعة لوسياني لكتاب اعز ما يطلب لابن تومرت بالجزائر 1903.

(4) ــ لم تكف الثقافة المغربية الوسطوية العالمة، أبدا مجرد إعادة انتاج غير أصلية للثقافة المشرقية، لابل كانت مساهمة اساسية اصيلة ومتميزة ضمن الثقافة العربية الاسلامية العامة، والتي لم تقطع معها بطبيعة الحال الثقافة التي نعني بها.

(5) Dominique Urvoy La pensée d'Ibn Tumert, Inst. Franc - de Danas 1974 p. 21 -p. 22

(6) Ibid - p. 23 - 29.

ب ــ وسنحاول بدورنا تحقيق علاقة إبن تومرت بالاباضية من خلال إعتماد طريقة أخرى. سنتساءل عن مدى استقطاب الإشكالية السياسية والثقافية المغربية ــ السابقة الذكر ــ لمجهودي كلًا من المهدي وأبي يعقوب. الجواب عن هذا التساؤل يصطدم بعوائق متعددة. من أهمها ندرة الوثيقة بالمغرب الأقصى حول الاباضية. ونسبية تلك التي نعتمدها للإطلاع على هذه الفرقة. فإذا تجاوزنا ذلك، فسيتبين لنا أننا، إزاء مغربيان خضعا معاً لنفس الرغبة السياسية ــ التاريخية التي أطرت هذه المرة الإشكالية الثقافية. إننا إزاء انتسابين الى لحظة تاريخية واحدة، من لحظات تاريخ الغرب الإسلامي الطويل. لحظة توهج العقل وطموحه في تأسيس الثقافة وتنظيم الحياة بعيداً عن كل اشكال العرفان والغنوص.

لقد قاوم الأباضية الغزو الشيعي الفاطمي لبلاد المغرب، ذلك قبل وبعد سقوط دولتهم بتاهرت، لتنحصر دائرة ثقافتهم بوادي المزاب وواحة ورجلان وجبل نفوسة(7). ومن هناك تابع الأباضيون مقاومتهم الفكرية للشيعة، عبر إنتاج واستهلاك ثقافتهم العالمة، كوسيلة من وسائل ضمان الإستمرارية واطراد الوجود. في هذا الإطار يمكن أن ندرج كتاب الدليل لأصل العقول، فإذا ما إقتطفنا منه مبحثاً عقدياً أساسياً وهو مبحث الصفات، يتبين لنا ــ وبوضوح ــ كيف ينخرط أبو يعقوب ضمن الجهد المغربي العام بشأن قسم من الإشكالية السياسية والثقافية التي تستقطبه.

فبعدما تجاوز أبو يعقوب مشكلة الاستهلاك، والبحث عن مشروعية لمبحثه الكلامي هذا، وذلك بتقديمه كمحاولة إضطرارية للإجابة عن اسئلة قلقة حول العقيدة(8). انتقل بعد ذلك الى مناقشة منطلقات ومواقف الخصم الأشعري حول الصفات، وذلك في أفق دحضها للانتصار العقيدة الاباضية في هذا الصدد. ولقد تحقق له ذلك باعتماده لمنهجية صارمة في مناظرة خصمه، وللعقل ومبادئه الكونية، بالإضافة الى محاولته لرفض قياس الغائب على الشاهد ــ والتي لم تتعد حدود الرغبة في المحاولة ــ هكذا حاول أبو يعقوب أن يثبت بأن الصفات الإلهية ليست غيرية عن الله، يفتقر إليها إفتقاراً، كما ذهب الى ذلك الأشاعرة.(9). دون أن يميز في هذه الصفات بين صفات ذات وصفات فصل، مؤكداً على وحدتها، ومتخلصاً في نفس الوقت من مشكلة الأحوال

(7) ــ حول مقاومة الاباطية للغزو الشيعي، انظر محمود اسماعيل الخوارج في بلاد المغرب. الدار البيضاء 1985 ــ 229 ــ 235.

(8) ــ هذه الاسئلة حسب كتاب ابي معقوب ــ كانت ترد من غانة. ويبدو بأن الاباضية الذين نشروا الاسلام بالسودان، اعتنقوا كذلك بتقويمه، وتوطيده ومحاولة تطهيره من شوائب المعتقدات الوثنية الافريقية القديمة.

(9) ــ «قالوا بأن هذه المعاني [الصفات] اخيار الله عز وجل، واغيار بينها البين» ابو يعقوب الدليل، 400. «فسلبوها عن ذاته وجعلوها محتاجة الى الغير. نفسه.

الأشعرية والمعتزلية، هذا الى جانب رفضه وصف الأشاعرة لله «بالوجه، واليدين والرأس والعين»(10).

ولقد حاول أن يفسر خطأ الأشاعرة هذا، بإعتمادهم لقياس الغائب على الشاهد، فقد ذهبوا على حد قوله «في إلهم مذهبهم في أنفسهم، وحصروه في أوهامهم، واعتقدوا بأن ذلك إثباته لا إبطاله(11). كما شبهوا الذات التي لا تتجزء ولا تحلها الأعراض بالأجسام التي تتجزء(12).

وعند بلورته لعقيدة الأباضية في الصفات. أثبت مبدء بطلان إبطالها» أما إبطالها بعدما تقرلا الدليل ولاح السبيل فلا(13). «كما عمد للحديث عنها الى إستخدام إسم الفاعل (حي، قادر مدبر)، ولقد بقي بذلك الورجلاني، متوتراً بين نفي الصفات، وإثباتها دون الخوض في كيفيتها مصرحاً بذلك» بأن العجز عن درك الإدراك دراك (14) أو أن يخوض في ذلك. حين لم يقطع نهائياً مع أصحابه الذين يقولون بأن الصفة هي الله، والله هو الصفة، وإن كان قد فضل أن لايقول بهذا الصدد الا «والأحسن عندي أن تقول : ليس هناك شيء غير الله(15). وهكذا لم يتخلص أبو يعقوب نهائياً من سجن الأساس المنهجي الذي ضبط المجهودات الكلامية لخصومه، أي من سيطرة منهج قياس الغائب على الشاهد، إننا مع الورجلاني إزاء محاولة جنينية للتخلص من هذه الطريق، لم تستطع أن تكتمل فهاجس تنزيه الذات الإلهية عن كل ما يمكن أن يلحقها من شوائب التمثيل والتشبيه، ثابت أساسي، انتظم مجهود أبي يعقوب حوله وبخصوصه. ويمكن أن نرجع ذلك الى رغبة الإباضية السابقة الذكر بخصوص توطيد الإسلام بالسودان وتطهيره من الوثنية الإفريقية المستميتة داخله.

وعن رفض الغنوص، فذلك من غير المصرح به بالنص الذي نعتمده غير تاوٍ به، ومن أهم المنطلقات التي سمحت بإنتاجه واستهلاكه.

فاعتماد الورجلاني للعقل، ولموقف من المعرفة المحددة عنده بالدين والعقل. ويجعل منه خصماً معرفياً للشيعة كما كان خصماً تاريخياً لها. ولا غرو في ذلك فلقد ركبت الشيعة عند معالجتها لمشكلة الصفات بفلسفتها، سبل الغنوص الهرمسي. لقد نفت اتصاف الله بأية صفة متصورة بذلك بأن الدفاع عن تنزيه الله، يقتضي منها تحويل هذه الصفات للعقل الأول الذي يتكلف في نظرها

(10) — نفسه.
(11) — نفس 50.
(12) — نفسه 49.
(13) — نفسه 46.
(14) — نفسه 50.
(15) — نفسه 49.

بتحريك[16] الكون. وهكذا فإن التقى كلا من المهدي وأبي يعقوب داخل نفس الرغبة التاريخية فلم يلتقيا إلا في قسم من الرغبة الثقافية ــ المتأطرة بالرغبة الأولى، والتي إستقطبت مجهود المغارب العام. رفض الغنوص ومقاومته وهكذا يتميز المهدي عن أباضينا في هذا الصدد، ليتمكن من إستعادة مجموع الإشكالية النظرية المغربية التي دشن البحث فيها إبن حزم. وبالضبط فسيستعير المهدي القسم المتعلق بالعقيدة والشريعة والسياسة من هذه الإشكالية ذلكم لأن القسم الآخر الملتصق بالفلسفة عند إبن حزم قد غاب بالفعل عند إبن تومرت ليحضر بالقوة لاعتماد المهدي للعقل طريقة الفلسفة[17].

2 ــ بين ابن حزم وابن تومرت :

1 ــ لقد أدرك أول مهتم بابن تومرت كمفكر في العصور الحديثة كَولد زيهر[18]. علاقة المهدي بفقيه قرطبة. ولقد حاول تبعاً لذلك دراسة هذه العلاقة التي جمعت بينهما بأصول الفقه. إلا أن هذه المحاولة لم تتجاوز طريق البحث عن التأثير والتأثر بمعناهما التعاقبي. مما أتاح لبرونشفك إمكانية مناقشة ورفض هذه المحاولة باعتماده لنفس المنهج، وكذا لنفس نظرة المستشرقين للتراث السابقة الذكر (18)م. وسنحاول بدورنا أن نتعرض لعلاقة الأصوليين بالإشكالية السياسية والثقافية السابقة الذكر. لقد إشتركا معاً في نفس الأهداف السياسية العامة وكذا في نفس الهموم الثقافية. وإن كان فقيه وفيلسوف قرطبة قد تولى بالدراسة والنقد، مجموع الإنتاج الثقافي، مصرحاً برفضه القاطع للغنوص، ولمنهج قياس الغائب على الشاهد[19] معبراً بذلك صراحة وضمناً عن رغبة الأندلس السياسية والإجتماعية في التميز عن السلط العباسية والفاطمية. فإن أصولي المغرب، إبن تومرت لم يكرر ذلك ليسترجع وليتابع هذا المشروع الحزمي. لذلك تأطر مبحث المهدي في الصفات بمبحث ابن حزم فيها بموقفه منها. لقد رفض هذا الأخير بصفة قاطعة مفردة الصفات ومبحثها على طريقة المشارقة لا بل، لقد اعتبر ذلك منهم بدعة وشغباً كلامياً، دشنه المعتزلة وتلاقفه الأشاعرة وبقية

(16) ــ انظر حول ذلك، الكرماني احمد حميد الدين، راحة العقل. نشر مصطفى غالب بيروت 1967 ص 171 وما بعدها.

(17) ــ انظر ذلك عن سالم يلفوت. سبق ذكره ص 443 ــ 455.

(18) Goldziher(I) : Mohamed Ibn Tumert et la théologie de l'Islam dans le Maghreb au XI° siécle (Intro-à l'édi, par Luciani du livre d'Ibn Tumert)

(18) Brunschirg (R) : A. (Sur la doctrine du Mahdi Ibn Tumert). arabica 1955.
B. (Encore sur la doctrine du Mahdi Ibn tumert). Flia orientalia. XIL. 1970

(19) ــ يتضح ويتردد ذلك بمجموع التراث الحزمي. كمثال على ذلك انظر :
أ ــ الفصل في الملل والنحل. مصر 1317 ه.
ب ــ الاحكام في اصول الاحكام الطبعة التي قدم لها د. احسان عباس بيروت 1980.

المتكلمين(20). هذا هو ما دفع بالمهدي الى عدم إستخدام هذه المفردة خلال عرضه لعقيدته، وإن لم يمنعه ذلك من معالجة هذه المسألة بطريقة أصلية ونقدية، حكمها رفض القياس الذي نعنيه في هذا المقام «لأن القياس إنما يصح بين المماثلين وبين المختلفين — إذا كان بينهما شبه، والباري سبحانه ليس له مثل ولا شبه. فإذا ثبت هذا وصح بطل به التشبيه وبطل به قياس الغائب على الشاهد(21) لقد إستهدف المهدي التنزيه المطلق، ولذلك عمد بعض المهتمين به الى رده الى أصول معتزلية وفلسفية(22). غير أن المهدي بعيد عن ذلك. وبعده يتضح لكونه لم ينف الصفات. وإنما نفي إمكانية إشتقاقها من أسمائه الحسنى. فالصفات أسماء سمي بها نفسه.» وليس للمخلوق أن يتحكم على خالقه فيسميه بما لم يسم به نفسه في كتابه. ما نفاه عن نفسه في كتابه نفاه عنه. وما أثبته لنفسه أثبته له. من غير تبديل ولا تشبيه ولا تكييف(23). فما ينفيه ابن تومرت هو إمكانية إستعمال قياس الغائب على الشاهد في هذا المضمار. هذا المبدأ الذي حكم شعب المتكلمين — بالاصطلاح الحزمي — حينما انشغلوا حول علاقة الصفات بالذات، أهي زائدة أو غيرية أو عين الذات، عندما لم يكن من الواجب دينياً وأصولياً في هذا الصدد، غير الاعتقاد فيها بلا كيف ودون أي تجويز للقياس والإصطلاح في أسمائه. وإذا تتبعنا حديث المهدي عن الصفات فسوف نجده يعبر عنهامستخدماً تارة إسم الفاعل (قادر، حي، قيوم) وتارة الصفات بشكل انتسابي الى الله. «وله العزة و الكمال وله العلم والاختيار»(24). غير أننا نجده يستعيد في كل ذلك حديث الأسماء الحسنى وحديث الرسول عن الله، ليثبت توقيفية هذيه الحديثين، ولينفي ويبطل مرة أخرى إمكانية القياس والاشتقاق في هذه الأسماء، دون أن يكل أبداً عن التنبيه الى ضرورة تمثل الخطاب الإلهي حول الصفات كما ورد بالقرآن من دون أي تشبيه ولا تكييف. فعالم الغيب يجب أن يقرء بمضامينه ومفاهيمه الخاصة دون أي خلط بينهما وبين مضامين عالم الشهادة — هكذا يتخلص المهدي كابن حزم — وفي نفس الوقت — من أي شكل من أشكال التعطيل والتجسيم لرفضهما معاً لمنهج قياس الغائب على الشاهد.

ب — إن رفض هذا القياس، الذي ضبط أغلب مجهودات المتكلمين العباسية والفاطمية، استلزم إبطاله وإخراجه من طرف فقيهنا، ابن تومرت من ميدان أصول الشريعة كذلك. ولا عجب

---

(20) — ابن حزم، الفصل ، ص 121.

(21) — ابن تومرت، اعز ما يطلب ص 168.

(22) — من القدماء، انظر ابن تيمية «فتوى ابن تيمية حول ابن تومرت» نشرها وطبعها هنري لاووست مجلة BIFAO 1960 ص 157 — 184.

(23) — اعز ما يطلب 237.

(24) — نفس 235.

في ذلك، فلقد دأب فقهاء المرابطين على اللجوء الى فروع المالكية في التشريع بدلاً من اللجوء فقط إلى أصول الشريعة القطعية. لذلك جهد المهدي في ابطال أصلية الظن والرأي، وكل ما يمكن أن يساهم في تكون شريعة بشرية بموازاة الشريعة الإلهية. ولقد ساق لذلك أدلة نقلية وعقلية تقدح في الظن وتقابله بالعلم(25). فالشريعة لاتثبت بالعقل، وإن كان هذا الأخير لايناقضها، لذلك عمد فقيهنا الى تحديد أفراد الأصل الشرعي في السمع : (الكتاب والسنة) والإجماع والقياس العقلي أو الشرعي باصطلاحه أو الدليل بالإصطلاح الحزمي، نحن إزاء تسميتين لأمر واحد، بين كل من ابن تومرت وابن حزم بأنه لايستقل عن النص ولا يتعدى كونه اجتهاد في إطار النص. فالقياس العقلي قواعد لاستنباط الأحكام من النص المستندة الى أساس اللزوم المنطقي الذي لايفتقر الى الإستغراق والشمول. وليس الى قواعد القياسي الفقهي : أي قياس ما ورد بشأنه نص : حكم على عالم يرد بشأنه ذلك، عبر البحث عن علل مشتركة بينهما فالتعليل والقياس الفقهيين ظنيين غير قطعيين(26). لذلك خصص المهدي فصولا متعددة من كتابه لأبطال أصلية قياس الغائب على الشاهد. في هذا المضمار كذلك(27). ولبلورة قياسه الذي يقول عنه بأنه متضمن بالسمع، والذي رفعه بالتالي الى مرتبة الأصل الشرعي ومعناه «تساوي الغيرين في الحكم(28). وذلك على ضربين : تنبيه بالأدنى على الأعلى، وتنبيه على المعنى الجامع بين الغيرين المتساويين في المعنى(29). إننا إذاً إزاء قياس شاهد على شاهد، وليس غائب على شاهد. ولقد بين المهدي كذلك بهذه الفصول شروط هذا القياس منبهاً الى أنه» باب كبير وأصل دقيق وفيه زل أكثر الناس، ولم يعرفوا تحقيق القياس(30). لايضعنا المهدي إذاً إزاء القياس الأصولي لابل، وفقط، إزاء وسيلة من وسائل التعامل مع النص ليس إلا وسيلة تحتكم الى أصول الشرع الالهية والى مبادىء العقل الكونية.

ج ــ رفض الغنوص : لقد إحتكم مجهود المهدي الى هذا الرفض لقد خصص فصولا من كتابه لبسط نظريته في المعرفة، لابل، لقد إستهل كتابه بمبحث نظري في العلم والمعرفة. فالعلم أصل للإيمان ونقائضه من جهل وشك وظن أصولاً للضلال. وطرق العلم مذرة في السمع والحس والعقل

(25) ــ نفس ــ الفصول الاولى من الكتاب.

(26) ــ ومن شأنها أن يؤديا ضرورة الى الاختلاف والتعدد في الفقه والمجتمع بينما استهدف مشروع ابن تومرت التوحيد والوحدة في جميع الميادين.

(27) ــ موضحا ذلك بأمثلة متعددة، متعلقة بالعقيدة والشريعة ص 164 ــ 180.

(28) ــ اعز. 165 هذا ولقد استدل المهدي على حكم تحريم ما هو اكثر من التأفيف من قوله تعالى : «ولا تقل لهما أف» تبعا تبعا للضرب الاول من القياس. وتبعا للضرب الثاني استدل على تحريم منع كل ما يحيي النفوس من قوله عليه السلام لا يمنع أحدكم فضل الماء.

(29) ــ أعز. 173. هذا، ولسوف يتجنب المهدي استخدام القياس بفقهه.

(30) ــ بضرورة العقل يعلم توحيده سبحانه «أعز 277» للعقول حد تقف عنده لا تتحداه، وهو العجز عن الكيف 233.

وهذا الأخير هو الوسيلة الأساسية لإدراك شتى المعارف الدينية. والسمع هو مصدر كل حقائق الدين. لذلك خصص لهما المهدي الأدوار الأساسية والوحيدة في العقيدة والشريعة. موضحاً إمكانيتهما، وحدود العقل منهما، فحقيقة العقيدة تدرك بداهة بالعقل، غير أنه لايجب، ولن يتمكن أبداً من الخوض في كيفيتها(31). وكذلك بميدان الشريعة، فالعقل يدرك حكمتها، ويمكنه أن يستدل عليها. بيد أنه لن يستطيع أبداً إثباتها بمعنى إختراعها(32). نحن أمام الإرهاصات الأولى لفصل المقال الرشدي، هذه الإرهاصات التي تأطرت بالجهد الحزمي في هذا الصدد، القائم على أساس دعم العقل للنقل، وبناء الشريعة على القطع ورفض الغنوص.

إن رفض هذا الأخير، المصرح به عند فيلسوف قرطبة في أكثر من موضع(33)، لثاو كهاجس بمجهود المهدي. وأساس بنظريته في المعرة السابقة الذكر. ولا عجب في ذلك، فلم يحصر الشيعة الإسماعيليون أصول العلم في السمع والعقل، بل أضافوا الى ذلك وبصفة أساسية أقوال الأئمة الذين سمح لهم النظام العرفاني الشيعي بأن يقول في الأمر الواحد ما شاؤوا من الأقوال(34). غير أن الذين جزؤوا فكر ابن تومرت أو قرؤوا تراثه الكتابي على ضوء قسم من ممارسته السياسية(35) أبوا إلا أن يجدوا به تأثيراً وتأثراً بالشيعة. إلا أن قراءة متمعنة للمباحث السياسية باعز ما يطلب، وربط ذلك بوحدة المشروع التومرتي تبين لنا عكس ذلك. فلقد خول كما رأينا ذلك، للعقل أدواراً أساسية في تأسيس العقيدة، وأستنباط الشريعة من النصوص المقدسة، ولم يترك أي مجال لتخصيص الإمام بذلك كما تتركها له العقائد الشيعية.

بالإضافة الى ذلك، لم يتميز تصور ابن تومرت للإمامة عن تصورات عموم سنة المسلمين لها. من حيث كونها ضرورة دينية ودنيوية. (36) وتصوره للعصمة وللمهدية لم يتجاوز الى حد اللقاء

---

(31) ــ فليس للعقل في الشرع مجال «أعز 48».

(32) ــ انظر على سبيل المثال لا الحصر. الفصل ج الرابع عند مناقشته للمسرية، وللمتصوفة، لابل ان ابن حزم يعتبر التشيع والتصوف أصلين من اصول الضلال الذي وقعت فيه الفرق والمذاهب.

(33) ــ عن اختصاص الائمة بالتأويل، انظر القاضي النعمان اساس التأويل نشر بعض نصوصه ودرسه الحبيب الفيقي ــ الجامعة التونسية، سلسلة الدراسات الاسلامية. 7.ص.ص.29 ــ 44 ــ 73 ــ الخ...

(34) ــ ذلكم، لانه، ولضرورات سياسية معينة، ادعى المهدي الكرامات والخوارق في بعض الاحيان. الا ان نفسه الفكري لا يسمح بذلك.

(35) ــ تعبر عن هذا التصور كثير من الادبيات السياسية العربية الاسلامية على سبيل المثال، كتاب الاحكام السلطانية للماوردي.

(36) ــ ولا نجد أي أثر شيعي في قائمة الائمة بكتابه، بل العكس هو الصحيح، حيث تتضمن هذه القائمة اسماء الخلفاء الراشدين الذين اتخذ منهم الشيعة الاسماعيليين موقفا سلبيا معروفا انظر كذلك. الفصل الخاص عن الامامة باعز ما يطلب ص 236 ــ 237.

بالشيعة تصورات السنة لهما. فعصمة الإمام عنده لاتتعدى عصمة من الظلم والباطل(37). وليست كعصمة الإمام الشيعية التي تتجاوز عصمة الأنبياء(38).

أما المهدية أو الرجعة، فثابتان من ثوابت المخيال الإسلامي السياسي. وهي آمال المسلمين في عودة الإمام المخلص. كتصعيد جزئي لما يعانوه داخل مجتمعاتهم الضاغطة(39). والأهم من كل ذلك هو نظريته في المعرفة السالفة الذكر، والتي تضعه على طرفي نقيض والغنوصية الشيعية التي لم يقبلها أبداً. وبعد، لقد إنتظم الجهد الفكري والعمل السياسي التومرتي داخل تورته الثقافية والدينية الكبرى التي إجتاحت بلاد المغرب لفترة غير قصيرة ولقد إندرجت هذه الثورة هي الأخرى بمجهودات المغاربة العامة، التي حملت رغباتهم السياسية والثقافية فلم يهمل الفكر المغربي أبداً، مع ابن تومرت وغيره، ذلك من حسبانه. وفي ذلك تعبير عن مدى قوته وأصالته. وكذلك عن إحساسه بقوة الآخر المزدوج — العباسيين والفاطميين — والمهدد للحياة السياسية والروحية لعموم المغاربة، غير أن ذلك سيخمد بتراجع الحضارة الموحدية وآفاقها التاريخية الكبرى المتزامن مع تراجع العقل وفقدانه لتوهجه داخلها، ولسوف تشهد مراكش كعاصمة للموحدين، على ذلك، داخل حلقات دروسها بجوامعها وقصورها، وعلى شوارعها وساحاتها الرحيبة.

---

(37) — محمد رضا المظفر، عقائد الامامية، بغداد 1973 ص 92. وكذلك اساس التأويل ص 70.

(38) — زيادة على أنه — اي المهدي — لم يقل بالرجعة على الطريقة الشيعية. بالاضافة بكتابه. يتضح ذلك لا حصرا عند رايته للحديث عن طريق عائشة وزجة الرسول التي اتخذ منها الشيعة موقفا سلبيا كما هو معروف.

أبو الوليد محمد بن احمد بن محمد بن رشد
الفيلسوف السياسي المصلح
(جمهورية افلاطون)

اعتقد أبو الوليد أن أخلاق نقوماخ تعرض آراء أرسطو السياسية، ثم علم أن لأرسطو كتابا في السياسة لم يصل الغرب الاسلامي، فعمد إلى جمهورية أفلاطون، يعرض من خلالها آراءه هو في الحكم الاسلامي وحكم زمانه، وتجربته في تدبير أمور الناس.

ذ. أحمد شحلان
كلية الآداب ـــ الرباط

كان لا بد لما بلغته الإمبراطورية الاسلامية في الشرق من ازدهار وحضارة وعمران، من ظهور فكرة المدينة الفاضلة لدى فلاسفة الاسلام.

غير أن الوضع في الغرب الاسلامي أصبح غير الوضع الذي عرفته تلك الامبراطورية بالشرق، خصوصاً أيام الفتن والحروب ودويلات الطوائف، فلم تعد هيبة الدولة الاسلامية العظمى ذات أثر في فلاسفة الغرب الاسلامي، فابن باجة الذي ولد في آخر القرن الحادي عشر عاصر أحداثا لا يمكن لها لا بالفعل ولا بالقوة أن تخلق تصورا لمدينة فاضلة. إذ رأى بداية قص أطراف الأندلس الزاهرة، فذاك الفونصو الأول يستولي على أركون سنة 1119م. وهذه دويلات الطوائف متناحرة تستنجد بأعداء الاسلام، والعدوة كلها أصبحت تهفو إلى مخلص يأتيها من وراء اليَمّ. وعليه فلا ملجأ لابن باجه إلا «رسالة الوداع» أو «تدبير المتوحد». فالهروب من المجتمع المريض أفضل طريق للفيلسوف، والتوحّد هو ملجؤه ومأواه.

وهذه حال لم ينج منها ابن طفيل، فبعد أن شاهد هو أيضا تداعي أطراف الأندلس، وبعد أن شاهد ما بلغته الدولة المرابطية من قوة وعدة، لاحظ أن البلى ما لبث أن امتد إلى رأسها فانهارت تحت ضربات الثائرين وتحكم المنتهزين وضعف الحاكمين. ورأى هو أيضا أن لا ملجأ إلا في الابتعاد عن مجتمع لا يمكنه أن يبلغ الفضائل الكاملة. ففر «بحيه» «حي ابن يقظان» من هذا المجتمع. وكأن الكبر والشيخوخة لم تسمحا له بالتفكير في بناء صرح هذه المدينة المنشودة في دولة فتية أسست بنيانها على العلم والعرفان، أو على الأقل هذا ما بدا في بداية الأمر. وربما رأى أن بإمكانه أن يساهم في هذه المدينة بطريقة غير مباشرة، تلك هي تقديمه ابن رشد إلى أبي يعقوب يوسف في قصره بمراكش.

وقد روى لنا عبد الواحد المراكشي في كتابه المعجب، خبر قدوم ابن رشد أيام يوسف بن عبد المومن، والكيفية التي قدمه بها ابن طفيل : «قال الخليفة ما رأيهم في السماء — يعني الفلاسفة — أقديمة أم محدثة ؟»

لم يستطع ابن رشد جوابا، فقد خجل وجزع وتعلل، وأنكر أنه ليس من أهل هذا العلم، ولم يكن يدري أن ابن طفيل كان قد عرّف به وبعلمه، وأن الخليفة كان يعرف عنه الكثير، خصوصاً وأنه حل بمراكش قبل هذه الزيارة. وأدرك الخليفة ما هي عليه حال ابن رشد، «فالتفت الأمير إلى ابن طفيل فجعل يتكلم على المسألة التي سأله عنها، ويذكر ما قاله أرسطوطاليس وأفلاطون وجميع الفلاسفة، ويورد مع ذلك احتجاج أهل الاسلام عليهم. فرأى منه ابن رشد غزارة حفظ لم يظنها في أحد من المشتغلين بهذا الشأن المتفرغين له، ولم يزل الأمير يبسطه حتى تكلم فعرف ما عنده»[1].

(1) عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب [تحقيق سعيد العريان ومحمد العربي العلمي]، القاهرة 1949. ص 242 — 243.

وينقل أيضاً المراكشي أن ابن رشد قال : «استدعاني أبو بكر بن طفيل يوماً، فقال لي : سمعت اليوم أمير المؤمنين يشتكي من قلق عبارة أرسطوطاليس أو عبارة المترجمين عنه، ويذكر غموض أغراضه ويقول : لو وقع لهذه الكتب من يلخصها ويقرب أغراضها بعد أن يفهمها فهما جيدا، لقرب مأخذها على الناس. فإن كان فيك فضل قوة لذلك فافعل، وإني لأرجو أن تفي به، لما أعلمه من جودة ذهنك وصفاء قريحتك وقوة نزوعك إلى الصناعة. وما يمنعني من ذلك إلا ما تعلمه من كبرة سني، واشتغالي بالخدمة، وصرف عنايتي إلى ما هو أهم عندي منه. قال أبو الوليد : فكان هذا الذي حملني على تلخيص ما لخصته من كتب أرسطوطاليس»(2).

وطوى عبد الواحد المراكشي عمل ابن رشد الكبير وخفاه في السنين، وانتقل بعد ذلك إلى نكبته التي أرجعها إلى سببين مختلفين : أولهما حكايته في كتابه شرح الحيوان أنه رأى الزرافة لدى ملك البربر. وثانيهما أن أعداءه اقتطفوا فقرة من شرحه وهي : «فقد ظهر أن الزهر أحد الالهة» فاوقفوا أبا يوسف على هذه الكلمة، إلى آخر الخبر(3).

وقد أضافت بعض المصادر أسبابا غير ما ذكر(4).

وإننا نستبعد أن تكون نكبة ابن رشد قد نتجت عن هذه الأمور القريبة التي قد تكون إحدى مظاهر الخلاف لا الخلاف نفسه.

إن ابن رشد كان رجلا سياسيا تمثل المدينة الفاضلة كما اطلع عليها في علوم اليونان، وارتأى أن من واجبه أن يبحث عن شروطها في الغرب الاسلامي، هذا الغرب الاسلامي الذي تتوفر فيه نفس الشروط التي توفرت في اليونان، كما يقول ابن رشد في تلخيصه لجمهورية أفلاطون(5). ولم يختر ابن رشد طريقة ابن باجه ولا مسار حي ابن يقظان، بل اعتبر نفسه شيخاً من شيوخ المدينة الفاضلة، وحارساً من حراسها، ووضع المقدمات للبحث في هذه المدينة في عصر الموحدين.

عاش أبو الوليد أحداث الدولة الموحدية، وتحمل مسؤولياتها، وخبر حكامها، واطلع بدون شك على آثار المهدي، رأس الموحدين، بل شرح مؤلفاً من مؤلفاته، وهو عقيدة المهدي(6) واطلع على أعز ما يطلب، ولا شك أنه وقف عند أول عبارات هذا الكتاب وهي : «أعز ما يطلب،

---

(2) نفسه. ص 243.

(3) نفسه. ص 305 — 306.

(4) ابن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة [إحسان عباس]، السفر السادس، دار الثقافة بيروت 1973 ص 21 — 31. وابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، [تحقيق نزار رضا] دار مكتبة الحياة، بيروت، 1965. ص 530 وما بعدها.

Averroés commentary on Platós "Republic" [E.I.J.] Rosenthal Combridge University Press, 1956, p 27/120.

وسنحيل عليه في المتن بعد الاستشهاد، برقمين : الأول رقم صفحة النص العبري، والثاني صفحة الترجمة الانجليزية. فهما معا في كتاب واحد.

(6) برنامج ابن رشد منشور في ملحق.

وأفضل ما يكتب، وأنفس ما يذخر، وأحسن ما يعمل، العلم الذي جعله الله سبب الهداية إلى كل خير. هو أعز المطالب، وأفضل المكاسب، وأنفس الذخائر، وأحسن الأعمال»(7).

إذن فالمهدي يضع العلم في مقدمة الدولة، وأفلاطون أيضا يضع العلم في مقدمتها. لقد أغرت صورة البداية هذه ابن رشد.

والظاهر أن الأمل لم يطل كثيرا إذ اكتست لغة مختصراته نبرة شؤم وتشاؤم، وران عليه اليأس بعد أمل كان قد برق. يقول ابن رشد في مختصر النفس : «والقول في هذه الأشياء التي تلتئم منها هذه الأقاويل [الأقاويل المنطقية] على الاستقصاء، يستدعي قولاً أبسط من هذا بكثير، لكن قولنا جرى في هذه الأشياء بحسب الأمر الضروري فقط، وان أفسح الله في العمر وجلى **هذا الكرب**...(8).

وجاء في مقدمة مختصر المنطق : «وطلب الأفضل في زماننا هذا يكاد أن يكون ممتنعا»(9).

ويقول في مختصر المجسطي : فنحن في هذا الزمان كحال من وقعت النار في بيته فرام أن يخرج منه ما هو أعز مما هو ضروري في حياته»(10).

والناظر في هذه المختصرات، يلاحظ أنها ألفت بين سنوات 552 و 558(11)، أي في الفترة المعاصرة لعبد المومن الموحدي. وليس من الضروري أن تكون هذه النظرة التشاؤمية وليدة الحكم الموحدي نفسه، بقدر ما هي وليدة ما كانت عليه الحال في الأندلس من حروب جرت لقمع ثائر، أو رد ثغر، أو إبعاد عدوّ، أو من تجربة ذات عاشها أبو الوليد نفسه، فعاد إلى فؤاده وعقله يتدبر سياسة هذه الأمة التي هو فرد منها، ويتملى سياسة وتدبير الأمم السابقة، لعله يجد بلسما لعلة أهله، فيداويهم به. فالرجل لم يختر «التوحد» و«الوداع». ولم يقتف أثر «حيّ» كما رأينا. فكان من الضروري أن يعود إلى الارث الاغريقي، وهو به عليم، وخصوصا ذلك العلم الذي يتقصى أحوال

E. Renan, Averroés et l'Averroésme... Paris 1852, p 351.

وانظر كذلك : جمال الدين العلوي، المتن الرشدي، مدخل لقراءة جديدة. دار توبقال للنشر — البيضاء — 1986 ص 30.

(7) عن يحيى هويدي، تاريخ فلسفة الاسلام في القارة الافريقية، جامعة القاهرة، 1965 ص 291. وانظر مقارنته آراء ابن تومرت بآراء ابن رشد، في موضوع التوفيق بين الحكمة والشريعة، ص 270 — 274.

(8) أبو الوليد محمد بن رشد، تلخيص كتاب النفس، [ب ع نغاليس]، المعهد الاسباني العربي مدريد، 1985. ص 60.

(9) من الترجمة العبرية لمختصر المنطق التي نشرها يعقوب بـ Riva di Tranto 1560 ص (ب). أما الاحالة التي أحال عليها صاحب المتن الرشدي، (ص 51) أي إلى مخطوطة باريس 1009 عبرية. فهي غير صحيحة، إذ هذه المخطوطة تتضمن نصوصا أخرى لابن رشد. أما نص مختصر المنطق فتتضمنه مخطوطة 1008 عبرية. غير أن الفقرة المنقولة أعلاه لا وجود لها في هذه المخطوطة، إذ تنقصها الورقة الأولى.

(10) عن S.Munk, Mélanges de philosophie juive et arabe, Vrin, Paris 1955 p 423. (حاشية رقم 1)

(11) المتن الرشدي ص 15.

الأمم ومصائرها. فنظر فيه، وكان أول ما نظر أخلاق نيكوماخ لأرسطو، فشرحه سنة 572[12] وتطلع إلى سياسته فلم يجدها فاكتفى بجمهورية أفلاطون ولعله إلى حين وفي تلخيصه هذا الكتاب استرجع كل تجاربه ومحصها واقتضاء بما توصل إليه وما استفاده من تجربة أهل اليونان استخلص النتائج وبحث عن الشروط التي يتوصل بها إلى برء سقم الأمة وبناء مدينته التي أراد أن تتوفر فيها سلامة الروح والبدن. فما هي الشروط التي يجب أن تتوفر في هذه المدينة (الدولة) ؟. وما العناصر المكونة لأسسها وأعمدتها ؟.

أولا : الملك الفيلسوف.

ثانيا : حراس المدينة وحماتها.

ثالثا : المدينة نفسها.

ومن هنا كان لا بد للفيلسوف من تحمل مسؤولياته، وكان ابن رشد يمثل الفيلسوف والحارس معاً. إذ تمثلت فيه أخلاق النفس التي افترضها أفلاطون في الحارس، وأهمها الحمية، والغضب، إذ من لا حمية له لا يمكنه أن يحارب من أجل هذه المدينة، ولا يستطيع حمايتها. ومن شرط الحميَّة والغضب أن يحب الحارس، أو يكره، وحبه هو حب من يعرف، لأنه يعرفه، لا خير يأتي منه. ويكره من يجهل، لأنه يجهله، لا عن شر يأتيه منه. (ص 28 / 122). إنما الحب لذات الحب والكره لذات الكره، حتى يستميت الحارس في الدفاع عن المدينة، ويبرأ من الخيانة.

وإذا تمثلت حراسة المدينة الاغريقية في الدفاع عنها بالسيف، فإن حماية ابن رشد لمدينته ستكون بالتربية. فالمجتمع العادل المعتدل لا بد أن يكون أفراده أصحاء الروح وأصحاء البدن. ومن هنا كان ابن رشد فيلسوفاً وطبيباً. وكمال المجتمع يكون في معرفة الطبيب الفيلسوف لتركيب الفضائل، إذ ليست فضيلة الدواء في مركباته ولكنها في نسبة تركيبه كما يقول ابن رشد. (ص 24ـــ 115 ــ 116). والمجتمع العادل هو الذي يقوم فيه الفرد بمسؤولية واحدة لا يتعداها، إذ القيام بالعمل الواحد، يأتي من الاعتدال، والاعتدال سبب السعادة والدوام : «وهذا يكون عندما تتوافق آراء السادة والعامة، للحفاظ على ماتوجبه الشرائع، إلى أن تصبح هذه الفضيلة جزءاً من الناشئة والنسوة والعبيد والأحرار والحكام والعامة، وبالجملة في كل أجزاء المدينة، أعني أن يقوم كل واحد في المدينة بالعمل الذي أعد له بالطبع، ولا يتطاول على غيره. (ص 50 / 159 ــ 160).

---

(12) ضاع أصله العربي وبقيت منه نتف بخزانة القرويين نشرها. Lawrence. V.Berman. Exerpts from the lost Arabic original of Ibn Rushd's Middel commentary on the Nicornachean Ethics, Oriens, xx (1967) pp 31 - 59

وأعاد نشرها عبد الرحمان بدوي في حاشية كتابه الأخلاق... ترجمة اسحق بن حنين، الكويت، 1979، ص 36. يقول : «أما ابن رشد فقد أتم تلخيص كتاب الاخلاق في 27 مايو سنة 1177م، ولم نعثر حتى الآن على النص العربي لهذا التلخيص فيما عدا كلمات قليلة هي الواردة في هامش مخطوط نقوماخيا الذي ننشره هنا، وقد أوردناها بكاملها في الهامش عند مواضعها».

وبقيت منه ترجمة عبرية نشر منها Berman الفصل الرابع The hebrew versions of book four of Averroés Middle Commentary on the Nicomchean Ethics - jerusalem 1981

هذه هي الشروط التي يجب أن تتوفر في الملك الفيلسوف وحارس المدينة والمدينة نفسها. فهل تمثلت هذه الفضائل كلها في هذه العناصر كلها في دولة الموحدين وفي غيرها من الدول الاسلامية إذ ذاك ؟

خبَرَ ابن رشد الحكم إيامه، وخبر الحكم الاسلامي عامة منذ الخلافة الاسلامية حتى عصره هو. وما كانت نماذجه تغيب عنه، وهو يعرض أنواع الحكم التي عرضها أفلاطون في جمهوريته، فمثلا عندما عرض أفلاطون إلى الحكم الديمقراطي، أضاف ابن رشد : «وتبيَّن ذلك من حكم الجماعة (الديمقراطية) الموجودة في أيامنا، وذلك لأنه كثيراً ما يتحول [هذا الحكم] إلى الغلبة، مثال هذا السيادة الموجودة في أرضنا هذه، أعني قرطبة بعد الخمسمائة [1106]، فبعد أن كانت دمقراطية (حكم الجماعة) تغير فيها الأمر بعد 540 / 1145، فأصبحت دولة دكتاتورية (حكم غلبة)». (ص 96 / 235).

وكالنموذج الذي قدمه عن دولة المرابطين حيث يقول : «وبالجملة فتحول الرجل صاحب الطموح إلى محب للمتعة أمر بين من تهافته على المتعة والثروة وباقي الملذات الاخرى، وأمر المدينة ذات الحكم الطموح، شبيه بأمر المدينة المائلة إلى المتعة، وذلك لأن المدينة ذات الغنى والمائلة إلى المتعة من جنس واحد».

«وكثير من الملوك الذين رأيناهم يصيرون إلى مثل هذا، مثال ذلك في هذا الزمان، ملك هؤلاء المنبوزين بالمرابطين، إذ كانوا يعتمدون الشرع أيام رأس دولتهم، ثم تحولوا أيام بنيه إلى ذوي طموح وتطلع، مع ميلهم إلى حب الثروة، ثم صار الأمر مع حفيده إلى غلبة الشهوة في كل شيء، أما الملك الذي أتى عليهم إذ ذاك، فهو أشبه ما يكون بالحكم الذي اتبع ما اقتضاه الشرع» (ص 92 / 227).

وكانت تجربة أبي الوليد وخبرته واضحة في عرضه منذ أوله إلى آخره، حيث كان دائماً يردد : «كما هو عليه الحال عندنا «أو» كما في هذه الجزيرة «أو» كما عند هذه الأمم» (ص 63 / 180 — 181 64 / 182 — 183 65 / 184 70 / 191 — 192 — 82 / 211 86 / 216 89 /223 92 /227 96 / 235 103 /247).

وبعد تأمل عميق، علم ابن رشد أن ما كان يطمح إليه لم يحدث، وعندها عزم على أن يقوم بالمسؤولية التي حتمها عليه العقل نحو الأمة الاسلامية، وأمته، والتدبير لأمور أهله وزمانه. فقد علمته مهنته الطبية أن مسؤولية الطبيب تتمثل في معالجة المريض دون أي اعتبار. ووجد نفسه يمثل شيخ المدينة وفيلسوفها وحارسها. إذ لا تنقصه الشجاعة ولا تجذبه الثروة. كما قال فيه ابن الأبار : «وتأثلت له عند الملوك وجاهة عظيمة لم يصرفها في ترقيع حال ولا جمع مال، إنما قصرها على مصالح أهل بلده خاصة، ومنافع أهل الأندلس عامة»[13].

(13) تكلمة ابن الأبار عن رونان، ابن رشد، ص.328

فهو إذن حارس المدينة مسؤول عن حمايتها من أعدائها في الخارج، ومسؤول عن حمايتها من الداخل ضد الذين يرفضون الفضائل المذكورة. فالاصلاح مسؤوليته وتغيير الواقع ضروري كما جاء في كل الشرائع : «وفي شريعتنا الالهية، إذ الطريق إلى الوصول إلى الله تعالى — كما يقول — اثنتان : واحدة باللسان وثانية بالحرب». (ص 26 / 119).

ووظيفة حراسة ابن رشد اتخذت وجهتين : الوجهة الاولى، حفظ الناشئة والانسان في جسمه، (فهو طبيب). وفي عقله ونفسه، (فهو فيلسوف). والوجهة الثانية، التذكير بالصفات التي افترضها أفلاطون في الحاكم وذوي السلطان. إذ يجب أن تكون هذه الطبقة كاملة في كل أنواع الكمالات الانسانية. (ص 23 /44) وإذا تعذر هذا، فعلى الفيلسوف الحارس أن ينهض بمهمته بواحدة من الاثنتين. فأبو الوليد في ذات الوقت، يمثل شيخ المدينة، تبعا للوصف الذي ذكره أفلاطون. وهذا الوصف هو اكتساب حنكة الدهر، مع الاطلاع على العلوم النظرية. إذ عمل الشيخ كعمل الطبيب، لا يكون كاملا إلا عندما يتمرس بقواعد الصناعة التي تخرج عمله النظري إلى التطبيق بالتجربة. (ص 25 / 116).

فما الذي توصل إليه تشريح هذا الطبيب لمجتمعه مجتمع الاندلس ومجتمع الموحدين ؟

لاحظ أبو الوليد أن الحاكم تخلى عن مبادئه العقلية، وأن مسؤولي الدولة ومن بينهم الفقهاء ومدعو الفلسفة اتخذوا لهم موقفاً من العلم والعقل، وأن أفراد المجتمع لم يلتزموا بالصنعة الواحدة، وأنهم انساقوا وراء الفقهاء، وأغراهم من أظهر منهم العلم(14). فالتزم أبو الوليد بإصلاح الدولة لعله يهيّء لبناء المدينة الفاضلة، غير أنه وجد معاندة عنيفة لا تمثل النكبة فيها كما قلنا، إلا ذروتها. وتوضح تواريخ بعض كتب ابن رشد هذا الصراع مثل تلخيص جمهورية أفلاطون الذي ألفه سنة 572 / 1177. وفصل المقال الذي ألفه سنة 574 / 1178. والكشف عن مناهج الادلة الذي ألفه سنة 575 / 1179. وأخيراً تهافت التهافت الذي ألفه حوالي 577 / 1180. وما زالت هذه المؤلفات في أصلها العربي إلا تلخيص جمهورية أفلاطون، فقد ضاع أصله العربي، ولم تبق منه إلا ترجمته العبرية(15).

(14) خبر أبو الوليد العامة عندما تحمل مسؤولية القضاء، وقد كانت مسؤولية ثقيلة كما عبر عن ذلك في مؤلفاته التي ألفها بعد سنة 566 / 1170. (مونك ص 422 — 423) وقد عانى من هؤلاء أيام محنته أيضا، يقول : «... أعظم ما طرأ علي في النكبة، أني دخلت أنا وولدي عبد الله مسجداً بقرطبة، وقد حانت صلاة العصر، فثار لنا بعض سفلة العامة، فأخرجونا منه (الذيل والتكلمة السفر السادس ص 26).

(15) نشر Resenthal النشرة المشار إليها سابقاً

באור בן רשד לספר הנהגת המדינה לאפלטון

ولم يبلغ روزنطال مرامي النص، وفهم من بعض فقراته ما لم يرده ابن رشد. والواقع أن بالنص صعوبات، لا شك أن الكثير منها كان أصلًا في الترجمة العبرية، كما لاحظنا ذلك في غير هذا النص. وقد كتب شلموه Pines مقالا نقديا لهذه الترجمة، فعرض لكثير مما وقع فيه روزنطال : לחקר תורתו המדינית של אבן רשד

في موضوع فكر ابن رشد السياسي — نشر بمجلة : עיון כרך ח , ב ירושלים ניסן תשי"ז

[عيون الجزء الثامن القسم الثاني القدس أبريل 1957] ص 65—34. وأعاد الترجمة Ralph Lerner

Averroés on Plato's «Republic» CORNELL University ،1974

وفي اعتقادنا أن هذا الكتاب كان أكثرها إثارة للفقهاء وللحاكمين والخاصة والعامة، لأن مؤلفه كان يمثل موقفاً سياسياً خرج عن العرف العام، ورام التغيير والاصلاح في كل شيء، في الحكم والتعليم والسلوك. ولا نستبعد أن يكون هذا الكتاب هو أكثر كتبه عرضاً لآرائه السياسية، وأنه هو السبب في نكبة ابن رشد. وسنقتطف منه نماذج تمثل نقده لواقع الحال، لعلنا ندل به على ما نريد :

1 ــ نقده للمتكلمين : عندما تحدث أفلاطون عن المحاكاة القبيحة، وعدد أمورها، أضاف ابن رشد : «ونحن كذلك نرى رأيه هذا، ونذكر المشهور منها عندنا فنقول : إنه من هذه المحاكاة القبيحة، كما تبين من العلوم النظرية، ما تجري به العادة عند الناس بأن يقولوا : إن الله هو علة الخير والشر، في حين أنه غاية الخير، لا يفعل شرا في زمان من الأزمان، ولا يكون علة له. وقول المتكلمين في هذا من أهل زماننا أن الخير والشر لا يتصور في حق الله تعالى، بل كل الافعال التي تنسب إليه خير. فهو قول سفسطائي بين السقوط بنفسه، اذ عليه ما كان ليكون للخير او الشر طبع محدد بنفسه ولكن سيكون كل منهما بوضع (ص 126/30)[16]

2 ــ وينتقد مناهج التعليم، فعندما حذر أفلاطون من إسماع الأطفال الحكايات الكاذبة غير الواقعة، قال ابن رشد : «ونحذر كما يقول أفلاطون، من أن نعود نفوسهم سماع الأقاصيص السافلة، أكثر مما نحذر من إصابة أجسامهم بالثلج. (ص 30 /126).

ولا شك أن ابن رشد يلمح هنا إلى طرق التعليم السيئة لدى بعض الفقهاء. وشتان بين منهجه هو وهذا المنهج، كما يتضح من تعقيبه على أفلاطون الذي يضع على رأس تعليم حراس المدينة، العدد والهندسة والهيئة والموسيقى والمناظر والاوزان والطبيعة وما بعد الطبيعة. فأبو الوليد يضيف : «هذا ما يعتقده أفلاطون في ما يجب أن يبدأ به التعلم، وإنما أعتقد ذلك لأن علم المنطق لم يكن موجوداً إذ ذاك، أما وهو الآن، فمن الأصوب أن نبدأ بتعليم علم المنطق، ثم بعد ذلك نتبعه بعلم العدد. (ص 76 ــ 77 /201 ــ 202)

3 ــ كما يحارب الخرافة لما لها من أثر سيء في الناشئة يقول : «لا يجب أن نعلم النشء أن هناك جنونا تهدم الجدران على الناس، ولا يحيل بينهم وبينهم أي حائل، وأنهم يَرون ولايُرون، ويوجدون أينما يريدون، وأنهم ينتحلون ما شاؤوا من الصور. إذ قد تمنع هذه الوليد من أن يكون جندياً قويا، وتنمي الخوف في قلوب الناشئة، وكذا الأمر في الملائكة. (ص 30 ــ 31 / 126 ــ 127)

4 ــ وينتقد بعض انواع الشعر العربي انتقادا مرا، فكما أن أفلاطون لا يحبذ بقاء الشاعر في مدينته حيث يقول : «وعلى ذلك فإن ظهر في دولتنا رجل بارع في محاكاة كل شيء وأراد أن يقدم عرضا لاشعاره على الناس، فسوف ننحني تبجيلا له، وكأنه كائن مقدس معجز رفيع، إذ ان

(16) انظر كذلك نقده المتكلمين في موضوع الغاية (ص 66 /186)

القانون يحظر ذلك، وهكذا سنرحله بعد أن نسكب على وجهه العطر، ونزين جبينه بالأكاليل، إلى دولة أخرى. إذ أننا نود أن يكون شعراؤنا أكثر خشونة وصرامة، لا يحاكون إلا أسلوب الفضلاء، ولا يسترشدون إلا بالقواعد التي فرضناها منذ البداية، حين شرعنا في وضع برامج تعليم محاربينا.» (جمهورية أفلاطون 267)(17).

كذلك الشعر عند ابن رشد أو بعض منه، يمثل خطورة على فضائل المدينة، فهو يقول: «فاعلم أن أشعار العرب مليئة بهذه الأمور الشريرة، وضرره كبير على النشء في الصبا». (ص 33 /128)، وهو محاكاة للامور الرذيلة كأشعار العرب، مما لا يلزم أن يكون في هذه المدينة. (ص. 129/34).

5 ـ وينتقد ذوي السلطان، إذ الحكم المثالي عند ابن رشد هو الحكم الذي رأته الامة الاسلامية قبل معاوية. أما ما عداه، فهو حكم كان يؤول دائما الى حكم طموح تغلب عليه الشهوة والغلبة في منتهى أمره.(ص 82 /211 214/85 86 /216).

ويصرح مرارا بأن الحكم الذي كان يعاصره هو حكم طموح. (ص 89 /223) يقول: «ويتبين لك ذلك مما استحدث من الملكات والأخلاق عندنا بعد سنة الأربعين، [والخمسمائة] لدى ذوي السلطان والمراتب، إذ بعد أن غلبت عليهم سيادة الطموح التي نشأوا عليها، صار أمرهم إلى النذونية التي هم عليها الآن، وثبت منهم على الأخلاق الفاضلة من تخلق منهم بطرق الشرائع الاسلامية وهم قلة. (ص 103 /247).(18)

6 ـ وينتقد العلماء ومدعي الفلسفة، هؤلاء الذي افتقدوا صفة الشجاعة والعدل، وذلك عندما يرجع أسباب عدم تحقيق المدينة الفاضلة إلى شيئين اثنين :

أ ـ عدم طاعة الفيلسوف، «إذ حال سكان هذه المدينة كحال ركاب سفينة يظنون أنهم في غنى عن الملاح الماهر» والملاح الماهر هو الفيلسوف والعالم الحق.

ـ ب بوجود مدعي الفلسفة، هؤلاء الذين لا تتوفر لهم شروط الحكمة، وعندما لا تتوفر هذه الشروط تصبح الحكمة نفسها خطرا. إذ هي كالبذرة الطيبة الجيدة، عندما لاتجد مكانا وغذاءا ملائمين، تتحول إلى شر أعظم مما عليه البذرة السيئة أصلا. وكذا حال العلماء في هذه المدينة، فمن هؤلاء الناس، تنتج الاغلاط المتسلطة على كل أهل المدينة، فتذم كل جميل مثل الحكمة وغيرها، وتمدح كل قبيح، وبالجملة كل الشرور المدنية الواقعة في المدينة. ويرى أبو الوليد أن تسلط هؤلاء ومذهبهم، هما أكبر الاسباب لضياع الحكمة وإخباء نورها. وعندها تتعطل فضيلة العالم، بل يصبح أكثر ضررا على الحكمة، ويميل إلى الملاذ والاعمال القبيحة من ظلم وقسوة ميلا، إذ ليس له

(17) فؤاد زكريا جمهورية أفلاطون، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1985 ص.267

(18) نفهم من البحث الجيد لجمال الدين العلوي، المتن الرشدي، أن ابن رشد صادف المجتمع المثالي في عصر الموحدين، ويتبين من هذه الاشارة أن ابن رشد لم يرض كل الرضى عن العصر كله، انظر المتن الرشدي ص 218 ـ 219، 232 ـ 233، 239.

في نفسه فضيلة تمنعه من هذه الاعمال، فلا يصدق في قوله، ويصبح خطابه غولا يرهب الناس. ويكون عارا على الحكمة وسببا في هلك الكثير ممن هم أهل لها : «كما هو عليه الحال في زماننا». (ص 64 /182).

ولا يفوت أبو الوليد هنا، أن يبين لنا حاله هو في هذه التربة يقول : «وإذا وقع ونشأ في هذه المدينة، الفيلسوف الحق، كان حاله كحال إنسان وجد نفسه بين حيوانات مفسدة، فهو لا يستطيع أن يفعل فعلهم، وهو غير آمن على نفسه من هذه الحيوانات (ص 64 ــ182)»(19)

وتتجلى جرأة ابن رشد في تلخيص جمهورية أفلاطون في موضوع المرأة، حيث يرى أن النسوة هن مثل الرجال في النوع وفي غاية الانسانية بالضرورة، فالطبع واحد. وهذا يؤدي إلى العمل الواحد في المدينة، وعليه فعلى النسوة أن يقمن بنفس الاعمال التي يقوم بها الرجال، ثم يقول : «وإنما عَمِّي عن كفاية النسوة أنهن اتخذن للنسل فقط وخدمة بعولتهن، ووضعن موضع التوالد والنشء والرضاع، وكان هذا مبطلًا لعملهن. ولما حرمت النسوة مشاركة الرجال في الفضائل الانسانية، كان الكثير منهن شبيها بالنبات، وكن عالات على الرجال، فإنهن لايقمن بالاعمال الضرورية، بل يقمن بأعمال غير ذات أهمية تملأ الفراغ كالنسيج والغزل. (ص 54 /166).

هذه أمثلة من جرأة ابن رشد في تلخيصه هذا، غير أننا نعتقد أن شرح الكتاب من حيث هو، يعتبر جرأة ما بعدها جرأة. إذ لم يتحرز ابن رشد من عرض أكثر أموره إثارة للمجتمع، بما في ذلك المجتمع اليوناني نفسه،(20)، فضلا عن مجتمع كانت فيه الكلمة العليا للفقهاء، وأعني بذلك عرضه رأي أفلاطون في وضع المرأة في مدينته الفاضلة هذا الوضع الذي يسوي المرأة بالرجل في كل شيء، حتى في تروضها عارية الجسم تماما. وفي كونها مشاعة بين الجنود دون أن تستقل برجل واحد، فهي لهم جميعا. وفي شيوع الأطفال، هؤلاء الأطفال الذين من فضائلهم أن لا يكون لهم نسب معين ينسبون إليه. وفي اختيار المرأة والرجل بالقرعة الصورية التي لا يعرف أسرارها إلا الحكام. وفي تنظيم النسل واختياره ليكون في خدمة الأمة وطوع متطلباتها. (ص 55/ 168).

لا يحل لنا بحال من الأحوال أن نقول بأن أبا الوليد كان يؤمن بهذه الأشياء أو يدعو إليها أو هو من أنصارها. ولكن نقله بالطريقة التي نقلها بها، تعد جرأة ما بعدها جرأة. وهذا ما يجعلنا نعتقد بأن الاشارة الواردة في الرسالة التي بعثها أبو يعقوب المنصور إلى أطراف الامبراطورية الموحدية، كانت تعني من بين ما تعني هذا الكتاب، إذ جاء فيها : «فلما أراد الله فضيحة عمايتهم، وكشف غوايتهم، وُقف لبعضهم على كتب مسطورة في الضلال، موجبة أخذ كتاب

(19) كأن ابن رشد تنبأ بنكبته التي حدثت بعد تلخيصه هذا بثلاث وعشرين سنة، إذ ألف التلخيص سنة 572 ونكب سنة 595.

(20) فؤاد زكريا، جمهورية أفلاطون، ص 333 ــ 337 و343.

صاحبها بالشمال»[21]، بل مما يؤكد ادعاءنا هذا، هو ضياع الكتاب أصلا في لغته العربية، بل لم يذكره ممن ترجم إلى أبي الوليد الا صاحب الذيل والتكملة[22]، وبرنامج ابن رشد[23].

وختاما، هل يحق لنا أن نضع هذا السؤال : إذا كان ابن رشد رجل سياسة، وكان شيخا وطبيبا وفيلسوفا، فلماذا لم يضع هو نفسه كتابا خاصا به في هذا المجال وأكتفي بشرح أخلاق نكوماخ وجمهورية أفلاطون ؟[24].

نعتقد أن ابن رشد فضل أن يختار نموذجا انسانيا سابقا، لأنه يريد أن يفيد من تجربة أمة اليونان، وقد أعجب بفيلسوفها أرسطو، ومن ورثهم أرسطو. ونعتقد أيضا أنه قصد أن لا يكون له مؤلف خاص في الموضوع، لأن وضع كتاب فيه، يعني تجميدا للزمان، وحكما بالنهاية على سير الدولة وتشابه التجارب. ولا يمكن أن تتمثل نظرية ابن رشد في المدينة الفاضلة أيامه، في كتاب واحد، بل يجب أن تتمثل في مجموعة متكاملة من التجارب الانسانية والنواميس الالهية. وكانت مؤلفاته هي هذه المجموعة الموسوعة. فقد جمعت من تجربة اليونان حكمة وعلما، وأخذت ممن سبقه من فلاسفة الاسلام تبنيا أو اصلاحا أو نقدا. واعتمدت الكتاب والسنة مسلكا وطريقا. وهذه جميعا سبل يختار منها كل ممن في المدينة حسب قدرته وهواه. وكلها تعالج الروح والبدن[25]. وما على أبي الوليد إذا انتقده الناقدون، لأنه اختار أن يكون الفيلسوف الطبيب، بل اختار التضحية، لأن الأذية والموت في سبيل المدينة، كما يؤكد أفلاطون، مدعاة إلى الفخار، ومجلبة للسعادة والانتصار[26].

لقد خبر ابن رشد أنواع الحكم والسلطة والقرار عمليا بتوليه القضاء والمسؤوليات مرارا، وباستشارته وطلب مشورته. وخبر أحوال الناس فيهم، وفي تاريخهم وفي فكرهم. وتوصل إلى أن التحول هو سنة الحياة، وأن الأمور لا يقر لها قرار. لذلك آمن بأن الشجاعة والاعتدال وقول الحق للحق، هي المسلك الحق. وأن تحمل المسؤولية ضرورة من ضرورات الشجاعة والاعتدال. وأن من طبيعة الحياة أن يتعرض صاحب العقل الحصيف العادل إلى أذى الناس. ولكن عليه أن لا يخضع لهذه الحال، لأنه إذ ذاك يكون كحال المستسلم، «فيدبر في توحيده» أو يفر إلى جزيرة خالية ليس

(21) أنظر الرسالة التي بعثها حفيدة في هذا الشأن، الذيل والتكملة، السفر السادس ص 26.

(22) الذيل ص 23

(23) برنامج ابن رشد، رونان، ص 350.

(24) شرح ابن رشد أخلاق نقوماخ، وكان يعتقد أن آراء أرسطو السياسية متضمنة في آخر هذا الكتاب، وعلم بوجود كتاب سياسة أرسطو، إلا أنه لم يصل الغرب الاسلامي. ويتساءل Pines هل كانت هناك ترجمة عربية لكتاب السياسة في العصر الوسيط ؟ (عيون ص 65).

(25) أنظر الفصل الرابع من المتن الرشدي : مسار المشروع الرشدي، ففيه يربط المؤلف أنواع كتابة ابن رشد وزمانها ومراجعتها بالنظرة الاصلاحية التي اختارها أبو الوليد لبلوغ الكمال الانساني، وطبيعي أن المدينة الفاضلة هي قمة هذا الكمال.

(26) فؤاد زكرياء، الجمهورية، (ص 360 — 361).

فيها إلا «ابن يقظان». وهذا أمر مرفوض عند ابن رشد، لأنه «يحرم الكمال الخيّر الذي لا يبلغه [الفيلسوف] إلا في المدينة الفاضلة التي وصفناها» (ص64/ 182).

فهل ظل اعتقاد ابن رشد في هذه المدينة قائما ؟. نعتقد أن نعم، ما دام يؤمن بأن التحول سنة ثابتة جارية، يقول بعد أن عرض للشروط المؤدية إلى نشوء المدينة الفاضلة، والظروف المساعدة على هذا النشوء سريعا كما يراها أفلاطون : «واعلم أن ما ذكره أفلاطون هو الوجه الأفضل في نشوء المدينة، غير أنه يمكن أن تنشأ على غير هذا الوجه، ولكن **في زمان أطول** وذلك بأن يتولى أمورها ملوك فضلاء، يتولى الواحد منهم بعد الآخر دون انقطاع في متابعة التغيير خطوة خطوة، حتى تؤول هذ المدينة في آخر المطاف إلى مدينة فاضلة خيّرة، ويكون التغيير والتأثير بالطريقتين معا، أعني بفعلهم [الملوك] وعملهم، وإيمانهم [ويكون قصر المدة وطولها] تبعا لما يعترضهم من عراقل، كما جرت العادة في كل زمان زمان، وتبعا لقربهم من شروط هذه المدينة أو بعدهم عنها. ويكون تغييرهم وتأثيرهم على الأغلب، بالأعمال الفاضلة أكثر منه بمعتقداتهم الخيّرة في هذا الزمان» (ص 79/ 206).

وهذه خلاصة التجربة الرشدية : **التغيير والاصلاح بالأعمال الفاضلة، لا بالمعتقدات الخيّرة**

bien-être de la ville. Les superficies irriguées avaient triplé et on a pu atteindre 15.000 hectares de terres irriguées dans l'entourage de la ville [20]. Les ouvrages des anciens chroniqueurs qui vantent le développement de l'agriculture haouzienne sont nombreux. On en retiendra que la plantation de l'olivier tenait une place capitale. Au sein de ce développement agricole, deux éléments essentiel méritent d'être relevés. Celui de la création et la prolifération des pressoirs à l'huile, dans la ville de Marrakech, depuis déjà les Almoravides, ainsi que le rapporte G. DEVERDUN, ces pressoirs à l'huile se trouvent "aujourd'hui près de Bab El-Khémis (alias Bab Fès) où une rue porte un nom évocateur, "Byn L-M'aser" (entre les pressoirs)" [21]. Le deuxième élément est celui de la commercialisation de l'huile d'olive haouzienne, à travers des régions qui dépassaient le cadre régional, pour se vendre à Fès et dans les autres pays du Maghreb, comme l'avance El-Fazari. Faut-il établir une correlation entre la présence de ces presoirs dans l'enceinte de la ville, l'extension spatiale des plantations de l'olivier dans la plaine du Haouz, la large commercialisation de l'huile d'olive, et chercher, en fin de compte, derrière toute ces activités, une responsabilité de la cité ? On est en droit de l'avancer.

Plusieurs éléments permettent de répondre par l'affirmative : en effet, ils s'intégraient dans la politique globale menée par le pouvoir central. Les efforts entrepris par les Almohades pour résoudre le problème de l'eau dans la plaine avec l'extension du système des khettara, avaient permis, comme on l'a déjà noté, l'irrigation de 15.000 hectares de terres cultivées essentiellement en oliviers. Une telle extension avait sans doute poussé à la création et à la multiplication des pressoirs à l'huile dans la ville. D'autre part, la construction de plusieurs nouveaux foundouks[*], afin d'emmagasiner la production destinées à l'exportation ainsi que la vente de l'huile d'olive sur les marchés maghrébins, sont suffisamment explicites à cet égard. El l'on pourrait voir une certaine monopolisation de la production d'olives, son industrialisation et sa commercialisation par la ville. C'étaient les membres forts du pouvoirs central — capables par leur puissance politico-militaire d'imposer les grands travaux hydraulique — et les grandes familles commerçantes — capables par leur richesse et leur expérience de contrôler le commerce — qui étaient les véritables détenteurs de cette activité.

Parallèlement à cette spéculation qui devait être d'un apport important pour ceux qui la contrôlaient, la campagne était assujetie à de lourds impôts qui devaient soutenir le train de vie des notables de l'Etat et des membres de la famille impériale. Les représentants du Makhzen à la campagne ramassaient d'énormes fortunes dans les provinces sous leur contrôle afin de bâtir de grandes et luxueuses demeures dans Marrakech et mener un train de vie semblable à celui des autres notables de la ville [22].

(20) Idem. p. 75

(21) Gaston DEVERDUN, **Marrakech des origines à 1912**, cit. p. 135

(*) Ce sont des entrepôts pour des marchandises destinées à l'exportation ou importées.

(22) OMARI, trad. 188, cf. QALQASHANDI, **Subh Al-A'sha**, V, 61.

avec leurs bassins d'eau remontent à cette époque. L'Istibsar nous apprend que le deuxième Khalif Almohade "fit installer des buhayrats destinées à servir de lieu de plantation, aussi beaux sinon davantage que les premiers jardins" (14). Le mouvement d'afflux des populations de l'extérieur fut beaucoup plus intense que sous les Almoravides, et la ville attira les masses humaines de toutes les contrées. Bayan rapporte que, vers la fin du règne d'Abou Yacoub Youssouf, les habitants d'Espagne, les tribus Haskoura, les Sanhaja et plusieurs autochtones quittèrent leur pays et vinrent habiter la ville de Marrakech. On ne peut guère estimer même de façon globale et indicative, le nombre de personnes ou de familles drainées vers la ville ou sa région.
Mais il était sans doute impréssionnant, à tel point que Marrakech était devenue trop petite pour une population de plus en plus croissante, qu'un logement était difficile à trouver, qu'il n'y avait point de terrains à bâtir (15), et que le Khalif Abou Yacoub Youssouf fùt obligé d'agrandir la ville (16). La population que recevait la ville était formée de catégories socio-professionnelles très hétérogènes, comprenant des propriétaires fonciers. En effet, "La fonction politique de la ville, devenue métropole d'un empire, créa un foyer d'appel : ouvriers, artisans et commerçants accourent à Marrakech, de toutes les contrées. Le nombre de fonctionnaires, augmenta, les riches propriétaires terriens y eurent un pied-à-terre et le rythme de construction s'accentua sans cesse" (17). Il est impossible de connaître le nombre de ces propriétaires terriens, ni d'estimer l'extension de leur domaines ruraux, mais ils devaient jouer un rôle important dans les mutations du paysage agraire de l'arrière pays de Marrakech. Par ailleurs, le géographe arabe, contemporain des Almohades, El Fazari avait noté l'intérêt que manifestait le souverain Abdel Moumen pour l'établissement des plantations dans la banlieue marrakchi, en écrivant que cette dernière"... fut restaurée par l'émir des croyants, le Khalif Abdel Moumen, qui amena de l'eau, y planta des jardins, des parterres et des vergers. Tout autour sont les oliviers qui fournissent l'huile qu'on envoie à Fès et dans les autres pays du Maghreb (18)"

En effet, les Almohades avaient compris que la prospérité de la ville, et celle de la région ne pouvait se faire sans un aménagement hydraulique spéctaculaire. Aussi le pouvoir central imposa la paix et immobilisa des milliers de journées de travail des paysans (19), afin que les travaux hydrauliques qu'il décida aboutissent. Ainsi, l'essentiel du réseau des khéttara qui caractérisent aujourd'hui le Haouz central fut-il instauré par les Almohades. Ce progrés fondamental dans le système d'irrigation était décisif pour l'activité agricole du Haouz et le

---

(14) Kitab Al-Istibsar, anonyme, l'Afrique septentrionale au XIIe siècle

(15) IBN IDARI, **El Bayan Al-Maghrib,** op. cit, I, 57-58

(16) Abdel Wahed AL MOURRAKOUCHI, **Al-Mujib,** trad. 154.

(17) Gaston DEVERDUN, **Marrakech des origines à 1912,** op. cit. p. 297

(18) EL FAZARI, Djarafyah (géographie), Description de la sixième zone du monde habité comprennant le Maghreb El-Aqça, dans **Documents sur l'Afrique septentirionale,** trad. René BUSSET (1898), Manuscrit D, B. Nationale, Paris, pp. 26-27.

(19) Paul PASCON, le **Haouz de Marrakech,** op. cité, t. 1 p. 75 .

dans la campagne haouzienne, ne peut se faire sans irrigation et tout effort dans le développement agricole impose un progrés dans les systèmes d'irrigation. Le problème de l'eau devait se poser avec acuité aux Almoravides, aussi bien pour la ville que pour la campagne. C'est pourquoi on fit venir Abd Allah Ibn Yunus, le nommé Almohandis, L'"ingénieur", à Marrakech, et on décida de la construction des khettara dans le voisinage de la ville. Ce qui avait permis l'alimentation de la ville en eau, l'irrigation des vergers qui l'entouraient et l'extension spatiale des terres irriguées. Cet effort pour coloniser de nouvelles terres cultivables, avait abouti finalement à l'irrigation de 5000 hectares (10). Le nouveau système d'irrigation fut vite saisi par "Les riches propriétaires de terrains cultivables qui s'empressèrent d'adopter ce procédé merveilleux pour la conquête végétales du sol" (11). Ce qui renforca les transformations dans le paysage rural de l'environnement de la ville. Aussi pourrait-on voir ces "riches propriétaires de terrains" des citadins de Marrakech. Ils étaient constitués essentiellement d'immigrés Masmouda. Ces anciens agriculteurs avaient, en effet, afflué vers la ville, après la nouvelle polarisation qu'avait connu la région. D'autres raisons paraissent expliquer ce fait. D'abord le désir des Almoravides de maintenir sous leur contrôle les Masmouda, et surtout les membres les plus influents d'entre eux, ensuite l'attachement des Masmouda aux travaux de la terre. Il y avait en effet, entre les Masmouda et les Almoravides, une certaine division du travail. Ces derniers, anciens nomades" ... se livrèrent à un trafic fructueux entre l'Espagne et le Niger (Tandis que) Les Masmouda choisirent le travail du sol, aux techniques ancestrales (12) Ibn Idari avait également remarqué que les deux tribus avaient gardé, chacune de son côté, ses anciennes habitudes, tout en habitant dans la même ville (13).

Les grands travaux hydrauliques ne pouvaient se faire sans le contrôle d'un pouvoir central fort et capable de mobiliser un grand effectif humain. On comprendra, dès lors, que les membres influents du pouvoir, les riches commerçants, les membres de la famille impèriale se soient taillés vergers et jardins dans la banlieux de la ville. La fonction primordiale de ces jardins n'était guere de rapports, ils étaient d'abord des lieux de divertissement et de récréation. Et de ce fait, l'approvisionnement de la ville en matières agricoles était affecté aux paysans sédentaires de la banlieue.

B- Les efforts Almohades (1147-1269)

La période almohade fut heureuse pour la cité et sa région, et particulièrement pour le secteur agricole et le développement des moyens d'irrigation. Les jardins suburbains se multiplièrent et le mouvement de l'appropriation des terres par les citadins prit une plus grande importance. Les célèbres jardins de Marrakech, le Minara et l'Agudal,

---

(10) Paul PASCON, LE **Haouz de Marrakech,** op. cit, t1, p. 75.

(11) Gaston DEVERDUN, **Marrakech des origines à 1912,** op. cit. t1, p. 88

(12) Idem, p. 79.

(13) IBN IDARI, El-Bayan Al-Mughrib, **Histoire de l'Afrique et de l'Espagne,** trad. E. FAGNAN, Alger, 1901-1904.

dement attachées à toute politique de mise en valeur agricole de la région, décidée et soutenue par la ville. Et si la présence de Marrakech, dans son voisinage rural, se faisait sentir depuis sa création, d'une façon évidente et ostentatire, surtout dans le secteur agricole, on a souvent écrit que Marrakech a toujours été une grande cité provinciale aux quartiers et à populations fortement marqués par un aspect rural et compagnard.

II- Dès sa fondation Marrakech a créé ses propres jardins suburbains.

A- Les tentatives Almoravides.

On serait tentés de croire que les Almoravides, en fondant leur capital, étaient indifférents à la terre du voisinage de la cité nouvellement construite. En effet, ces nomades, grands éleveurs chameliers, qui avant leur sédentarisation ne manifestaient guerre de plaisir pour l'appropriation des terres et moins encore pour les travaux agricoles, et en éprouvaient même un certain dédain, avaient ; au contact des Masmouda, habiles agriculteurs, et de la civilisation andalouse, très vite acquis une mentalité qui se repercuta sur la ville et sur son voisinage rural. Quelques décennies seulement après son établissement, Marrakech s'est entourée de buhayrat et de jnanat [7] éminemment citadines. Ses premiers grands vergers extro-muros étaient déjà nés. Les buhayrat situées à l'est de l'oued Issil étaient de construction Almoravide. Sous le règne de Ali ben Youssouf (1106-1143), profondement marqué par la civilisation hispanomauresque, Marrakech qui n'avait qu'un seul jardin, eut bientôt un grand parc, sur sa façade-sud [8]. Il s'agit du Jnan Essaliha, du nom de la sœur du souverain.

En moins d'un siècle, la ville a réuni sous son commandement le Maghreb et l'Espagne musulmane. Elle s'aggrandit et se peupla davantage. Les commerçants d'Aghmat-Ourika, détronés par la cité naissante, y affluèrent, les Masmouda, les habitants de l'Espagne et du Maghreb étaient de plus en plus fascinés par la ville. Toute cette population, ainsi que la présence du souverain et de sa cour exigeait de la campagne fruits, légumes, céréales, viande et bêtes de montures, ceci favorisa les échanges entre les citadins et les ruraux et stimula l'agriculture intensive dans le voisinage rural de la ville. Cultures maraichères, et arboricoles se développèrent et s'étendirent dans les espaces irrigués. Ibn Saïd écrivait à cet égard que Marrakech : "est entourée aujourd'hui d'arbres de toute sorte" [9]. Mais l'agriculture intensive,

---

(7) Ce sont des vergers ou jardins qui se situent dans l'immédiate banlieue des anciennes villes marocaines. Ils appartiennent à des citadins qui confient leurs exploitations aux metayers. On y pratique essentiellement une agriculture irriguée, notamment l'arboriculture fruitière, dominée par l'olivier, les cultures maraichers, les légumineuses dans les parties bénéficiant d'eau d'irrigation perenne. Les propriétaires citadins y viennent, de temps en temps pour se divertir, et au moment du partage de la récolte.

(8) EL-IDRISSI, **La Géographie d'El-Idrissi,** trad. A. JAUBERT, 1936, Recueil de voyage et mémoires.

(9) IBN SAÏD, **El-Gharnati Ali Ben Moussa,** trad. FAGNAN, extrait, p. 5

C'est au milieu de cette plaine, mais un peu au nord, à quatre kilomètres de l'oued Tensift, et à proximité de l'oued Issil à l'est que les Almoravides avaient, en 1070, choisi de bâtir leur nouvelle cité, à 470 mètres au dessus du niveau de la mer, par 31° 37' 35" de latitude et 7° 59' 42" de Longitude. Et l'on ne marquera pas de remarquer que ce site frappe par le contraste saisissant entre une montagne élevée, massive, compacte, aux sommets souvent neigeux et une plaine aride, poussiereuse où l'eau est rare et la verdure génératrice d'air frais par trop recherchée, aussi bien par les hommes que par les bètes, pendant les étés torrides, longs et accablants.

Ce site pauvre en ressources naturelles, contrairement à sa position, n'a pas joué un rôle primordial dans le développement et la prospérité que connaîtra bientôt la ville. Celle-ci devenue, en effet, en l'espace de trois générations, la capitale d'un vaste empire s'étalant sur l'Espagne musulmane et le Maghreb et s'est affirmée un centre de rayonnement commercial et culturel dépassant largement le cadre de son empire. Comme le démontre Gaston DEVERDUN, ce n'est pas au site que revient cette réussite, mais à tout le conteste géographique régional qui a favorisé les échanges entre la plaine et la montagne, dans le cadre d'une économie complémentaire et dynamique : "plaine privée de bois et de charbon, montagne manquant de blé et d'objets manufacturés, steppes dépourvues de tout ce qui n'est pas produit de l'élevage, vont établir des courants d'échange qui permetteront à chacune d'elles de se procurer ce qui lui manque pour vivre" (5). C'est Marrakech qui canalise et organise cette activité sous le commandement des Almoravides, familiers du commerce. L'ancien réseau routier converge de toutes parts vers la région, facilite et favorise la nouvelle polarisation de l'espace régional par Marrakech, qui a détrôné les ex-centres commerciaux du Dir : N'Fis, mais surtout Ourika Aghmat qui fut ruinée complètement.

Aussi devons-nous rappeler que le choix de ce site n'était point imposé par des considérations économiques, mais par une raison essentiellement stratégique. Celle de prendre une distance assez importante par rapport au Haut Atlas dans le but de contrôler les déplacements des Masmouda, qui leur manifestaient de farouches appositions (6).

A partir de ce site, Marrakech avait progressivement colonisé les espaces qui l'entouraient. Elle avait créé un monde rural et une campagne qui lui sont restées fidèlement liées à travers toute son histoire. Cet entourage créé, façonné et structuré essentiellement par la ville, étendu, rétréci, ou avait stagné aussi bien dans le temps que dans l'espace, suivant les vissitudes historiques régionales et le climat politique et économique général du pays. Cependant, l'extension spatiale de l'agriculture haouzienne et son développement n'ont pu se faire que grâce aux progrés des techniques de l'irrigation. Celle-ci sont profon-

---

(5) Gaston DEVERDUN, **Marrakech des origines à 1912**, Rabat, t1, textes, 1959, 610 p, tII, sources, index, 1966, 110p. 112 pl et photos, p 23.

(6) Gaston DEVERDUN, **Marrakech des origines à 1912**, op. cit. pp. 52-53.

connu [4]. Plus au nord, et à l'intérieur, la rivale historique de Marrakech, Fès, située au pied du plateau central, est éloignée de 530 Km les caravanes commerciales, les voyageurs et les déplacements des souverains ont souvent emprunté la route impériale longeant le Dir de l'Atlas, par le Tadla, entre Fès et Marrakech.

Cette position qui, à la création de la ville avait favorisé son développement et son épanouissement économique, s'est beaucoup dévalorisée actuellement, par suite de l'occupation successive des ports atlantiques, dès le XVIème siècle, qui avait entraîné la perte progressive de l'indépendance économique du pays et entravé le développement endogène et dynamisant de la ville. En 1912, la perte de l'indépendance politique et la division coloniale du pays, en Maroc "utile" et Maroc "inutile", désorganisèrent l'ancien système urbain "inutile", désorganisèrent l'ancien système urbain qui était fondamentalement articulé sur la société marocaine et orienté vers l'intérieur du pays, sans être coupé de l'étranger. La colonisation a crée ses propres pôles d'attraction sur l'Atlantique, caractérisés par un système urbain tourné vers l'extérieur est volontairement extravertis. Ce changement dans l'orientation du système urbain marocain constitue désormais la toile de fond, sur laquelle se tissent les relations entre Marrakech et son hinterland.

B- **Le site**

Le Haouz central et la ville au cœur de la plaine, s'étendent au pied du relief montagneux le plus élevé du Maroc et de toute l'Afrique du Nord. Le Haut Atlas central, avec son sommet, le Toubkal, qui domine Marrakech, s'élève majestueusement à 4165 m. Toute la grande chaîne du Haut-Atlas renferme des sommets dépassant 3500 ou 4000 m, et mérite bien le nom que lui avaient attribué les chleuh, habitants de ces montagnes, Adrar N'Daren, c'est-à-dire, "la montagne des montagnes", éternel refuge des souverains et des princes déchus, ou des mécontents chassés de la capitale, avant de prendre leur revanche sur celle-ci.

Au pied de ce relief élevé, s'étend la plaine du Haouz apparement plate, mais légèrement incliné du sud vers le nord et de l'est vers l'ouest. Elle semble uniforme mais sa topographie locale est compartimentée. Elle est aride et sa chaleur élevée, en été, endort et fatigue les voyageurs peu habitués. Elle prend vite un aspect joyeux pendant les journées splendides d'un printemps fatalement éphémère. Elle finit par se heurter aux Jbilete, petites chaînes de montagnes allongées de l'est à l'ouest, mais peu élevées, aux reliefs appalachiens et aux pentes raides et caillouteuses où se dispersent cactus et végétations épineuses que se disputent de sporadiques et maigres troupeaux de chèvres et de moutons.

---

(4) Sur ce sujet consulter :
— Robert ESCALIER, **Citadins et espaces urbain au Maroc,** Tours, 1981, 2 volumes, tI et II, 407p. cartes, graphiques et tableaux.
— Hubert BEGUIN, **L'organisation de l'espace au Maroc,** Bruxelles, 1974, Académie Royale des Sciences d'outre-mer.

plateaux semi-arides longtemps arpentés par les nomades. Ils sont constitués par la meseta marocaine, le plateau d'El-Ganntour et la depression de la Bhira, territoire du Rehamna, tribus pastorales, souvent decrites comme tribus turbulentes. Le Haouz et Marrakech auraient beaucoup souffert de leur insolence pendant les périodes de faiblesse du pouvoir central. Cependant c'est l'économie pastorale de ces nomades integrée dans le cadre d'une économie complémentaire et dirigée par la ville qui valorisa les plateaux d'El-Ganntour et la depression de la Bhira. Les Rehamna constituaient, en effet, les principaux fournisseurs de Marrakech en viande, beurre, laine et peau. Le développement et la prospérité de la tannerie de Dar Ed-bagh de Marrakech, doit beaucoup à la facilité de son approvisionnement en matière première aux Rehamna et à un degré un peu moindre au Doukkala et au Abda.
Jusqu'à présent la laine et le mouton des Rehamna alimentent largement la ville où ces produits sont fort appréciés. Le sud semble être fermé à la région par la masse opaque du Haut-Atlas. Mais Marrakech et sa région s'ouvrent également sur le sud. Leurs relations avec le monde pré-saharien, saharien et avec l'Afrique Noire se faisaient par l'intermédiaire d'innombrables cols et passages superbement suspendus dans le massif du Grand-Atlas. Le passage de Tizi N'Tichka, s'élève à 2235 mètres, et mène vers le Tafilalet et le Sahara. Le Tizi N'Test qui s'élève à 2094 mètres, et le Tizi N'Maâchou à 1375 mètres d'altitude conduisent vers le Sous, le Sénégal et la Niger. De longues pistes reliaient la ville à ces contrées. Marrakech a toujours été la capitale incontestée de tout le sud marocain dans lequel sa présence se fait sentir dans le village le plus lointain. Par ailleurs, le Haut-Atlas fournissait de riches alpages pour les transhumants d'été et constitait un précieux réservoir d'eau pour la plaine et pour la ville. Mais c'était aussi un important réservoir d'hommes. En effet, les berbères Masmouda avaient successivement emigré vers la ville depuis sa création et avaient profondement participé à sa prospérité et à sa culture.

Malgré sa position intérieure, le Haouz a été ouvert sur l'Europe et le monde méditérranéen. Marrakech a souvent entretenu des relations commerciales avec l'étranger, à travers l'océan Atlantique, par l'intermédiaire des ports situés sur la côte. Safi, son port naturel, est le plus proche de tous. Il est distant de 155 kilomètres. Il sera, jusqu'à la fin du XVIIème siècle, le principal port exportateur des produits ruraux ou citadins destinés à l'étranger, en étant aussi le port importateur essentiel de Marrakech, et sa région. Essaouira, l'ancienne Mogador, se trouve à 175 Km. Elle reprendra le rôle de Safi au XVIIIème siècle. Casablanca, le port le plus récent et qui se transforma, en un court Laps de temps, en une gigantesque métropole économique nationale, bouleversant et modifiant à son profit toute la situation géo-économique du pays, est distante de 245 Km. Son impact sur le territoire national et sa brutale polarisation de l'espace géographique marocain sont bien

la région. En effet, beaucoup d'ouvrages (2) les ont suffisamment et savement traités. On insistera, par contre, sur les éléments qui influencent directement les rapports de Marrakech avec sa région, notamment la localisation géographique. En effet l'étude de cette dernière par l'intermédiaire de la description et de l'analyse de la position et du site, doit mettre en valeur toute l'importance de la localisation du Haouz et de sa ville, et faire ressortir au passage et brièvement, les éléments topographiques les plus marquants de la région.

A- **Dynamisante durant les premiers siècles de la création de la ville, la position de Marrakech et de sa région, s'est dévalorisée à partir de la fin du XIX° siècle.**

Le Haouz est une plaine vaste qui s'étire de l'est vers l'ouest dans une déclinaison assez légère, mais qui prend des formes plaines dans quelques endroits.

Son inclinaison est plus forte du sud vers le nord. Elle est encerclée par le grand massif du Haut Atlas au sud, tandis, que les modestes reliefs de Jbilete l'encadrent au nord. L'allongement récent du Maroc, du fait de son étirement plus au sud par la récupération des Provinces sahariennes et leur intégration dans la Patrie mère, a replacé la ville de Marrakech et sa région, dans une position géographique centrale dans le pays. La ville et sa région se situent désormais dans le centre ouest du Maroc. De vastes plaines atlantiques s'étendent sur son ouest-nord-ouest. Ce sont le pays de Doukkala, Abda et Haha. Elles sont riches et humides sous l'effet des brises de vent que leur apporte l'océan. Les deux premières surtout, constituent le grenier du Maroc en céréales. Avant même l'établissement de Marrakech, les habitants d'Aghmet-Ourika, anciens agricultures et sédentaires, envahis par les nomades Almoravides et gênés par le mode de vie pastoral de ceux-ci, durent afin de les éloigner de leur ville, vanter à l'émir Abou Bakr, le site de la future capitale et préssentirent même le rôle que prendre la plaine de Doukkala, dans l'approvisionnement de la ville en céréales, en soulignant que la "... vallée du N'Fis serait son jardin, les terres des Doukkala son grenier" (3) Au nord, le Haouz est bordé par les

---

(2) Jean DRESCH, **Recherche sur l'évolution du relief dans le massif central du Grand Atlas, le Haouz et le Sous,** Paris, 1941, 708p 40 pl.

— O.R.M.V.A.H. (Office Régional de Mise en valeur Agricole du Haouz), Les ressources naturelles et la mise en valeur de la plaine du Haouz, **Revue de Géographie du Maroc,** n° 17, 1970, 46 p.

— Henri DELANNOY, Aspect du climat de Marrakech et de sa région, **Revue de géographie du Maroc,** n° 20, 19

— Paul PASCON, **Le Haouz de Marrakech,** Rabat, 1977, 2 volumes, tome I et II, 693 pages, cartes, graphiques doc. en arabe, Ed. marocaines et internationales, Tanger, Tome I.

— M. Martin, la question hydraulique dans la région de Marrakech, **Revue de géographie marocaine,** t. VII 1er et 2ème trim. n° 1, 1927, pasc. IV, pp. 50-72.

... Pour ne citer que les ouvrages consultés.

(3) Al Hulal Al-Mouchia, anonyme, texte arabe 5 et 6, éd. 1936, Trad. 33-34.

Cette intervention d'apport modeste, est tirée de la partie préliminaire d'un travail qui se propose d'examiner les modalités d'influence et d'intervention de la ville de Marrakech sur l'agriculture du Haouz[1].

Après un essai qui va nous permettre de situer la ville de Marrakech dans son milieu géographique régional et Local, et de la définir par rapport à ce milieu, on tentera de saisir les aspects essentiels d'influence de Marrakech sur le paysage agraire de sa région depuis la création de la ville jusqu'aux Almohades.

I- Considérations générales sur l'importance de la localisation de la ville de Marrakech et de la région du Haouz

La région du Haouz de Marrakech se distingue nettement des autres plaines agricoles marocaines par l'évolution socio-historique qu'elle a connue et par l'ensemble des facteurs de géographie physique, dont on a toujours souligné l'ingratitude et qui ont, pour une longue période, influé sur les activités et le paysage agraire de la région. En dépit d'une géographie physique toujours contraignante, l'homme, que ce soit de la ville ou de la campagne, a bien marqué et marque encore davantage le paysage rural haouzien.

Le site de la ville a longtemps marqué son expansion spaciale. La position, qui a largement favorisé l'épanouissement de la ville peu de temps après sa création, s'est beaucoup dévalorisée à partir du début du XXème siècle par le brusque balancement du Maroc vers la côte atlantique et la marginalisation croissante du Maroc intérieur. Le climat, avec son aridité, pèse lourdement sur les activités agricoles et para-agricoles de la région. L'éternel problème de l'eau, que les Almohades, puis les Saâdiens avaient réussi à résoudre pour un moment, se pose toujours avec obstination. Il le restera tant qu'une solution adéquate n'aura pas vu le jour. Cette eau, la ville la dispute de plus à la campagne, celle-ci en souffre tragiquement, et l'on va toujours la chercher hors du haouz central. Mais il y a aussi la persistance d'éléments que l'homme ne peut facilement maitriser. Le Chergui, ce vent bruleur d'herbe, et les températures trop élevées ou trop basses sont autant de facteurs néfastes pour l'agriculture Haouzienne. Et si leur répercussion reste généralement précaire et éphémaire, ils donnent par contre des coups fatals à la production agricole lorsqu'ils surviennent à des moments où les récoltes sont vulnérables, et compromettent par ailleurs, l'activité agro-industrielle de Marrakech.

On ne traitera pas de ces problèmes de géographie physique, bien que leur connaissance soit utile pour se familiariser avec le milieu de

---

(1) Abdelkrim SARDA, **La tutelle agricole de Marrakech sur le Haouz Central étude géographique,** thèse de Doctorat de 3° cycle, institut de géographie d'Aix-Marseille II, septembre 1983, 406 p. 19 cartes, 28 courbes, figures, diagrammes 47 tableaux.

Note sur Marrakech et l'agriculture du Haouz des Almoravides aux Almohades

Abdelkrim SARDA, Maître-assistant, département de géographie, Marrakech

برنامـــج نـــدوة

«مراكش من التأسيس إلى آخر العصر الموحودي»
أيام 14 ــ 15 ــ 16 أبريل 1988

ــ الخميس 14 أبريل 1988

صباحا :

ــ س. 09،30 ــ افتتاح الندوة
ــ كلمة السيد رئيس الجامعة
ــ كلمة السيد عميد الكلية
ــ كلمة اللجنة المنظمــة

حفـل شـاي

ــ س. 10،00 ــ زيارة المعارض :
• معرض الاستاذ حامد التريكي : «التطور المعماري لمراكش».
• معرض الاستاذ عبد الغني أبو العزم : «وثائق وخرائط حول مراكش» و«الصور القديمة للمدينة».
• أبحاث طلبة الكلية حول مراكش.

ــ الجلسة الأولى :
• الرئيس : د. حسن جلاب ــ كلية الاداب ــ مراكش
• المقرر : تيّ الطاهر العلوي ــ كلية الآداب ــ مراكش.

ــ س. 10،20 ــ بعض المظاهر الطبيعية للحوز.
ذ. محمد الأكلع ــ كلية الآداب ــ مراكش
ــ س. 10،40 ــ حول تسمية مراكش
ذ. أحمد التوفيق ــ كلية الآداب ــ الرباط
ــ س. 11،00 ــ ملاحظات حول موضع وموقع مراكش
ذ. عبد الكريم سردة ــ كلية الآداب ــ مراكش
ــ س. 11،20 ــ العنصر البشري بمراكش
ذ. أحمد بلاوي ــ كلية الآداب ــ مراكش
ــ س. 11،40 ــ مناقشة

الخميس مساء :

ــ الجلسة الثانية : الرئيس : ذ. حامد التريكي ــ نيابة التعليم ــ مراكش
المقرر : ذ. ولد بن عزوز ــ كلية الآداب ــ مراكش

ــ س. 15،00 ــ من أودغشت إلى مراكش : قراءة في تاريخ المرابطين من خلال وثائق اركيولوجية
ذ. الموساوي العجلاوي كلية الآداب ــ مراكش

ــ س. 15،20 ــ إشكالية التعمير بمراكش
ذ. عبد العزيز الجدوني ــ كلية الآداب ــ مراكش

ــ س. 15،40 ــ مراكش بين التأسيس والتمدين في العصرين : المرابطي والموحدي
ذ. ئ ابراهيم لكديم الصوصي ــ كلية الآداب ــ مراكش

ــ س. 16،00 ــ أسماء الأماكن ودراسة تاريخ مدينة مراكش
ذ. محمد أوجامع ــ كلية الآداب ــ مراكش

ــ س. 16،20 ــ استراحة

ــ س. 16،30 ــ المدينة والدولة (مرحلة التأسيس)
ذ. عبد الغني أبو العزم ــ كلية الآداب ــ عين الشق البيضاء

ــ س. 16،50 ــ مناقشة

الجمعة 15 أبريل 1988 :

صباحا :

ــ الجلسة الثالثة : الرئيس : د. أحمد شوقي بنبين ــ كلية الآداب ــ الرباط
المقرر : ذ. محمد أوجامع ــ كلية الآداب ــ مراكش

ــ س. 09،20 ــ ملاحظات حول تاريخ العوام في مراكش خلال القرن السادس الهجري.
ذ. ابراهيم القادري بوتشيش ــ كلية الآداب ــ مكناس

ــ س. 09،40 ــ سياسة المرابطين الفكرية بين التأييد والتنديد
ذ. محمود اسماعيل عبد الرزاق ــ كلية الآداب عين شمس ــ مصر (ألقي بالنيابة عن الاستاذ).

ــ س. 10،00 ــ المسجد ووظائفه بمراكش زمان الموحدين
ذ. حامد التريكي ــ نيابة التعليم ــ مراكش

ــ س. 10،20 ــ الحركة الصوفية بمراكش الموحدية
ذ. حسن جلاب ــ كلية الآداب ــ مراكش

ــ س. 10،40 ــ استراحة

ــ س. 11،00 ــ المدينة والدولة (القسم الثاني).
ذ. عبد الغني أبو العزم ــ كلية الآداب عين الشق البيضاء.

ــ س. 11،20 ــ مناقشة

الجمعة مساء

— الجلسة الرابعة : الرئيس : ذ. أحمد عمالك — كلية الآداب — مراكش
المقرر : ذ. عبد العزيز جسوس — كلية الآداب — مراكش

— س. 15،00 — الكتب والمكتبات على عهد المرابطين والموحدين
ذ. أحمد شوقي بنبين — كلية الآداب — الرباط

— س. 15،20 — يوسف بن تاشفين والامام الغزالي
ذ. محمد الامراني — كلية الآداب — مراكش

— س. 15،40 — قضية الجانب الشرقي بمراكش
ذ. محمد رابطة الدين — كلية الآداب — مراكش

— س. 16،00 — ابن العريف : شخصية صوفية أندلسية بمراكش
ذ. عبد السلام الغرميني — كلية الآداب — فاس

— س. 16،20 — استراحة

— س. 16،40 — مناقشة

السبت 16 ابريل 1988

صباحا :

— الجلسة الخامسة : ذ. محمد بوغاني — عميد كلية الآداب والعلوم الانسانية — مراكش
المقرر : ذ. أمحمد جاري — كلية الآداب — مراكش

— س. 09،00 — ملاحظات أولية حول مناظرة مراكش : بين ابن تومرت وفقهاء المرابطين
ذ. ولد بن عزوز — كلية الآداب — مراكش

— س. 09،20 — معالم من الفكر الموحدي بمراكش
ذ. عبد الواحد العسري — كلية الآداب — تطوان

— س. 09،40 — ابن رشد من أعلام الفكر المغربي بمراكش الموحدية
ذ. أحمد شحلان — كلية الآداب — الرباط

— س. 10،00 — منصب قاضي الجماعة بمراكش في العصر الموحدي
ذ. محمد مغراوي — كلية الآداب — أكدير

— س. 10،20 — مناقشة

— س. 11،15 — **اختتام الندوة** : — كلمة السيد العميد

مركز الدراسات والأبحاث حول مراكش

الأستاذ المشرف على المركز
حسـن جـلاب

تدعيماً للبحث العلمي وتطويراً له، واقتناعاً بأن المؤسسة الجامعية يجب أن تمارس البحث إلى جانب تلقين المعارف، وتقديراً لما للمؤسسة الجامعية من مسؤولية في خدمة المحيط القريب منها والبعيد، واعتداداً بأن العلم مهما اختلفت موضوعاته وتنوعت حقوله يتغيأ خدمة الإنسان في المكان والزمان.

وشعوراً، بأن مؤسسة كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة القاضي عياض يمكن أن تساهم ــ بعد عمرها المتواضع ــ وطنياً وقومياً وإنسانياً في هذا النهر العظيم للمعرفة الإنسانية.

تبعاً لكل ذلك تأسس وليد جديد ضمن هذه المؤسسة الجامعية هو : **مركز الدارسات والأبحاث حول مراكش.**

ويتوخى تحقيق هدفين أساسيين :

الأول :

جمع الوثائق والدراسات المكتوبة جول مراكش تاريخاً وحضارة بكل اللغات.

الثاني : تنشيط وتطوير الابحاث حول المدينة.

ــ الهدف الاول :

الوثائق التي نسعى إلى الحصول عليها هي : الكنانيش، المراسلات العامة والخاصة، فهارس العلماء وبرامجهم، والإجازات، التآليف، والدراسات المخطوطة والمطبوعة، الخرائط، التصاميم والصور التذكارية. المؤلفات الأجنبية التي تتصل بالمدينة من كل اللغات : الرحلات، التقارير والانطباعات، المذكرات والقصص والدواوين الشعرية.

ــ تأسيس خزانة : تنهض بالمهام التالية :

أ ــ تصنيف الوثائق والدراسات التي يحصل عليها المركز.

ب ــ التعريف بها : ــ عن طريق وضع ببليوغرافيا منتظمة.

ــ وإصدار نشرة دورية إخبارية

ج ــ تزويد الباحثين والدارسين داخل المغرب وخارجه بما يحتاجون إليه من وثائق ودراسات.

ويتم اغناؤها عن طريق الشراء والتبادل والتصوير.

الهدف الثاني: تنشيط البحث حول مراكش وتطويره.

أ ــ بتنظيم محاضرات : حول تاريخ المدينة وحضارتها، التعريف بأعلامها ودراسة واقعها الحاضر وآفاقها المستقبلية، يلقيها أساتذة جامعيون ومهندسون والأطر العليا للمندوبيات الجهوية.

ب ــ الندوات : عقد ندوات وموائد مستديرة حول جوانب معينة من حضارة المدينة.

ج ــ المعارض : تنظيم معارض للتطور العمراني بالمدينة، وللصور التذكارية وللفنون الشعبية، والمخطوطات والوثائق.

د ــ الرحلات والزيارات العلمية داخل المدينة وحول محيطها.

هـ ــ طبع البحوث المقدمة في المحاضرات والندوات والموائد المستديرة.

و ــ تشجيع البحوث الجامعية حول مراكش برصد الجوائز للجيد منها.

ز ــ العمل على نشر وتحقيق التآليف الأساسية المتصلة بمراكش وأعلامها.

ح ــ ترجمة المؤلفات الصادرة باللغات الأجنبية عن مراكش وأعلامها المشاهير.

وحتى يتسنى لنا تحقيق هذه الأهداف لا بد من تضافر جهود المؤسسات العلمية والجامعية وتقديمها المساعدات اللازمة للمركز الناشيء.

وهذه الندوة هي أولى ثمرات المركز.

الحلقة الثانية

(مراكش خلال العصرين المريني والسعدي)

السنة الجامعية 89 ــ 1990

الفهرس